أثر العصبية في الأدب الأندلسي

حتى بداية عصر الموحدين

إعداد

عامر أحمد محمد الجعفريّ

عميد كلية الدراسات العليا

إشراف

الاستاذ الدكتور صلاح جرّار

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربيّة وآدابها

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

آب ١٩٩٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت هذه الرسالة وأُجيزت بتاريخ ٥ / ٨ /١٩٩٨

أعضـــــاء لجنـــــة المنـــــاقشة	التـــوقيـــــــع
١- الاستاذ الدكتور صلاح جرّار / رئيساً	.....
٢- الدكتور جـــــاسر أبو صفيّة / عضواً	.....
٣- الدكتور محمد علي أبو حمدة / عضواً	.....
٤- الدكتور فـــايـــز القيســـــيّ / عضواً (جامعة مؤتة)	.....

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهداء .....

إلى أمّي .....

إلى أبي .....

إلى إخوتي .....

إلى كل التلاميذ الصّغار على مقاعد الدرس ،،،

أهدي هذا الجهد المتواضع.

عامر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر وتقدير

بعد إنجاز هذا البحث، أتقدم بجزيل الشكر والامتنان إلى الأستاذ الدكتور صلاح جرّار، وذلك لتفضّله بقبول الإشراف على إعداد هذه الرسالة، وعلى ما قدّمه لي من توجيه وإرشاد أخذت من وقته وجهده الكثير، وعلى ما لقيته منه من حُسن معاملة.

كما أتقدّم بالشكر الجزيل إلى الدكتور جاسر أبو صفيّة، والدكتور محمد أبو حمدة، والدكتور فايز القيسي، على تفضلهم بقبول مناقشة هذا البحث.

كما أتقدم بعظيم الشكر إلى الأخوة الأعزاء: فضل خليل، وأحمد عكيلة، ووليد حجاوي، وسمير أبو سيف، وزياد جادالله، ونعيم نمر، وعبداللطيف القاطوع على ما قدّموه لي من مساعدة لإتمام هذا البحث.

وكذلك كل الشكر والتقدير إلى قسم اللغة العربية في الجامعة الأردنية،،،،،

عامر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس المحتويات

المـــــــوضـــــــــــوع	رقم الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
شكر وتقدير	د
فهرس المحتويات	هـ-ز
فهرس المختصرات العربية	ح-ك
الملخص باللغة العربية	ل-م
المقدمـــــــــة	١-٥
التمهيـــــــــد	٦-٣٤
معنى العصبية	٦
أولاً: معنى العصبية في اللغة والمفهوم الإسلامي	٦
ثانياً: معنى العصبيّة عند ابن خلدون	٨
بين العصبيّة والشعوبيّة	١٢
العناصر السكانيّة في الأندلس	١٥
أولاً: العرب	١٥
ثانياً: البربر	١٩
ثالثاً: المولّدون	٢٢
رابعاً: اليهود	٢٤
خامساً: الصقالبة	٢٧
سادساً: المستعربون	٣٢
الفصل الاول: أثر العصبيّة في الشعر	٣٥-٧٤
العصبية العرقيّة	٣٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضوع	رقم الصفحة
أولاً: بين العرب والمولدين	٣٧
ثانياً: هجاء الصقالبة وذمّهم	٤٢
العصبية القبليّة	٤٧
العصبية الدينيّة	٥١
أولاً: بين المسلمين واليهود	٥٢
ثانياً: بين المسلمين والنصارى	٥٧
العصبية المذهبية	٦٠
العصبية الإقليمية ((الجغرافية))	٦٧
الفصل الثاني: أثر العصبية في الموشّحات، الأزجال، الأمثال الأندلسيّة	٧٥-٨٥
الموشحات	٧٥
الازجال	٨٠
الأمثال الأندلسية	٨٢
الفصل الثالث: أثر العصبيّة في النثر الأندلسي	٨٦-١٥٤
العصبيّة العرقيّة	٨٧
رسالة ابن غرسية والردّ عليها	٨٩
الرد الأول: لأبي الطيب بن منّ الله القروي	٩٨
الرد الثاني: ردّ الأديب أبي جعفر بن الدودين البلنسيّ	١٠٥
الرد الثالث: من كتاب لابن عبّاس	١٠٩
الرد الرابع: صاحبه مجهول	١١١
الرد الخامس: للشيخ المبارك الأفضل أبي يحيى بن مسعدة	١١٥
كتاب سليمان المستعين إلى جماعة العبيد	١٢٦
ردّ أبي الأصبغ بن الأرقم على ابن سيدة	١٢٨
العصبيّة الدينيّة	١٣٠
كتاب الناصر لدين الله بفتح ببشتر	١٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضـــــــوع	رقم الصفحة
رسالة ابن حزم في الردّ على ابن النغريلة اليهودي	١٣٥
العصبيّة الإقليميّة	١٣٧
رسالة أبي المغيرة عبدالوهاب بن حزم	١٤٢
رسالة ابن حزم في فضل الأندلس وذكر رجالها	١٤٥
الفصل الرابع: الخصائص الفنيّة والأسلوبيّة	١٥٥-١٧٨
اللفظ والمعنى	١٥٥
أثر القرآن الكريم	١٦٣
السجع	١٦٨
التكرار	١٧١
المزج بين النثر والشعر	١٧٤
أسلوب الجدل والاحتجاج	١٧٦
الخاتمـــــــة	١٧٩
المصادر والمراجع	١٨١-١٩٢
الملخص باللغة الإنجليزية	١٩٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس المختصرات العربيّة

المصادر:

ابن الأبّار- الحلّة

ابن الأثير- المثل السائر

ابن الأثير- الكامل في التاريخ

الألبيري- الديوان

ابن بسّام- الذخيرة

ابن بشكوال- الصلة

الجرجاني- الوساطة بين المتنبي وخصومه

ابن حجر- لسان الميزان

ابن حزم- الرد على ابن النغريلة

- رسائل ابن حزم

ابن حمديس- الديوان

عبدالقادر الجرجاني- دلائل الإعجاز

الحميدي- جذوة المقتبس

الحميري- الروض المعطاء

ابن حيّان- المقتبس

ابن خاكان- قلائد العقيان

ابن خفاجة- الديوان

ابن خلكان- وفيات الأعيان

ابن خلدون- تاريخ ابن خلدون

- المقدمة

الخوارزمى- مفاتيح العلوم

أبو داود- السنن

ابن درّاج- الديوان

الذهبي- سير أعلام النبلاء

الرمادي- الديوان

الزوزني- شرح المعلقات

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابن زيدون- الديوان

ابن سعيد- المغرب

السلفي- أخبار وتراجم أندلسيّة

ابن سناء الملك- دار الطراز

ابن شهيد- الديوان

الضبي- بغية الملتمس

ابن طباطبا- عيار الشعر

ابن عبدربه- الديوان

- العقد الفريد

ابن عذاري- البيان المغرب

ابن غرسية- رسالة ابن غرسية والردّ عليها

ابن الفرضي- تاريخ علماء الأندلس

ابن قزمان- الديوان

ابن القوطية-تاريخ افتتاح الأندلس

لسان الدين الخطيب- الاحاطة

أعمال الأعلام

مجهول-أخبار مجموعة

المراكشي- الذيل والتكملة

المراكشي- المعجب

المسعودي- مروج الذهب

مسلم- صحيح مسلم

المقري-نفح الطيب

الميداني- مجمع الأمثال

ابن هشام- السيرة

أبو الوليد الباجي- رسالة راهب

أبو الوليد الحميري- البديع في وصف الربيع

ياقوت الحميري- معجم البلدان

يحيى الغزال- الديوان

أبو يحيى الزجالي- أمثال العوام في الأندلس

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعاجم اللغوية:

الزبيدي- تاج العروس

ابن فارس- مقاييس اللغة

الفيروزأبادي- القاموس المحيط

ابن منظور- لسان العرب

ابراهيم أنيس وآخرون- الوسيط

المراجع:

إحسان عبّاس- تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين

جواد علي- المفصل في تاريخ العرب

جودت الركابي- في الأدب الأندلسي

الزركلي- الأعلام

زكريا إبراهيم- ابن حزم الأندلسي

سيد غازي- ديوان الموشّحات

شكيب ارسلان- الحلل السندسيّة

شوقي ضيف- عصر الدول والإمارات

الطاهر مكي- دراسات عن ابن حزم

عبدالرزاق حسين- الأدب العربي في جزر البليار

عبدالعزيز الأهواني- الزجل في الأندلس

عبدالعزيز الدّوري- الجذور التاريخيّة للشعوبيّة

عبدالعزيز عتيق- الأدب العربي في الأندلس

عبدالغني مغربي- الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون

عبدالله السامرائي- الشعوبيّة حركة مضادة للإسلام

علي بن محمد- النثر الأدبي في الأندلس في القرن الخامس

علي لغزيوي- أدب السياسة والحرب

عمر الدقاق- ملامح الشعر الأندلسي

عمر كحالة- معجم قبائل العرب

فضل عباس- البلاغة فنونها وأفنانها

بروفنسال- سلسلة محاضرات عامة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ماهر هلال- جرس الألفاظ

مجموعة مؤلفين- أضواء على التعصب

محمد عنان- الموشحات الأندلسيّة

محمد الدغلي- الحياة الاجتماعيّة

محمد الجابري- فكر ابن خلدون

محمد خفاجي- الحياة الأدبية في الأندلس

محمد المنجد- التربية الإسلاميّة

مصطفى الشكعة-صور من الأدب الأندلسي

هاني نصري- عصبيّة لا طائفيّة

يسري سلامة- الأدب الأندلسي

يوسف طويل- مدخل إلى الأدب الأندلسي

الرسائل الجامعيّة:

جمانة باشا- أثر الأندلسيّة في الأدب الأندلسي

شريف علاونة- قضايا النقد الأدبي والبلاغة

عبداللطيف محمود- شعر الحرب في الأندلس

عصام المطري- الحركة الشعرية في ظل المنصور بن أبي عامر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملخص

أثر العصبيّة في الأدب الأندلسي حتى بداية عصر الموحّدين

إعداد

عامر الجعفري

المشرف

الأستاذ الدكتور صلاح جرّار

إنّ الظّاهرة الأدبيّة هي أفضل ناقلٍ لصورة العصرِ الذي نشأت فيه، إذ هي تعبّر عن مشاعر وأحاسيس الناس، وهمومهم وآلامهم ... إلى غير ذلك. ويَصْدُق هذا القول على الأدب الأندلسيّ بكافّة أشكاله، شعره وموشحه ونثره ....

لَقَد تأثر الأدب الأندلسي بالبيئة التي نشأ فيها، ونقل لنا صورة مشرقة على التفاعل الحضاري بين العناصر السكانيّة في الأندلس، وعن حُبّ الأندلسيين لوطنهم، وجهادهم وتضحياتهم.

كانت العصبيّة -بمفهومها الشامل- من الظّواهر التي نقلها لنا الأدب بصورة دقيقة، تتكشّف للباحث بالدّرس واستقراء الأدب بكافة أشكاله، ومن أنواع العصبيّات التي نقلها لنا الأدب:

١- العصبيّة القبليّة: وصوّر لنا الأدب العقليّة الأندلسيّة في بداية قيام الدّولة، واستمرارهم في التمسّك بمفهوم القبليّة، والتعصّب لها، بما حَمَلوه معهم من المشرق إذ نتج عن هذه العصبيّة انقسام في الصّف العربيّ، وتفرّق كلمتهم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢- العصبيّة العرقيّة: ويتّضح من الأمثلة الواردة فيها سَعْيُ الأجناس غير العربية للنيْل من مفهوم السيادة العربيّة، والدعوة للقضاء عليها. الأمر الذي ألهب مشاعرَ بعض قادة العرب للثورة على هؤلاء، ناصرين ومنتقمين لأنفسهم.

٣- العصبيّة الدينيّة: وهنا يتضّح للقارئ مفهوم التّسامح الإسلامي، والحريّة الدينيّة لأهل الديانات الأخرى، ولمْ يكن أهل الإسلام ليتعصبوا لدينهم إلاّ عندما سَعَى بعضُ المنحرفين للنيْل من الدّين الحنيفُ والتشكيك فيه.

٤- العصبيّة المذهبيّة: إذ سيطر المذهب المالكي في القرون الأولى على الفقه الأندلسي، ولم يُسْمح لغيره من المذاهب أن تطأ أرض الجزيرة، خوفاً من التفرّق المذهبي، هذا الأمر أشعل نار العصبيّة في الوقت الذي دعا فيه العالِم ابن حزم إلى مذهبه الظاهريّ.

٥- العصبيّة الإقليميّة ((الجغرافية)): وتعكس مفهوم انتماء الأندلسيّين لوطنهم، وسعيهم للدّفاع عنه في وجه المشارقة وأهل العُدوة بإنتاج علميّ يخصُّ وطنهم وقومهم.

إنّ العصبيّة في الدولة الأندلسيّة، قد خلّفتْ لنا أثراً واضحاً في الآداب الأندلسيّة، وربّما كانَ لهذه العصبيّة -بكافة أنواعها- أثر في تقهقر الدولة الأندلسيّة وتراجعها، الأمر الذي جَلَبَ لها الانقسام إلى طوائف ودويلات تدبّر المكائد لبعضها البعض.

ويَعْرِض هذا البحث لصور العصبيّة في الأدب الأندلسي في الشّعر والموشّح والأزجال والأمثال والنثر، وفي البحث دراسة فنيّة لأبرز الخصائص الفنيّة لأدب العصبيّة، الذي يعكس تطور الأدب الأندلسي ونموّه بنموّ الدولة واستقرارها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، الذي علّمنا وأدّبنا، وهدانا للإسلام دين العلم والحقّ والخير للبشرية، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين معلّمنا ونبيّنا محمد بن عبدالله ﷺ وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه الذين توحّدوا لخدمة الدّين بنبذ العصبيّات والكره فيما بينهم لقوله ﷺ ((ليس منّا مَنْ دَعا إلى عصبيّة))[1]، وبعد:

يتّفق الدّارسون للحضارة الأندلسيّة على أنّ المجتمع الأندلسي كانَ مزيجاً من عناصرَ سكانيّة مختلفة الأصول، وأنّ هذه العناصر قد ساهمت في تكوين البذرة الأولى لحضارة الأندلس.

فمن الناحية العسكرية كان الجيش الإسلامي المدافع عن الأندلس مزيجاً من عناصر مختلفة عرب، موالي، بربر، صقالبة، وهم موزعون بين قادة الجيش وأفراده، همّهم حماية البلاد من القوى الطامحة والطامعة لإزالتها واحتلالها.

أمّا من الناحية العلمية فإن هذا التمازج قد كوّن نواة لحضارة شاملة متماسكة بكافّة علومها. فصرنا نرى من الأطباء اليهود والبربر، ومن الأدباء العرب، ومن المؤلفين الموالي والصقالبة إلى غير ذلك من المجالات العلميّة التي برعوا فيها كالترجمة والغناء وعلوم الفلك والطيران. وكان همّ هؤلاء العلماء هو خدمة بلادهم ونقل صورة مُشرقة عن علومها تبقى خالدة ما بقي الدهر، ومحفورة في ذهنِ النّاس تدلُّ على التعاون الحضاري.

---

[1] سنن أبي داود جـ٤/٣٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إضافة لما سبق فقد تَرك لنا هذا المزيج السكّاني ظاهرة كان لها أثرها على مسار الحياة الأندلسيّة بمختلف اتجاهاتها، ألا وهي ظاهرة العصبيّة. ولا نعني هنا بمفهوم العصبيّة ذلك المفهوم الضيّق الدالّ على العصبيّة العرقيّة، وما تركته من فِتَن، بل يَشْمل البحث أنواعاً أخرى من العصبيّة، منها: (العرقية، والقبليّة، والإقليميّة، والدينيّة).

إنّ هذه العصبيّات بأنواعها المختلفة قد تَركَتْ أثراً على الحياة الاجتماعية الأندلسيّة، مما ظهَرَ على الأدب هناك، ذلك أنّ الأدبَ هو الصورة المعبّرة عن الحياةِ الاجتماعيّة التي يحياها النّاس، لذا فقد وجدنا بعض صور هذه العصبيّة في الأدب الأندلسيّ.

إنّ ما دَفَعَ الباحث لدراسة هذه الظاهرة هو محاولة التعرفِ على آثار هذه الظاهرة في الأدب، ومدى صدق الأدب في نقلها لنا، إضافة إلى المحاولة في إيجاد الصلة بين مظاهر الانحدار في الحضارة الأندلسيّة وتفشي العصبيّة في المجتمع.

إذ لا بدّ أن يلمح القارىء أنّه في الوقت الذي تفرقت فيه عصا الجماعة، كانت الدولة تتقهقر إلى الوراء، تاركة الساحة لأعدائها يعبثون وينهبون بمدّخرات الأمّة.

قسِّمت هذه الدراسة إلى تمهيد وأربعة فصول، أمّا التمهيد فتناول مفهوم العصبيّة في اللغة والمفهوم الإسلامي، وبيان العصبيّة التي نهى عنها الإسلام.

ومفهوم العصبيّة عند العالِم المسلم ابن خلدون، وارتباط مفهومه بمفهوم القوة للدولة. وبعد ذلك جاء الحديث عن العصبيّة والشعوبيّة لبيان أبرز الفروق بينهما.

وتناول التمهيد إضافة إلى ذلك دراسة للعناصر السكانيّة التي عاشتْ في الأندلس للتعرّف على نمط معيشتها، وثقافتها، وقدراتها العلميّة، مع محاولة الوقوف على نقاط العصبيّة عند تلك الشعوب وأثرها في بنية المجتمع الأندلسي الداخلية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمّا الفصل الأول، فتناول الحديث عن أثر العصبيّة في الشعر، إذ كان الشّعر الأندلسي أسبق النماذج الأدبيّة ظهوراً، لذا كان لا بُدَّ أن تتمثل بعضُ نماذج العصبيّة فيه.

وتناول الفصل الثاني أثر العصبيّة في الموشحات والأزجال والأمثال الأندلسيّة، ولعل أبرز ما يربط هذه النماذج الأدبيّة ببعضها أنّها وليدة المجتمع الأندلسي. وهي تمثّله أدقّ تمثيل، لذا فإنّ العصبيّة في الموشحات -على سبيل المثال- كانت نابعة من كونها فنّاً أندلسيّاً خالصاً، افتخر به الأندلسيون أمام المشارقة، في الوقت الذي أُتّهموا فيه بالتقصير والتقليد والعجز الأدبي.

أمّا الفصل الثالث، فقد تحدّث عن أثر العصبيّة في النثر الأندلسي، واستحوذت العصبيّة العرقيّة مع أمثلتها على جُلّ هذا الفصل متمثّلة بالرسالة التي كتبها ابن غرسيّة يطعن بالعرب وبالردود عليه وهي أربعة أندلسيّة وردٌّ لرجل مغربيّ هو يحيى بن مَسْعَدة، آثرت الحديث عنه، لأنّها رَدٌّ على رجل من الأندلس ولأنّ رسالته تشكل منهجاً أدبيّاً وموضوعيّاً في رسائل الردّ على ابن غرسيّة.

وتناول الفصل رسائل أوضحت مفهوم العصبيّة الدينيّة، والعصبيّة الإقليميّة أو الجغرافيّة وكيف عبّرت عن حماس الأندلسيين في الدفاع عن بلدهم.

الفصل الرابع وتناول الحديث عن أبرز الخصائص الفنيّة لأدب العصبيّة ومحاولة التمثيل على هذه الخصائص، وهي:

- اللفظ والمعنى.
- التأثر بالقرآن الكريم.
- السجع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- المزج بين الشعر والنثر.
- التكرار.

استفادَ الباحثُ في دراسته من بعض المراجع الحديثة التي درست شعر الحرب والسياسة في الأندلس، وكانت الاستفادة منهجيّة وعلميّة، ومن هذه الدّراسات:

١- كتاب الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي "لجمعة شيخة"، فقد تناول المؤلف في كتابه الفتن الداخليّة في الأندلس، وأثرها على الحياة الأدبيّة هناك، دون التعرض لعصبيّة الأندلسيين لدولتهم الفتيّة، أضف إلى ذلك أنّ المؤلّف قد قَصَر دراستَه على أثر الفتن في الشعر دون غيره من الفنون الأدبيّة في الأندلس.

٢- كتاب أدب السياسة والحرب في الأندلس "لعلي لغزيوي"، وتناول فيه المؤلف مساحة واسعة من أدب السياسة للدولة الأندلسيّة، وقد وضع المؤلف في كتابه نماذج أدبيّة متنوّعة للتمثيل على الحروب والفتن التي شبّت نارها في الأندلس. إلاّ أنّ الكتاب لا يُعدّ دراسة للعصبيّة، لأن العصبيّة ليست مقصورة على مجال السياسة والحرب، بل تعدّتهما إلى مواضيع أخرى.

٣- أطروحة ماجستير بعنوان "الأندلسيّة وأثرها في أدب الأندلس حتى نهاية عصر الموحدين" مقدّمة من الطالبة جُمانَة باشا في جامعة حلب (١٩٩٦). ودرست فيها الباحثة تعلّق الأندلسيين بوطنهم والنزوع إليه، ومحاولتهم لإثبات ذاتهم وتفوقهم وتأكيد امتيازهم أمام الشعوب الإسلاميّة الأخرى ولا سيّما المشارقة. والباحثة تدرسُ النهوض الذي شهدته الأندلس في شتّى العلوم، والإبداع الذي أفضى إلى استقلال الشخصيّة في ثقافتها وفكرها وإبداعها، وهي دراسة شاملة قيّمة لمفهوم الأندلسيّة، وإبداعات الأندلسيين.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤- أطروحة ماجستير بعنوان "شعر الحرب في الأندلس من الفتح حتى سقوط الخلافة" مقدمة من الطالب عبداللطيف محمود مجيد في الجامعة المستنصريّة - بغداد (١٩٨٧)، ودرس أثر الحرب في شعر الحماسة والفخر، وما أبدعه الشعراء في وصف المعارك والحروب ومدح القادة، وهو يتبع دراسته بدراسة فنيّة قيّمة للشعر. والرسالة اقتصرت على دراسة فنّ الشعر، أضف إلى ذلك أنّ الدراسة لم تشر إلى الصّراع القبلي الذي دار في بداية قيام الدولة الأندلسيّة، وأثر ذلك على الفنون الأدبيّة هناك.

وأخيراً فإنّ الطالبُ يرجو أن يكون قد وُفّقَ في دراسة ظاهرة كان لها أثرها في مسيرة الحياة الأندلسيّة، انعكس هذا الأثر على الأدب الأندلسي.

وهي دراسة يقدّمها طالبٌ يخطو أولى خطواته على درب العلم والبحث، فما كان فيها من خير فمن الله، وما كان فيها من شرّ فمن نفسي ومن الشيطان، راجياً من الله أن ينفعنا بخيرها وأنْ يعلمنا بما يَنْفَعُنا إنّه نعم المولى ونعم النّصير.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التّمهيد

مفهوم العصبيّة

العناصر السكانيّة في الأندلس

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التمهيد

معنى العصبيّة:

أولاً: معنى العصبيّة في اللغة، والمفهوم الإسلامي:

العصبيّة كلمة عربيّة مشتقةٌ من لفظ ((عَصَبَ))، الذي يعني حرفياً: ربط، شدّ، جَمَعَ، لَفَّ، ... والكلمات المشتقة من هذا الفعل تدور في فلك تلك المعاني. فالعَصَب: هي أطناب المفاصل التي تلائم بينها[١]، والعَصْبُ: القَتْلُ، وعَصَبَ الشيء: قَبَضَ عليه، والعَصْبُ: لزوم الشيء، ويقال: عَصَبوا به: أي أحاطوا به ومنه العُصْبَة[٢]. أمّا عُصْبَة الرجل: فهم بنوه وقرابته لأبيه، وإنّما سُمّوا عُصْبَة لأنّهم عصبوا به أي أحاطوا به[٣].

فالمعاني اللغوية السابقة تؤكد مفهوم اللُحمة والترابط، وهما أساس العصبيّة إذ لا بدّ من جامع يوحّد أفراد العصبة في أهدافهم وتوجهاتهم، فينشأ الوعي العصبي الذي يشدّ الأفراد بعضهم إلى بعض، ويجعل منهم كائناً واحداً تفنى فيه ذوات الأفراد. من هنا فقد عُرّفت العصبيّة بأنها رابطة اجتماعية (سيكولوجيّة) شعوريّة ولا شعوريّة معاً، تربط أفراد جماعة ما، ربطاً مستمراً، وتشتدّ عندما يكوُن هناك خطرٌ يهدّد أولئك الأفراد. كأفراد أو كجماعة[٤].

ويؤكد بعض الباحثين على أنّ فكر التعصّب يتضمّن عنصرين أحدهما إيجابي وهو اعتقاد المرء بأن الفئة التي ينتمي إليها، سواء أكانت قبيلة أم وطناً أم مذهباً فكرياً أو دينياً أسمى من بقيّة الفئات، والثاني سلبيّ وهو اعتقاد الفرد بأنّ تلك الفئات الأخرى أحط من تلك التي ينتمي إليها[٥].

---

(١) الزبيدي، تاج العروس، مادة (عَصَبَ).
(٢) ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (عَصَبَ).
(٣) ابن منظور، لسان العرب، (عَصَبَ)، الفيروز أبادي، القاموس المحيط (عَصَبَ).
(٤) محمد الجابري، فكر ابن خلدون/١٦٨.
(٥) مجموعة مؤلفين، أضواء على التعصّب/١٦٠.

All Rights Reserved - Library

ويبدو أنّ مفهوم العصبيّة في الاصطلاح المُعجميّ والإسلامي قد رُبط بالظلم بالنظر إلى ما تميّز به العرب من تعصّب لقبيلتهم. فالعصبيّة في المُعجم أن يدعو الرجل إلى نُصرة عُصْبَته والتألّب معهم على مَن يُناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين[١].

أمّا مفهوم العصبيّة في الإسلام فيتضح في حديث النبيّ ﷺ فعن بنت واثلة بن الأسقع: أنّها سمعت أباها يقول: قلت يا رسول الله، ما العصبيّة؟ قال: أنْ تُعين قومك على ظُلْم))[٢]. وعنه ﷺ ((العصبي من يعين قومه على الظُلم))[٣].

لَقَد صرف الإسلام معنى العصبيّة للدلالة على التنازع والاعتداد بالأنساب وذلك مقابل الدين الذي يدعو إلى الوحدة والتآخي وتآلف القُلوب، وقَد نَهى الإسلام عنها لارتباطها بالظلم، وبالنظر إليها على أنّها ظاهرة اجتماعية شديدة الخطورة، وبخاصة عندما تتخذ أشكالاً عدوانيّة سافرة[٤].

إنّ النبي ﷺ قَد دَعا القبائل العربيّة للتوحّد تحت جَناح الأخوّة والألفة، فرفضت تلك القبائل هذه الدعوة السّامية منطلقة في رفضها من أساس قبلي عصبي. لذا فإنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام حذّر من القبلية ودَعا إلى ذوبانها في العصبيّة للأمّة الواحدة[٥] وهو ينفي هذا المتعصّب عن مفهوم الجماعة المسلمة في قوله علية السلام: ((لَيس منّا مَنْ دَعَا إلى عصبيّة ولَيْسَ مِنّا من قاتل على عصبيّة، ولَيْسَ منّا من ماتَ على عصبيّة[٦])).

---

[١] ابن منظور، لسان العرب، مادة (عَصَبَ).

[٢] سنن أبي داود، جـ٤/٣٣١.

[٣] ابن منظور، لسان العرب، مادة (عَصَبَ).

[٤] عبدالغني مغربي، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون/١٥٠.

[٥] مجموعة مؤلفين، أضواء على التعصّب/١٥٠.

[٦] سنن أبي داود جـ٤/٣٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد رأى ﷺ في هذه العصبيّة، امتداداً لمعتقدات وأفكار جاهلية، وهي تخالف المبادىء السامية التي دعا إليها. لذا فقد قال النبي ﷺ لأبي ذرّ الغفاريّ، إنك امرؤ فيك جاهليةٌ[١]، عندما عيَّر أبو ذرٍّ بلالَ بن رباح بسواده.

إنّ المسلم إن غلبته عصبيّته الضيقة المحددة ومات على تلك العصبيّة فميتته جاهلية، وهذا تأكيد على الفكرة السابقة، بأنّ هذه العصبيّة امتداد للمفاهيم الجاهلية التي حاربها الإسلام.

فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: ((ومن قاتل تحت راية عميّة، يغضب لِعَصَبَة أو يدعو لِعَصَبَة أو ينصر عَصَبَةً، فقُتل، فقِتْلَةٌ جاهليّة[٢])).

إن الدعوة الإسلامية دعوة شاملة كاملة لكلّ الإنسانية، ومفهوم العصبيّة السابق، يتنافى مع هذه المفاهيم الإسلامية،لذا فقد حاربها الإسلام، ورأى ((العصبيّة إذا دَخَلَتْ قضيةً أفسَدَتها))[٣].

وهكذا تصبحُ العصبيّة بفضل النبي ﷺ التحاماً ينصهر فيه جميع سكان المعمورة، بعد التحوّل من عصبيّة النسب إلى العصبيّة الجماعيّة[٤].

ثانياً: معنى العصبية عند ابن خلدون:

يختلف مفهوم العصبيّة عند العلاّمة ابن خلدون عن المفهوم السابق. إذ هي القوّة الجماعيّة التي تمنح القدرة على المواجهة، والتي تدفع الجماعات البشرية لتأكيد ذاتها وللنضال من أجل السيادة وإحراز المراتب السلطانية وإقامة أقطارها وممالكها والمحافظة على سلالتها الحاكمة من أي شوب.

---

[١] محمد المنجّد، التربية الإسلامية/١٣.

[٢] صحيح مسلم جـ١٢/٤٤١.

[٣] جواد علي، الفصل في تاريخ العرب جـ٩/٢٢٨.

[٤] عبدالغني مغربي، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون/١٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لذا فإنّ هذه القوّة التي تحقق مفهوم الملك: ((فقد ظهر أنّ الملك هو غاية العصبيّة وأنها إذا بلغت إلى غايتها حصل للقبيلة الملك))[١].

ويقول تأكيداً على فكرة القوّة: ((ثمّ إنّ المُلكَ منصبٌ شريف ملذوذ يشملُ على جميع الخيرات الدنيويّة والشهوات البدنية والملاذ النفسانيّة فيقع فيه التنافس غالباً، وقلّ أن يُسلّمه أحدٌ لصاحبه إلا إذا غلب عليه، فتقع المنازعةُ وتفضي إلى الحرب والقتال والمغالبة وشيء منها لا يقع إلا بالعصبيّة[٢])).

٤٩٤٩١٤

ويؤكد ابن خلدون على أهمية العصبيّة بأنّ الدعوة الدينية من غيرها لا تتم ((وهذا لما قدمناه من أنّ كُلَّ أمر تحمل عليه الكافة فلا بُدّ له من العصبيّة وفي الحديث الصحيح: ((ما بعثَ اللهُ نبيّاً إلا مَنَعَه من قومِه)) وإذا كان هذا في الانبياء وهم أولى النّاس بخرق العوائد، فما ظنّك بغيرهم، لا تُخرق له العادة في الغلب بغير العصبيّة[٣])).

ويردُّ ابن خلدون العصبية إلى الفطرة الإنسانية من أجل الحاجة إلى الأعوان للسيطرة، يقول: ((وهي نزعةٌ طبيعيّةٌ بين البشر مُذ كانوا[٤])). فهي نزعة تحمل على التعاضد والتناصر الغريزي، فتختلفُ قوتُها بقدرِ الحاجة الغريزيّة إليها[٥].

إنّ السؤال الذي يطرح هنا، ما هو أساس هذه العصبيّة وأساس هذا الالتحام الغريزي؟

يقرر ابن خلدون في مقدّمته أنّ أساس العصبيّة هو الالتحام بالنسب أو ما في معناه، لأنّ ((صلة الرحم طبيعيّ في البَشَر إلاّ في الأقلّ، ومن صلتها النُّعْرَة على ذوي القُربى وأهْلِ الأرحَام

---

[١] ابن خلدون، المقدمة جـ٢/٥٠٠.

[٢] المصدر نفسه جـ٢/٥٢١.

[٣] المصدر نفسه جـ٢/٥٢٨.

[٤] المصدر نفسه جـ٢/٤٨٤.

[٥] هاني يحيى نصرى، عصبيّة لا طائفيّة ص/١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنْ ينالهم ضيم أو تصيبهم هَلَكة، فإنّ القريبَ يجدُ في نفسهِ غضاضةً من ظُلْم قريبهِ أو العَداء عليه ويودُّ لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك[١])).

ويقول: ((فإذا كان النسبُ بَيْنَ المتناصرين قريباً جداً، بحيث حَصَلَ به الاتّحاد والالتحام، كانت الوصلةُ ظاهرة .... ومن هذا تفهمُ معنى قوله ﷺ ((تعلموا من أنسابكم ما تصلونَ به أرحامكم)) بمعنى أنّ النسب إنّما فائدتُه هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والنُّعْرَة[٢])).

وتعتمد العصبية برأي ابن خلدون على انسجام العناصر المكوّنة لها، لا على كثرتهم أو قلتهم لذا فهو يشير إلى أنّ العصبيّة إنّما تكون في الالتحام بالنسب أو ما في معناه[٣].

وهنا وقفة لا بُدّ للباحث أن يقفها، وهي أنّ المقصود بالنسب بين أفراد الجماعة ليس القرابة الدموية وحدها، بل يتسع المفهوم إلى القوّة التي تفرض على الجماعة نوعاً من التضامن قوّياً من أجلِ مصلحتها المشتركة ((إذ بها تكون الحماية والمدافعةُ والمطالبة، وكلُّ أمرٍ يُجْتَمع عليه، وقدّمنا أنّ الآدميين بالطبيعة الإنسانية يحتاجون في كُلِّ اجتماع إلى وازع وحاكم يزعُ بعضهم عن بعض[٤])).

إنّ الدعوة الدينيّة تزيدُ الدولة في أصلها قوة على قوة العصبيّة التي لها، كما يرى ابن خلدون، والسبب في ذلك أن الصبغة الدينية تَذْهبُ بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبيّة، وتفْرِدُ الوجهةَ إلى الحق، فإذا حَصَلَ لهم الاستبصار في أمْرِهم لم يقفْ لهم شيء[٥].

---

[١] ابن خلدون، المقدمة جـ٢/٤٨٤.

[٢] المصدر نفسه جـ٢/٤٨٤.

[٣] المصدر نفسه جـ٢/٤٨٤.

[٤] المصدر نفسه جـ٢/٤٩٩.

[٥] المصدر نفسه جـ٢/٥٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبما أنّ العصبيّة هي القوّة الدافعة للجماعة لتحقيق أهدافهم وملكهم، وبها يتأتى تغيير الأوضاع الفاسدة[١]، فإنّ هذه العصبيّة عُرْضة للفساد والزوال في حالتين:

أولاهما: حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم، فتضعف الدولة بضعف القبيل لأنّ ((همّتهم النعيم والكسب وخصب العيش والسكون في ظلّ الدولة إلى الدّعة والرّاحة والأخذ بمذاهب الملك في المباني والملابس والاستكثار من ذلك والتأنق فيه بمقدار ما حَصَلَ من الرياش والترف وما يدعو إليه من توابع ذلك ... فتضعف العصبيّة والبَسالة، ويستتكفون عن سائر الأمور الضرورية في العصبيّة[٢])).

ثانيتهما: حصول المذلة للقبيل والانقياد إلى سواهم[٣]، لأنّ حصول المذلّة مناقض لمفهوم العصبيّة التي بها تستجلب القوة وتكون المدافعة والحماية والمقاومة والمطالبة.

لذا فإنّ العصبيّة لا تشتدّ ولا تقوم بدورها التاريخي إلا حَيْثُ يكون النّاسُ أحراراً من كلّ سلطة خارجيّة[٤].

ونخلص مما سبق إلى أنّ كلمة العصبية ليست من المصطلحات التي ابتكرها ابن خلدون، بل كانت معروفة وشائعة الاستعمال في العربيّة، خاصة بعد الإسلام.

إلاّ أن ابن خلدون قد أضفى عليها مفهوماً جديداً، يبتعد عن مفهوم التنازع والفرقة والتنافر. إذ يدعو مفهومه إلى الالتحام والانسجام بين أفراد العُصْبَة الذين توجههم أهدافهم ومعتقداتهم، وفي الوقت الذي يحصل فيه الانسجام، تتأتى العصبيّة والقوّة وبها يتم الغَلَبُ والملك. ومفهوم ابن خلدون للعصبية ينسجم مع مفهوم الدين في الدعوة إلى التآخي وتغيير الأوضاع الفاسدة بالقوّة.

---

[١] محمد الجابري، فكر ابن خلدون/١٨٩.
[٢] ابن خلدون، المقدمة جـ٢/٥٠١.
[٣] المصدر نفسه جـ٢/٥٠١.
[٤] محمد الجابري، فكر ابن خلدون/١٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثاً: بين العصبية والشُعوبية:

ارتبطت حركة الشعوبية بحركة الأعاجم في المشرق ولا سيّما في العصر الأموي، حيث اقتصرت على صفوف الموالي، وقد تلونت مشاركتهم أحياناً بتذكر الأمجاد الماضية أو إحياء الآراء الدينية القديمة، ومن المألوف أنّ تنسب حركات الأعاجم في المشرق إلى أنّ السلطان العربي في الفترة الأموية اضطهدهم واحتقرهم وأرهقهم بالضرائب وأبعدهم عن الإدارة، واحتقرهم اجتماعياً[١] .

إنّ مفهوم العصبيّة الأندلسية أكثر اتساعاً من مفهوم الشعوبيّة السابق. لقد أعطت الدولة الأندلسية كافة الأجناس التي عاشت فيها حقها، وأدخلتها تحت جناحها، معلنة أنّ شعارها هو خدمة الدولة والإسلام.

فصرت تسمع عن اليهود يتولون المناصب العليا في الدولة، بل وينالون كافة حقوقهم واحترام شعائرهم، ومن الموالى من صار قائداً للجيوش الإسلامية في فتوحاتها ومن البربر من كوّن دولةً مستقلةً تخصُّ أبناءَ جنسه، وقبل كُلّ ذلك فقد قدرهم الامراء والخلفاء وقدّموهم على خواصّ أمورهم.

إنّ السؤال الذي يُطرح هنا، ما الذي جَعَلَ بعض هذه الفئات السكانية، تتَعصّب كما أوردت المصادر التاريخية؟

يجب علينا أن نقرّر أنّ اتساع العصبيّة في الأندلس عائدٌ إلى هذا المزيج السكاني الذي عزّ نظيره. لذا كان من الطبيعي أن تظهر نماذج وأنواع متباينة للعصبيّة. ويبدو أنّ تعصّب هذا الفئات السكانية ضد الأخرى عائدٌ لأسبابٍ سياسيّة -في أكثر الأحيان- فالعصبية القبليّة،

---

[١] عبدالعزيز الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية/١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والعصبيّة بين العرب والمولدين، تأججت نارُها في بداية نشوء الدولة عندما حاولت هذه الأطراف السيطرة على الدولة. أمّا عصبيّة اليهود ضد الإسلام فكانت لطمعهم بإنشاء دولة تخصّهم، فأخذوا يكيدون المكائد والحيل لهذا الغرض، فكان الوبال عليهم.

أمّا العصبيّة الإقليميّة بين الأندلس والمشرق، فهي قائمة على نزعة إثبات الذات، فالدولة الأندلسية حديثة العهد حاولت أن تقف ثابتة أمام من قلّل من شأنها في السياسة أو الأدب ... أو غير ذلك.

كان الشعوبيون قد أدركوا العلاقة بين العروبة والإسلام وأدركوا أنّ مهاجمة الإسلام تجرُّ عليهم تُهْمَة الزندقة، فعملوا على فَصْلِ العروبةِ عن الإسلام، بدعوى أنّ الإسلام دين البشرية جمعاء وأنّه ليس للعرب فضلٌ على غيرهم[١] وبعد هذا أخذ الشعوبيون في المشرق يطعنون بالإسلام والتشكيك فيه واختلاق الفرقة والمنافرات بين أهله.

أمّا العصبية العرقية في الأندلس (شعوبية الأندلس) فلم تلجأ إلى الطعن بالإسلام، بل هم يقرون بالدين، ويؤمنون بشموليته، إذ ليس للعرب فضلٌ على غيرهم فيه، وقد مثّلت رسالة ابن غرسية -كما سيرد- هذا النموذج، فتراه يعلنُ تمسكه بالإسلام، في الوقت الذي تحامل فيه على العرب، وعاب عليهم أسلوب أسلوب حياتهم في مطاعمهم وملابسهم وفي فصاحتهم، وفي اساليب قتالهم وأنسابهم، في علاقاتهم الاجتماعية، في كرمهم، وفي مقاييسهم الخلقيّة وفي مروءتهم[٢].

ويخلص الباحث مما سبق أن مفهوم العصبيّة في الأندلس كان أوسع من مفهوم الشعوبية في المشرق. إذ شملت هذه العصبيّة أنواعاً منها:

---

[١] عبدالله بن سلّوم السامرائي، الشعوبية حركة مضادة للإسلام ص/١٣٤.

[١] عبد العزيز الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية ص/٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١- عصبيّة عرقيّة، اعتمدت في نوعية حربها على التمايز العرقي، وأبرز ما يمثلها الصراع بين العرب والبربر، والصراع بين العرب والمولدين.

٢- عصبيّة إقليميّة: بين الأندلس حديثة العهد والمشرق فالمشرق قد نظر إلى الأندلسيين نظرة دونيّة، دفع الأندلسيينِ للتعصب لاقليمهم.

٣- عصبيّة قبليّة: حملها العرب معهم من المشرق في بداية تشكل الدولة، إذ سعوا لتولي الأمور في الدولة على أساس قبلي، فكان التناحر بينهم.

٤- عصبيّة دينية: اشتعلت نارها عندما سَعَى اليهود والنصارى -الذين يعيشون تحت ظلّ الدولة الإسلاميّة في الأندلس- للنيّل من الإسلام والطعن بمعتقداته ومبادئه، إذ ليس الإسلام دين عصبيّة، إلا على مَن تعدى حدوده على الدين الحنيف.

وسيردُ في ثنايا البحث تفصيل لهذه العصبيات مع التمثيل عليها من النماذج الأدبية المختارة، إضافة إلى الدّور الذي أسهمه التنوّع السكاني في إذكاء نار هذه العصبية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العناصر السكانيّة في الأندلس:

تكوّن المجتمع الأندلسيّ من عناصرَ سكانيّة أثْرَت الحياة الثقافيّة والحضاريّة في الأندلس، وساهمت في البناء الفكري والعسكري للدولة، ولا بدّ هنا من ذِكر أهم هذه الأجناس لارتباط الحديث عنها بمفهوم العصبيّة الأندلسيّة.

أولاً: العرب:

وهم من أهم العناصر السكانية في الجزيرة الأندلسيّة، فقد أدّوا دوراً مهمّاً وكبيراً في الأحداث التاريخيّة للجزيرة. ارتبط الوجود العربي في الأندلس، بالجيش الإسلامي الذي قاده طارق بن زياد لفتح الجزيرة، فقد ضمّ هذا الجيش نفراً من العرب، قدّرهم بعض المؤرخين بنحو ثلثمائة، يقابلهم زهاء عشرة آلاف من البربر[١]، كما ضمّ موسى بن نصير في عسكره إلى الأندلس وجوهَ العربِ إضافة إلى غيرهم من العناصر[٢].

ازداد النفوذ العربي في الأندلس بدخول السمح بن مالك الخولاني[٣]، بعد أن ولي سنة مائة في خلافة عمر بن عبدالعزيز -رضي الله عنه- إذ دخل معه جيشٌ من العَرَب[٤]. أمّا بلجُ بنُ بشر[٥] فدَخل بجيش كله من العرب لمساندةِ عبدالملك بن قَطَن[٦] على البربر الذين تطاولوا عليه سنةَ ١٢٢هـ.

---

[١] تاريخ ابن خلدون، م٤/٢٥٤.

[٢] المقري، نفح الطيب جـ١/٢٣٣.

[٣] السمح بن مالك الخولاني، قدم إلى الأندلس سنة ١٠٠هـ، بأمر من عمر بن عبدالعزيز، استشهد في وقعة البلاط، وكانت قرطبة عاصمته، وهو الذي بنى قنطرتها، (ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس/١٩٢).

[٤] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس/١٩٢.

[٥] بلج بن بشر القشيري القيسي، فارس شجاع، كان والياً على طنجة وما والاها، انهزم بعد أن تكاثر البربر عليه إلى الأندلس في جماعة من أصحابه، وقع خلاف بينه وبين أميرها حينئذ عبدالملك بن قطن، توفي سنة ١٢٥هـ. (الضبي، بغية الملتمس جـ١/٣٠٦، الحميدي، جذوة المقتبس في ولاة الأندلس/١٧٠).

[٦] عبدالملك بن قطن بن نهشل الفهري أمير الأندلس، ولي الأندلس سنة ١١٤هـ بعد مقتل أمير عبدالرحمن الغافقي ظفر به بلج بن بشر وأخرجه من قصره في ذي القعدة عام ١٢٣هـ (المقري، نفح الطيب، جـ١/٢٣٦، ابن عذاري، البيان المُغرب جـ٢/٣٠).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ دخول بلج بن بشر قد ولّد نزعتين عصبيتين:

أولاهما: عصبيّة عرقية بين العرب والبربر، وبخاصة بعد أن تولى بلج الأمر في الأندلس، وسعى لإذلال البربر والتقليل من شأنهم ومحاربتهم.

ثانيتهما: عصبيّة بين العرب أنفسهم، فقد كان العربُ الذين دخلوا مع طارق بن زياد، وموسى بن نصير قد تسمّوا بالبلديين، وأمّا الذين جاؤوا مع بلج فقد عُرفوا بالشاميين، فنشبت بين الفريقين حروب مشهورة[١] وزاد من أمر العصبيّة بينهم أنّهم قَسّموا قُرَى غرناطة بينهم حَسَبَ من سكنها، فمن قرى غرناطة، ياجر الشاميين، وقرية ياجر البلديين[٢]. وشبت الفتن والحروب بينهم، حيث استعانَ أهل البلد بالبربر ضدّ الأمويّين والشاميين، عند تولّي ثعلبة بن سلامة العاملي[٣] أمْرَ البلاد، وكانوا يقولون لأهل الشام، بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عَنّا[٤]. ولم يزل الأمر بينهم على ما هو عليه من عصبيّة، إلى أنْ دَخَلَ "أبو الخطّار[٥] الأندلس، فدانتْ له، وسُمّي عَسْكره بعسكر العافية[٦].

ثم إنّ أبا الخطّار الذي سَعَى لإطفاء نار العصبيّة في الأندلس، ما لبث أنْ تعصّبَ لليمانية على المضريّة، وأسخط قيساً، فهاجَتْ الفتنة العمياء، التي جعلت يوسف بن عبدالرحمن

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب جـ٢/٣٢، ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس/٨٢، مجهول، أخبار مجموعة/٤٩.

[٢] لسان الدين الخطيب، الإحاطة جـ١/١٢٧.

[٣] ثعلبة بن سلامة العاملي: ولاه أهل الأندلس في اليوم الثاني لموت بلج سنة ١٢٤هـ في شوال وكان ولايته عشرة أشهر. (ابن عذاري، البيان المغرب جـ٢/٣٢، تاريخ ابن خلدون م٤/٢٥٩)

[٤] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس/٨٢.

[٥] هو أبو الخطّار حسام بن ضرار الكلبي، قدم والياً على الأندلس في رجب سنة ١٢٥هـ، بعد ثعلبة بن سلامة، كان فارساً، وشاعراً محسناً، مالت به العصبيّة اليمانية على المضرية وتحامل عليهم وأسخط قيساً، قتله الصميل سنة ١٢٩هـ (المقري، نفح الطيب ج١/٢٣٨، الضبي، بغية الملتمس جـ١/٣٤٤).

[٦] المقري، نفح الطيب جـ١/٢٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفهري[١] ووزيره الصّميل بن حاتم[٢] بعد أن وليا أمرَ المضرية ينتقمان من اليمانية أشدّ انتقام، فيقالُ إنّه لم يكن بالمشرق ولا بالمغرب حَرْبٌ أصدق منها جلاداً ولا أصبرُ رجالاً، طال صبر بعضهم على بعض، إلى أن فني السلاح[٣].

كان من المتوقع أن تنْحَسِر العصبيّة القبلية بين مُضرَ واليمن، بعد دخول عبدالرحمن بن معاوية المعروف بالدّاخل إلى الأندلس[٤]، إلا أنّ الأمور سارت بعكس ما كانَ متوقّعاً، فقد كانت الحرب بين الدّاخل ويوسف الفهري قائمةً في أساسها على العصبيّة القبليّة، إذ قامت اليمانية والأموية مع الداخل[٥]، وأصفقَتْ مُضَرُ كلّها مع يوسف[٦].

ولم يتخلَ اليمانيّة عن عصبيتهم بعد أن أستقرّ الأمرُ للداخل، فقد ثار عليه جماعة من اليمانية مع قائدهم سعيد اليحصبي[٧]، فخَرجَ إليهم الدّاخل فأكثر فيهم القتل، مما دفَعَ الداخل

---

[١] هو يوسف بن عبدالرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري، كان شريفاً جليلاً، حازماً، عادلاً، اجتمع عليه أهل الأندلس بعد موت أميرهم ثوابة بن سلامة، دانت له الأندلس تسع سنين وتسعة أشهر، وكان آخر الأمراء في الأندلس، قتل سنة ١٤٢هـ. (ابن الأبّار، الحلة جـ٢/٣٤٧، لسان الدين الخطيب، الإحاطة جـ٣/٣٣٩).

[٢] هو الصميل بن حاتم بن شمّر بن ذي الجوشن، رأسَ على المضربة، كان شجاعاً فارساً، أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وكانت له في قلب الدول وتدبير الحروب أخبار مشهورة. (ابن الأبّار، الحلة جـ١/٦٧، لسان الدين الخطيب، الإحاطة جـ٣/٣٤٦، مجهول، أخبار مجموعة/٥٧، المقري، نفح الطيب جـ١/٣٣٧)

[٣] المقري، نفح الطيب جـ٣/٢٥.

[٤] هو عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن عبد شمس، الملقب بصقر بني أميّة، توفي سنة ١٧٢هـ (لسان الدين الخطيب، الإحاطة جـ٣/٤٦٧-٤٦٨، الضبي، بغية الملتمس جـ١/٣٢)

[٥] الضبي، بغية الملتمس جـ١/٣٢.

[٦] المقري، نفح الطيب جـ١/٣٢٨، مجهول، أخبار مجموعة/٧٧.

[٧] سعيد اليحصبي المعروف بالمطريّ، ثار في سنة ١٤٩هـ، واجتمعت إليه اليمانية، وسار إلى إشبيلية، فكثر عدد وتأزر عضده، إلى أن قتله الداخل ومن معه سنة ١٤٩هـ، (ابن عذاري، البيان المغرب جـ٢/٥٣، المقري، نفح الطيب جـ٣/٣٤).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للاستعانة بالأجناس الأخرى من البربر والموالي واستكثر من العبيد وصارَ بهؤلاء غالباً على أهل الأندلس من العرب فاستقامتْ مملكته[١].

قدمت لنا بعض المصادر التاريخيّة أسباباً واهيةً لاشتعال الفتنة بين القيسيّة واليمنيّة، ففي زمن عبد الرحمن بن هشام المعروف بالأوسط[٢]، اشتعلت الفتنة بين الطرفين مرّة أخرى، لأنّ مُضرياً جَمَع بَعْضَ أوراق الدّالية من جنان يمني، فقتله اليمني فاشتعلت الفتنة ودامتْ سبع سنين[٣]، ومهما يكن من أمرٍ فإنّ ما حمله كلُّ طرفٍ من العصبية ضد الآخر هو ما جعلهما يتربصان ببعضهما للانتقام، بغض النظر عن هذه الأسباب الواهية.

ضَمّت دولةُ الخليفةِ عبدالرحمن النّاصر[٤] عناصر سكانية عديدة بجانب العرب، دون أنْ تَظهر عصبية بين هذه العناصر في أكثر الأحيان لاعتماد النّاصر سياسة العدلِ والمساواة في الدولة والسعي لخدمة الأمّة الإسلاميّة.

أمّا المنصور بن أبي عامر[٥] فقد سعى لإذلال القبائل العربيّة الطامحة للحكم، بإجازة البربر إليه، وذلك لعلمه أنّ بقاء القبائل قوية بعصبيتها سيؤدي إلى زوال دولته ونفوذه[٦].

---

[١] المقري، نفح الطيب جـ٣/٣٦-٣٧.

[٢] هو عبدالرحمن بن الحكم بن هشام مولده سنة ١٧٦هـ، بويع بعد موت أبيه بيوم واحد سنة ٢٠٦هـ، دامن خلافته إحدى وثلاثين سنة، توفي سنة ٢٣٨هـ. (ابن عذاري، البيان المُغرب جـ٢/٨٠).

[٣] ابن سعيد، المغرب جـ١/٤٨، ابن عذاري، البيان المغرب جـ٢/٨٢.

[٤] الخليفة الناصر، هو عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم الربضي بن هشام بن عبدالرحمن الداخل، أول من تلقب بالخلافة من رجال الدولة الأموية، بويع له بعد جدّه سنة ٣٠٠هـ، أنشأ مدينة الزّاهرة، توفي سنة ٣٥٠هـ. (لسان الدين الخطيب، أعمال الأعلام/٢٨-٢٩، ابن سعيد، المغرب جـ١/١٨١، ابن عذاري، البيان المُغرب جـ٢/١٥٦).

[٥] المنصور بن أبي عامر، هو محمد بن عبدالله بن عامر بن محمد أبي عامر بن الوليد بن بزيد بن عبدالملك المعافريّ القحطاني، أصلهِ من الجزيرة الخضراء، دامت حجابته ٢٦ عاماً، إلى أن توفي سنة ٣٩٢هـ. (ابن بسّام، الذخيرة م١/ق٤/٧٤، لسان الدين الخطيب، أعمال الأعلام/٧٧).

[٦] المقري، نفح الطيب جـ١/٤٠٥-٤٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وسلك المظفر[١] نهج أبيه في الاستعانة بالأجناس الأخرى لخدمته والقيام بأمور الدولة.

ومما لا شك فيه أنّ التعصب للجنس العربي قد ازداد بَعْدَ أنْ وُجدت دويلات كانت تَخصُّ أو تَضُمُّ جنساً بعينه، في زمن ملوك الطوائف، مثل دولة بني عَبّاد في إشبيلية الذين يقول عنهم لسان الدين الخطيب: ((بنو عَبّاد من العربِ الدّاخلين إلى الأندلس من لخم))[٢].

ثانياً: البربر:

أدى البربر دوراً مهماً في الأندلس -لا ينكره باحث- في الساحتين الأدبية والجهاديّة، إضافة إلى إسهامهم في نشر الإسلام والدفاع عنه أمام جموع النصارى المتربصة للقضاء على الدولة الأندلسيّة.

ويرتبط الحديث عن البربر بمَراحل الفتح الأندلسي، إذ ضَمّ جيش الفتح عدداً كبيراً من برابرة العدوة، بل إنّ ما يثبت لنا الدورَ الهامّ الذي قامت به البرابرة في فتح البلاد، أنّ موسى بن نصير نهض من القيْرَوان سنة ثلاث وتسعين، وضَمّ جيشه الضخم وجوهاً من العرب والموالي وعُرَفاءِ البربر[٣]. وهو يصفهم برسالة بعثها إلى سليمان بن عبدالملك بقوله "هم أشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة وفروسية"[٤].

ازداد النفوذ البربري قوّةً بعد وصول عبدالرحمن الدّاخل إلى الأندلس، عندما اتخذهم عنصراً يعتضد به أمام العرب الثائرين عليه لقتله زعيمهم أبا الصباح اليحصبي، قال ابن حيان: ((فاتخذ -أي الداخل- أربعين ألفَ رجل، صار بهم غالباً على أهل الأندلس من العرب فاستقامت

---

[١] عبدالملك بن محمد، ولي بعد أبيه سنة ٣٩٢هـ، لقب المظفّر، وسيف الدولة، له غزوات عظيمة في بلاد الروم، توفي في صفر سنة ٣٩٩هـ، (ابن عذاري، البيان المُغرب جـ٣/٣).

[٢] لسان الدين الخطيب، أعمال الأعلام/١٥٢.

[٣] الحميدي، جذوة المقتبس٥٠؛ تاريخ ابن خلدون م٤/٢٥٤.

[٤] ابن عذاري، البيان المغربُ جـ٢/٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مملكته وتوطدت))[١]. ومع أنّ بعض البربر قد ثاروا مرّات عدّة على عبدالرحمن الدّاخل وابنه هشام إلا أنّ ذلك لم يمنعهما من الاستعانة بهم لإقامة شؤون الدولة[١].

واستعان الخليفة الناصر بالبربر في حروبه، بعد أن اجتذب كثيراً منهم ومن فرسانهم إلى حضرته[٣]. وهو يصفهم في إحدى رسائله: ((هذه صفاتكم مَعْشرَ البربر الخالصة طاعتكم، المحمودة بصائركم، المشكورة في الإسلام أيامكم، المشهورة في الحرب ملاحمكم، لم تزالوا مجاهدين في سبيل الله حَقّ جهاده[٤])). واتخذ الخليفة الحكم المستنصر البرابرة حماة للدين والدولة، بعد أنْ أدركَ شدّة بأسهم عند اجتماعهم[٥].

انثال البربر على المنصور بن أبي عامر، ومازالوا يتلاحقون به، حتى صاروا أكثر أجناد الأندلس، ولم تزلْ طائفة منهم خاصة ابن أبي عامر، وهم أظهر الجند نعمة وأعلاهم منزلة[٦]، ودعاهم المظفّر بن أبي عامر، فدخلوا عليه، حتى صار يتخذ منهم ندماء وجلساء[٧].

وبعد أن انتهت الفتنة البربرية، تولى جماعة منهم عدداً من المدن في الأندلس، إذ قسّم المستعين[٨] البلاد على رؤسائهم وكانوا ستّ قبائل، فأعطى صنهاجة إلبيرة، فبقيت بيد حَبّوس وذريته نحو المائة عام، وأعطى مغراوة جَوّ في البلاد، وأعطى بني زروال وبني يَفْرن جَيّان

---

[١] المقري، نفح الطيب جـ٣/٣٦.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب جـ٢/٢٥٧.

[٣] ابن حيّان، المقتبس جـ٥/٢٥٧.

[٤] المصدر نفسه جـ٥/٣٢٧.

[٥] ابن حيّان، المقتبس"تحـ د. مكي"/١٩٠.

[٦] ابن عذاري، البيان المغرب جـ٢/٣٧٨-٣٧٩.

[٧] ابن بسّام، الذخيرة م١/ق٤/٨١.

[٨] المستعين: سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، الخليفة بقرطبة، المكنّى بأبي أيوب، مولده سنة ٣٥٤هـ، دخل قرطبة مرتين سنة ٤٠٠هـ وسنة ٤٠٣هـ ومعه البربر، قتله علي بن حمود سنة ٤٠٧هـ، (لسان الدين الخطيب، الإحاطة جـ٤/٢٧٣، الحميدي، جذوة المقتبس/١٩، ابن عذاري، البيان المغرب جـ٣/٩٠، ابن الأبّار، الحلة جـ٢/٥).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذواتها، وأعطى بني دَمّر وأرداجة شذونة ومَوْرور وغير ذلك من الحصون، أمّا غرناطة فقد امتلكها زاوي بن زيري بن مناد[١]، عميد صنهاجة في الفتنة البربرية[٢].

وحَرِصَ البربرُ على استمرار حكمهم وملكهم على المدن التي حكموها، فبعد انصراف زاوي إلى إفريقية، بقي بغرناطة ابن أخيه حبوس بن ماكس بن زيري، وجاء بَعْدَه ابنه باديس. الذي استبدّ بملكه إذ كان عادلاً عن سنن العدل وطريقه.

سَعَى باديس لتوسيع دائرة مُلكِ البربر، فملك كَورة رَيّة، وعظمتْ حياته، وضَخُم أمره، وتعددت جيوشه[٣]، ممّا يعني أنّ البربر قد أصبحوا قوة على أرض الأندلس لا يمكن إنكارها، فقد أدّوا دوراً مهمّاً في حماية الدولة الأندلسيّة أمام جموع النصارى الزاحفة للقضاء عليها.

أمّا المرابطون فقد حقّقوا مفهوم الدولة المتوحدة بعد جمع طوائف المُلْك تحت إمرة أمير واحد هو يوسف بن تاشفين، الذي تصفه المصادر العربية بأنه كان خائفاً لربّه، كتوماً لسرّه، كثير الدعاء والاستخارة، مديماً للاستغفار[٤].

ولا شكّ أنّ الفتنة البربريّة قد أفرزت لنا نماذج عديدة للعصبيّة بين العرب والبربر والتي أدّت إلى اقتتال الطرفين لحيازة الحُكْم كلٌّ إلى جانبه، يقول الحميدي: ((فلم يزل سليمان يجول بعساكر البربر في بلاد الأندلس يُفْسد وينهب، ويُقْفِرُ المدائن والقرى بالسّيف والغارة، ولا تبقي معه على صغيرة ولا كبيرة إلى أنْ دخل قرطبة))[٥].

---

[١] راوي بن زيري بن مناد الصنهاجي، يكنّى أبا مثنى ... رجل القبيل قاطبة، دهاءً وحزماً، أجاز إلى الأندلس في عهد المنصور. (تاريخ ابن خلدون م٤/٣٤٥، لسان الدين الخطيب، أعمال الأعلام/ ٢٢٨).

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب جـ٣/١٢٥، تاريخ ابن خلدون م٤/٣٤٥.

[٣] لسان الدين الخطيب، الإحاطة جـ١/٤٣١-٤٣٢.

[٤] المصدر نفسه جـ٤/٣٤٧-٣٤٨.

[٥] الحميدي، جذوة المقتبس/١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثاً: المولَّدون:

انضمّ عدد من عجم الأندلس من سكان البلاد الأصليين أو غيرها، إلى الإسلام، بعد الفتح الإسلامي، فَسُمُّوا بالمسالمة، وأُطْلِقَ على أبنائهم اسم المولدين.

وقد انصهر المولدون في الحياةِ الإسلاميّة، فعاشوا دون إكراه أو ظلم، ولم يَدُمْ الأمر على حاله، إذ شبّت الحروب والفتن بين العرب والمولدين، وهي فتن قائمة على العصبيّة العرقية، إذ كان القائم بأمر العرب في ذلك الوقت يحيى بن صُقالة[١]، الذي صُبَّ منه على المولدين والعجم أعظم آفة، إلى أنْ أصابوا منه غِرّة فثاروا به بغتة وقتلوه[٢] ويبدو أنّ الفتنة لم تشتعل نارُها إلا في الوقت الذي سعى فيه المولدون لتولي أمور الدولة وهو أمرٌ ترفضه العرب.

اتسع أمرُ الفتنة بَعْدَ أن تولى أمرَ العرب سوّار بن حمدون[٣]، فثار على المولدين الذين قادهم في فتنتهم ابن حفصون[٤]، فكانت حرباً شديدة أهلكت البشر وخرّبت المدن[٥].

---

[١] يحيى بن صقالة القيسي أول الخارجين من العرب ضد المولدين، صُبّ على المولدين والعجم منه ومن أصحابه أعظم آفة إلى أن أصابوا منه غرة فثاروا به بغتة وقتلوه (ابن الأبار، الحلّة جـ١/١٤٨).

[٢] ابن الأبار، الحلة جـ١/١٤٨.

[٣] سَوار بن حمدون القيسي المحاربي من محارب بن حَفصة بن قيس بن عيلان، ثار سنة ٢٧٦هـ، وتميز بالعصبية، غزا ابنَ حفصون، قتل سنة ٢٧٧هـ (لسان الدين الخطيب، الإحاطة جـ٤/٢٤٠، ابن عذاري، البيان المغرب جـ٢/١٣٣، ابن الأبّار، الحلة جـ١/١٤٩).

[٤] عمر بن حفصون، كبير الثوار في الأندلس، ونسبه عمر بن حفص المعروف بحفصون بن عمر بن جعفر، وكان عمر بن حفصون قدْ فرّ إلى العُدوة بعد أن عاقبه عامل ربّة في جناية، ورجع إلى الأندلس فداخل الرجال حتى ضبط جبل بُبَشتر، وكان بينه وبين سوّار بن حمدون أمير العرب بغرناطة عدة معارك، توفي سنة ٣٠٦هـ. (ابن سعيد، المغرب جـ٢/١٠٦، لسان الدين الخطيب، الإحاطة جـ٤/٣٨، الحميدي، جذوة المقتبس/٢٨٢، الضبي، بغية الملتمس جـ٢/٥٣).

[٥] ابن عذاري، البيان المغرب جـ٢/١٣٣، ابن الأبّار، الحلة جـ١/١٤٨، لسان الدين الخطيب، الإحاطة جـ٤/٢٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويظهر حرصُ ابن حفصون على السيادة في قوله لجماعته: ((طال ما عنّفَ عليكم السلطان، وانتزع أموالكم، وحمّلكم فوق طاقتكم، وأذلتكم العرب، واستعبدتكم، وإنما أريد أن أقوم بثأركم وأخرجكم من عبوديتكم))[١].

فَعَظُم أمر ابنُ حفصون، وانضمّ إليه أهل العصبية من المولدين، فكان أتباعه من شطّار النّاس، وكان يمنيّهم بفتح البلاد، متحبباً لأصحابه متواضعاً لألأفه[٢]. ولا شكّ أنّ ابن حفصون ومَنْ معَه من المولدين قد قاربوا على تكوين دولة تخصُّهم، مناهضة للدولة العربية الإسلامية، إذ تروي المصادر بأنه كان لهؤلاء المولدين مراكب فى البحر تمدّهم بما يلزمهم من العدوة إلى أن أحْرِقَتْ جميعها على يد الناصر سنة ٣٠١هـ[٣].

دفعت العصبيّة الدينيّة الخلفاء وجنودهم لمواجهة خطر بن حفصون وأعوانهِ، وبخاصة إذا ما عَرَفنا أنّ معظم أصحابه من النصارى[٤]. وتظهر الحمية الدينيّة في وصف ابن حيّان لصلب عمر بن حفصون في قرطبة، إذ يقول: ((وأمَرَ الناصرُ لدين الله باستثارة صَنَدَاهُ الخبيث من ملْحَده، وبحمل أوصاله الخبيثة النجسة إلى باب السُّدّة بقرطبة، ورفعه هنالك في أعلى الجذوع المنيفة، مُعْتَبراً لعيون الناظرين، إذ لاحتْ جَلِيَّةُ أمره عن ارتداده عن الإسلام الذي وُلِدَ عليه، واعتقادهُ النصرانية، وأبانت عن سوءِ نيّة)) إلى أن يصل إلى قوله ((وقرّتْ عيون المسلمين))[٥].

ولم تنتهِ عصبيّة المولدين ضدّ العرب بموت آل ابن حفصون، إذ وجدَ من الأخبار ما يثبت لنا أنّ بعض المولدين قد تعصّب لجنسه وعرْقه على الرغم من المنزلة التي وصلوا إليها، فابنُ

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب، جـ٢/١١٤.

[٢] المصدر نفسه جـ٢/١١٤.

[٣] ابن حيّان، المقتبس جـ٥/٨٧، ابن عذاري، البيان المغرب جـ٢/١٦٥.

[٤] لسان الدين الخطيب، أعمال الأعلام/٣١.

[٥] ابن حيّان، المقتبس جـ٥/٢١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السِّندي[١] -الذي استقضاه الخليفة عبدالرحمن النّاصر- كان شديد العصبية للمولدين، منْقِصاً للعرب حافظاً لمثالبهم[٢].

رابعاً: اليهود:

لم يكنْ لليهودِ دورٌ أساسيٌّ في الحياة الأدبيّة أو السياسيّة أو الاجتماعيّة كالدورِ الذي كان للعربِ أو البربر، إلاّ أنّ اليهود في الأندلس عنصر بشري لا يمكن إغفال الحديث عنه، وبخاصة أنّ يهود الأندلس ارتبط وجودهم في البلاد منذ مراحلِ الفتح الأولى، إذ كان القادة المسلمون بعد فتحهم للمدنِ الأندلسيّة، يضمّون اليهود المقيمين فيها ويجعلونهم مع طائفة من المسلمين، فطارق بن زياد ضَمَّ يهودَ إلبيرة إلى قصبة غرناطة عند افتتاحه لها، وكذلك فَعَلَ بطليطلة عندما فرَّ أهلُها عَنْها[٣].

ومما يلفتُ النَّظَر أنّ أهلَ المدن الأندلسية من النَّصارى كانوا يفرّون عن مدنهم عند اقتراب الفاتحين المسلمين، مع بقاء اليهود في تلك المدن، ولعل الأمْرَ يُوضِحُ لنا أنّ اليهود كانوا يعيشون في ظُلْمٍ لا يطيقونه بَيْنَ القوط، لذا فقد بَقُوا في تلك المدن دونَ مقاومةٍ لجيوش الفتح، لعلهم يجدونَ فيهم مَنْ يَنْصرُهم على الظلم الذي عاشوه[٤].

ويبدو أنّ حَيَاةَ اليهودِ بَعْدَ الفَتْحِ لم تَتَّخذْ طابعاً متميّزاً في الحياة الأندلسية، فقد عاشوا في ظلّ التسامح الديني دون إكراهٍ لهم على شيء، واقتصرَ دورهم في الأندلس على التجارة وبعض الصناعات، كصناعة الملابس والزينة والحُلِيّ التي كانت قاصرة على اليهود تقريباً[٥].

---

[١] عبدالله بن الحسن، المعروف بابن السنديّ، من أهل وشقة، يكنى: أبا محمد، ولي قضاء وشقة، وما والاها، وما والاها، توفي سنة ٣٣٥هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس جـ٣/٣٩٢)

[٢] ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس جـ٣/٣٩٢

[٣] لسان الدين الخطيب، الإحاطة جـ١/١٠١، مجهول، أخبار مجموعة ٢١/٢٢، شكيب أرسلان، الحلل السندسيّة/٤٥٣.

[٤] محمد الدغلي، الحياة الاجتماعية/١٩.

[٥] بروفنسال، سلسلة محاضرات عامّة/٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سُمِحَ لليهود في ظلّ هذا التسامح أن يعيشوا في أحياء تجمعُ بني جنسهم وتُسمّى بأسمائهم دون عصبيّة، لذلك ليس من الغريب أن نَسْمَعَ بنسبة بعض المدنِ إلى اليهود، مثل بيانة مدينة اليهود[١]، وباب اليهود[٢] ومقبرة اليهود[٣] في قرطبة، وروطة اليهود[٤].

ومع هذا كُلّه فقد بقي أمرهم مقتصراً على التجارة، والاشتغال بالغناءِ ومجالس اللهو. فَعُرِف منهم المغنّون والملحّنون، كإسحاق بن شمّعون اليهودي القرطبيّ[٥].

ولعل الشخصيّة اليهوديّة كانت عندَ عربِ الأندلس رمزاً للشؤم والخراب، ونَلْمَحُ ذلك في قِصّة أحد وزراء المنصور الذي كانَ يرى في منامهِ يهودياً يمشي في أزقةِ الزاهرة بخرجه على عنقِهِ وهو ينادي ((خَرُّوبش خَرُّوبش)) فسأل المعبّر عن ذلكَ فأخبره باقترابِ خرابها[٦].

ويتّضحُ لنا من هذه القصة أنّ اليهود كانوا يتميّزون عن غيرهم من الأجناس بزيٍّ خاصّ بهم الأمر الذي جعلَ الوزيرَ يميّز أنّ الذي رآه في منامه كان يهودياً.

ولا نَغْفُل عند حديثنا عن اليهود في الأندلس عَمّن عُرف منهم بنبوغهِ العلميّ، إذ يرجّح بَعْضُ الباحثين أنّ اليهودَ كانوا أكْثَر القائمين بترجمة الكتبِ العربيّة إلى اللاتينيّة والإسبانيّة فانتشرت بواسطتهم علوم العرب في أوربا[٧].

---

(١) ابن سعيد، المُغْرب جـ١/١٠٥.

(١) شكيب أرسلان، الحلل السندسيّة جـ١/٤٦٢.

(٣) ابن بشكوال، الصلة جـ٢/٤٦٢.

(٤) ابن الأبّار، الحلة جـ٢/٢٤٦.

(٥) ابن سعيد، المُغرب جـ١/١٢٧.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب جـ٣/٦٥.

(٧) شكيب ارسلان، الحلل السندسيّة: ٤٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بدأت الشخصيّة اليهوديّة تحتلُّ مكانة سياسيّة في عَصْرِ الطوائف وبخاصة في دولة بني زيري الذين عوّلوا عليهم وازداد نفوذهم وصار منهم الوزراء وجباة الأموال، ويبرز عند حديثنا عنهم بنو نغرالة.

فقد اتّخذ حَبّوس إسماعيل بن النغريلة[١] وزيراً له، وكذلك فعل ابنه باديس، إذ علَتْ منزلة اليهودي عنده، وسَيْطرَ على أمور الدولة بأنْ أخْضَعَ أميرَها للملذات والخمر، وأرْهَقَ أهل المدينة بالضرائب، ومكّنَ اليهودَ من المناصب البارزة.

وقد بَدَأت ملامحُ العصبيّة اليهوديّة عند ابن النغريلة بالظهور عندما سَعَى لتولية اليهود المناصبَ العليا في الدولة، واهتمامه بإدارة أمور الدولة ماديّاً وتدبير أكثر الأعمال، وتدبيره للتخلص من يُلّقين بن باديس لبغضهِ اليهوديّ فدبّر الحيلة عليه، فقضى عليه بالسمّ[٢].

وتجاوزَ ابنُ النغريلة هذا الأمر لتقوده عصبيته للاستهزاءِ بالإسلام، فأقسم أن ينظمَ القرآن في أشعار وموشّحات يُغَنّى بها، ومن شعره الذي نظم القرآن فيه[٣]:

نَقَشْتُ في الخدّ سَطْـــــــرًا ... من كتاب اللهِ مـــــــوزون
لَن تنالـــوا البِرَّ حتـــــى ... تنفقـــوا مما تحبـــــّون

مما دَفَع ابن حَزْمٍ إلى تأليف كتاب في الردّ على ابن النغريلة وعلى مَن جَاهَرَ في الطعن بملة الإسلام[٤].

---

(١) هو إسماعيل بن يوسف بن نغرالة الإسرائيلي، من بيتٍ مشهور في اليهود بغرناطة، آل أمرهُ إلى أن استوزره باديس بن حبوس، ملك غرناطة، وكانت له عيون على باديس في قصره، إلى أن قتل سنة ٤٥٩هـ في غرناطة وصُلِبَ على باب المدينة، (ابن عذاري، البيان المغرب جـ٢/٢٦٥، لسان الدين الخطيب، الإحاطة جـ١/٤٣٩، ابن سعيد، المغرب جـ٢/١١٤، لسان الدين الخطيب، أعمال الأعلام/٢٣٣).

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب جـ٢/٢٦٥.

(٣) ابن سعيد، المغرب جـ٢/١١٤.

(٤) ابن بسّام، الذخيرة م٢/ق١/٧٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد بدأت العصبيّة ضد اليهود تشتعل نارُها في الوقت الذي صار فيه اليهود هُم المسؤولون عن جَمْع أموال الجزية، التي كانوا يؤدونها للمسلمين.

بل إنّ ما فَجّر العصبيّة وزادها ضدهم سَعْيُ ابن النغريلة لإقامة دولة يهوديّة فدسّ إلى ابن صمادح صاحبَ المريّةِ في السرّ أن يُدْخِلَهُ غرناطة ويكون اليهودي في المريّة[١].

كُلّ هذه الأمور اجتمعت لتدفعَ جموع النّاس الغاضبة إلى الفتك بهذا الوزير وقُتل آلاف من اليهود وذلك في سنة ٤٥٩هـ، ونُهبتْ دورهم[٢]. لذا لم يكن من الغريب أنْ تظهر صورة اليهود عند عَرب الأندلس، بصورة الإنسان المخادع الطّماع، الذي يَسْعَى لتملك الأمور والسيطرة المالية والإداريّة في الدولة.

خامساً: الصقالبة:

وهم من العناصر التي أسهمتْ في تكوين المجتمع الأندلسي، والصقالبة من موالي المسلمين فئةٌ أسهمت في الحياة الثقافية والجهادية من ناحية، وفي إذكاء نار العصبية في بعض الفترات، وبخاصة بَعْد أنْ أصبحوا قوّة متماسكة، وصار لهم قادتهم الذين يحكمون مُدُناً ويقودونَ جيوشاً كبيرة.

ويبدو أنّ مَصْدَرَ هؤلاء الصقلب كان من أسرى الحروب بين المسلمين وجيرانهم من بلاد النصارى، فالمصادر الإسلاميّة تسمّي الألمان ((الصقالبة)) عند إشارتها إلى ورود سفارة الإمبراطور ((هُوتو)) على بلاط الناصر سنة ٣٤٢هـ[٣].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب جـ٢/٢٦٥.

[٢] ابن بسّام، الذخيرة: م٢/ق١/٧٦٦، ابن سعيد، المُغرب جـ٢/١١٤.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب جـ١/٢١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمسلمون العربُ كانوا يصفونَ هؤلاء الصقلب بأنهم متوحشون غيرُ مُستأنسين، يأكلُ بعضهم بعضاً، والسبب في ذلك لبعدهم عن الاعتدال حيث قَرُبَتْ أمزجتهم وأخلاقهم من الحيوانات العُجْم، وهم يبعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك[١].

وقد سَعَى بعضُ الحكام المسلمين إلى استقدام هؤلاءِ الصقلب، وتمكينهم في البلاد، لخلقِ نمطٍ منَ التوازن بَيْنَ العناصرِ البشرية المتناحرة في البلاد، وللدّفاع عن البلادِ في وجه الطامعين بها، فالحكم بن هشام الربضي[٢]، اشترى الكثيرَ منهم وضاعفَ عددهم مَرّات ومَرّات نتيجة لتلك الثورات التي اشتعلت بين البربر والعرب في عهد أبيه، ولهذا آثرَ الاعتماد عليهم لما لَمسَ فيهم من قوّة وشجاعة وإخلاص، وبخاصة في تلك الحروبَ والفتن التي نشبت مع الثوّار المخالفين له من أهلِ طليطلة وعبث الفرنج في الثغور[٣].

وقد بلغ عدد المماليك الصقالبة في عهده نحو خمسةِ آلاف، وكان يسمّيهم "الخرس" لعجمتهم[٤]، وكان الصقالبة خاصّةُ الناصرِ والحكم المستنصر بعده، حتّى ظهرت منهم في زمن الحكم أمورٌ قبيحة أغْضى عنها مع إيثاره العَدل، وإطراح الجورِ بالجملةِ، وكان يقول: ((هم أمناؤنا وثقاتنا على الحُرَم، فينبغي للرّعيّة أنْ تلين لهم وترفق في معاملتهم، إذ ليس في كُلّ وقتٍ الإنكار عليهم))[٥] .

---

(١) تاريخ ابن خلدون م١/١٤٣.

(٢) الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالحكم الرّبضي، ولد سنة ١٥٤، وبويع بعد موت أبيه بليلة سنة ١٧٠هـ وهو ابن ست وعشرين سنة، دامت خلافته ستاً وعشرين سنة، وأحد عشر شهراً توفى سنة ٢٠٦، (ابن عذاري، البيان المُغرب جـ٢/٦٨).

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب جـ٢/٧٠.

(٤) المقري، نفح الطيب جـ١/٣٤٢.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب جـ٢/٢٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو أنّ مهمة هؤلاء الصقلب لم تقتصر على الخدمة فقط كما يصوّر البعض، بل أنشأ النّاصر جيشاً من المماليك الصقالبة،وكانّ حظُّ الأندلس منهم أحسنّ من حظّ العباسيين من المماليك والأتراك، وصار منهم القوّاد وخاصّة الخليفة وجلساؤه، وكان من دليل الاهتمام بالصقلب أنّ عددهم قد بلغ في مدينة الزاهرة لحين وفاة الناصر (٣٥٠هـ) ثلاثة آلاف وسبع مائة وخمسين[١].

وكذا كانّ حالهم عند الحكم المستنصر بعد وفاة أبيه، إذ قرّبهم وأحسنّ شأنهم، حيث استحجب جعفر الصقلبي الفتى الكبير الناصري سنة ٣٥١هـ، وكان ميسور الفتى الكبير الكاتب الصقلبي من المقربين له[٢].

وارتقى شأنهم حتّى وَصلّ بهم الأمر إلى التدخل في شؤون البلاد، بل ومحاولة تنصيب خليفة للأندلس هم يريدونه، عندما حاولوا تنصيب المغيرة[٣] خليفة على المسلمين بَعْدَ وفاة الحكم بدلاً من ابنه هشام، وكان زعيمُ ذلك جؤذر وصاحبه فائق، وهما من كبار الفتيان الصقالبة أيّام المستنصر، لولا أنّ جعفر المصحفي[٤]، ومحمد بن أبي عامر قطعا عليهما الطريق بقتلِ المغيرة، ومبايعة هشام بن الحكم رغم صغر سنّه[٥].

وما تَدَخُّلهم في أمرِ الخلافة، إلاّ لأنّهم كانوا عند موت الحكم أكثر جمعاً، وأشدّ شوكةً يظنّون أن لا غالب لَهم، وأنّ الملك بأيديهم[٦]، مما جعل ابن أبي عامر يَتَنَبّه للأمر، فما إن تولّى

---

[١] لسان الدين الخطيب، أعمال الأعلام/٤٠.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب جـ٢/٢٣٥.

[٣] ابن حيّان، المقتبس "تحـ د. مكي"/١١٧.

[٤] جعفر بن عثمان بن نصر الحاجب المعروف بالمصحفي، وزير أندلسي، من كبار الكتّاب، أصله من بربر بلنسية، تقلّد حجابة هشام المؤيد بن الحكم، قتله المنصور بن أبي عامر سنة ٣٧٢هـ. (المقري، نفح الطيب جـ١/٣٩٧، ابن الأبّار، الحلة جـ١/٢٥٧).

[٥] ابن عذاري، البيان المغرب جـ٢/٢٦١-٢٦٢.

[٦] المصدر السابق جـ٢/٢٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحجابة، حتّى فَضَّ عُرَى ملك جماعة الصقلب، وتقسّمتْهم أيدي القدر نفياً وقتلاً، صبراً وغلبةً، سرّاً وعلانية، حتّى هلكوا عن آخرهم في أسْرَعِ مُدّة، فكانتْ تلك الطائفة أوّل مَنْ ظَهَرَ انتقام الله تعالى بابن أبي عامر منها، فكانوا جبّارين قاسطين في بلادِه، متمردين على عبادِه، فأرسلهُ الله بقدرته على هذا النمط من خَلْقِه فأبادهم[١].

إلاّ أنّ الأمر لم يَدُم على هذه الصورة فَعَلى الرَّغمِ من محاولةِ المنصور القضاء عليهم بعد تَسَنُّمِهِ ذروة الحكم،إلاّ أنّه عادَ يعتمد عليهم، ((واستكثرَ من العبيد والعلوج للاستيلاء على تلكَ الرتبة، وقهرِ مَنْ تطاولَ إليه من العليّة))[٢].

فَشاركَ هؤلاء الصقالبة في دولة المنصور في أمور الجيش، والدولة معاً، وأصبحوا بذلك عنصراً هامّاً لا يُستغنى عنه، وبخاصةٍ لما تمتّع به بعضهم بدراية عالية بشؤون الحرب والحكم[٣]. لذا لم يكن غريباً أن يُنسبوا إليه، إذ أصبحَ يُطلق عليهم اسم الصقالبة العامريين[٤].

ومع بروز الصقلب على الساحة السياسية برزعددٌ من الصقالبة في الساحة الأدبية، فَوُجدَ منهم العلماء والمؤلفون، وطلعت شمس عدد من الأدباء الصقلب في عهد ابن أبي عامر، إذ كان له فتىً يُسمّى فاتناً لا نظيرَ له في علمِ كلام العرب، والذي ناظر صاعداً فقطّعه وظهرَ عليه، وبكتّه، فأعجبَ المنصور منه، ولمّا توفي بيعَتْ في تركته كتبٌ مضبوطةجليلة مصححة[٥]. ووجد منهم من ألّف كتاباً يباهي فيه الصقلب سمّاه ((كتاب الاستظهار والمغالبة، على مَنْ أنكرَ

---

[١] ابن بسّام، الذخيرة م١/ق٤/٥٦.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب جـ٢/٢٧١.

[٣] عبدالرزاق حسين، الأدب العربي في جزر البليار/١٩.

[٤] المرجع نفسه/١٩.

[٥] المقري، نفح الطيب جـ٣/٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فضل الصقالبة))، واسم مؤلفه رجلٌ يُعرف بحبيب، وذكر فيه جملة من أشعارهم ونوادرهم وأخبارهم[١].

ولَعَلّ اسم الكتاب ووصف ابن بسّام لبعض ما حَواه، يعكسان لنا نموذجاً من العصبيّة التي تمسّك بها هؤلاء الفتيان لجنسهم وعرقهم مما دفعهم للردّ على مَنْ أنْكَرَ شأنهم وفَضْلَهم في الدّولة الأندلسيّة، إذ كانَ منهم الأدباء والقادة والخدم والحجاب في دولة المنصور، وربّما كان هذا الكتابُ من قبيل الدّفاع لا الهجوم، نظراً إلى قوة العرب ودولتهم في الأندلس في تلك الحقبة[٢].

لقد سما أمْرُ هؤلاء الصقالبة في الدولة العامريّة، وتبوّؤوا فيها مناصب عظيمة، مما جعلهم يستقلون ببعض المدن الأندلسيّة ويحكمونها، ويضمّون فيها أبناء جلدتهم من الصّقلب.

فخيران كانَ في مُرسية ودَخَلَ مدينة المَريّة، وأخذها من أفْلَحَ الصقلبيّ بعد قتله له سنة ٤٠٥هـ، واتخذ المريّة موطناً نزله برجاله وماله[٣]، وانضوى إليه جميع فتيان محمد بن أبي عامر فحولهم وخصيانهم[٤].

وتولّى أمرَ المرية من بعده صاحبه زهيرٌ الفتى العامريّ، فوليها عشرة أعوام، أمّا مظفر ومبارك فكانا في بلنسية يضمّان فيها موالي المسلمين من الصقلب والإفرنج، ودربوا على الركوب، حتّى تلاحق ببلنسية ونواحيها من هؤلاء الأصناف من فوارس برزوا في البسالة والثقاف[٥].

---

(١) ابن بسّام، الذخيرة م١/ق٤/٣٤، المقري، نفح الطيب جـ٣/٨٢.

(٢) إحسان عبّاس، تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف/١٧١.

(٣) لسان الدين الخطيب، أعمال الأعلام/٢١١.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب جـ٣/١٦٦.

(٥) المصدر نفسه جـ٣/١٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سادساً: المستعربون:

يُطلقُ هذا الاسم على تلك الطائفة التي عايَشَت المسلمين في الأندلس مع الاحتفاظ بدينها، واتّخاذ العربيّة لغة إلى جانب اللغة الأصيلة، مع بعض التأثّر بتقاليد المسلمين[١].

ويبدو أن لفظ مستعرب لن يُستعمَل عند عرب الأندلس بصورة رسميّة، وإنّما كان الجاري قولهم: ((العجم)) أو((النصارى))، أو((نصارى-الذمّة))، تفريقاً لهم عمّن أسلم منهم حديثاً "الأسالمة والمسالمة" أو أبناء هؤلاء "المولّدين"، فابن جيّان يقول: ((حصون المسالمة والنّصارى))، و((تحزّبتْ المسالمةُ مع المولّدين))، وابن الأبّار يقول: ((فَصَبَّ على المولّدين والعجم منه))[٢].

ويبدو أنّ الاستعرابَ كانَ يسبقُ الإسلام في معظم الحالات، فقد اختلط ((العجم)) بالمسلمين وأخذوا لغتهم وأسلوبهم في الحياة، ثمّ كانَ يُسْلِم منهم من يسلم شيئاً فشيئاً، بل كانَ بعض أولئك العجم ما يكادون يسلمون حتى يظهروا تفوّقاً في العربيّة، بل منهم مَنْ تفوّق بالفقه[٣].

إذن فَلَقَبُ المستعربين ظهرَ متأخراً حوالي القرن الحادي عشر للميلاد، فإنّه قد أُتّخِذَ نميزاً لنصارى الأندلس عن غيرهم من نصارى قشتالة والفرنجة[٤].

استطاع بما نالوه من حظٍّ بالعربيّة أن يترجموا بعض الكتب ومنها الكتب الدينيّة إلى العربيّة، ويمكن اعتبارهم صلة وَصْلٍ بين المسلمين ونصارى الشمال، إذ عن طريقهم انتقلتْ التأثيرات العربيّة إلى هؤلاء[٥].

---

[١] علي لغزيوي، شعر الحرب في الأندلس/٢٧٥.

[٢] حسين مؤنس، فجر الأندلس/٤٢٨.

[٣] المرجع نفسه/٤٢٨.

[٤] علي لغزيوي، شعر الحرب في الأندلس/٧٥.

[٥] المرجع نفسه/٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبلغ من ذيوع اللغة العربيّة أنّها استخدمتْ داخل الكنيسة، فنجدُ في الكتب الدينيّة المكتوبة باللاتينيّة شروحاً بين السطور بالعربيّة[١]، ويستدلُّ من ذلك على إلمام النّصارى بالعربيّة والاستدلال بها، وقد عُثِرَ على شواهد قبور النّصارى مكتوب عليها بالعربيّة واللاتينيّة معاً وتبدأ بالبسملة[٢].

إنّ ما وصل إلينا من الإنتاج العقلي للنّصارى يُعدُّ قليلاً بالنسبة لكثرتهم، وهو الأمر الذي يستغربُه جونثالث بالنثيا، ويبدو أنّ من أسباب فقدانِ هذا الانتاج المستعربي أو معظمُه ما جَرَى في أخريات القرن الرابع الهجري عندما عمد المنصور بن أبي عامر -في سعيه لإرضاء الفقهاء أو للإساءة إلى المروانيّة- إلى خزائن المستنصر وأمر بطرح ما بها من الكتب القديمة عدا كتب الطبِّ والحساب، وأحرق بعضها وألقى بعضها الآخر في آبار القصر، ويقصد بالعلوم القديمة اليونانيّة واللاتينيّة[٣].

أما التراث اللاتيني، فأغلبه يدور في موضوعات دينيّة، وبطبيعة الحال كانت الأديرة هي المكان الذي تخرّج فيه غالب المشتركين في هذا التراث[٤].

أعطى المسلمون للنصارى حريتهم في شعائرهم الدينيّة، كذلك أباح المسلمون للنصارى أن يبنوا كنائس جديدة خارج أسوار المدن، وفي بعض الأحيان كانوا يبيحون لهم بناء الكنائس داخل المدن نفسها[٥].

---

[١] عبادة كحيلة، تاريخ النصارى في الأندلس/١١٦.

[٢] المرجع نفسه/١١٧.

[٣] المرجع نفسه/١٢١.

[٤] المرجع نفسه/١٢٢.

[٥] المرجع نفسه/١٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم تتدخل الدولة في عقائدهم ولا شعائرهم، وكان تعيين رجال دينهم من شأنهم وحدهم، كذلك عقدُ المجامع الدينيّة، ولم تعمل الدولة على إرغامهم للدخول في الإسلام[١].

أمّا حركة "الشهداء" فإن المسلمين لم ينتقموا من بعض النصارى إلاّ بعدما تكرر التهجّم على النبي ﷺ من النصارى الحاقدين[٢]. ويخرج الأستاذ كحيلة بنتائج عن حركة الاستشهاد منها: إنّ النصارى المعاهدين كانوا يعيشون حياة طيبة في إطار الجماعة الإسلاميّة بالأندلس، وكانت أحوالهم العامّة لا تختلف عن أحوال إخوانهم المسلمين، كما أنّ الدولة بذلت جهدها لحسم الفتنة، فعقدت لذلك مجمعاً اتخذ قراره دون تدخل الدولة بقراره.

كما يعدّ النصارى ورجال دينهم بوجه خاص مسؤولين عن إثارة هذه الفتنة، فقد تهجّم فريق منهم على الإسلام ونبيه الكريم[٣].

مما يعني أنّ الإسلام أعطى النصارى حريتهم في مجتمعه، أمّا من لم يراع حرمة الإسلام، فكان جزاؤه القتل أو النفي.

---

[١] عبادة كحيلة، تاريخ النصارى في الأندلس/١٤٤.

[٢] المرجع نفسه/٢٠٤.

[٣] المرجع نفسه/٢٠٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

أثر العصبيّة في الشّعر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أثر العصبيّة في الشّعر

كانَ الشعر أسبقَ أنواع الأدب ظهوراً في البيئة الأندلسيّة، وذلك لأنّ الشعر مظهرٌ من مظاهر الثقافة العربيّة، ولأنّه مرآة لحياة العربيّ العقليّة والاجتماعيّة[١]. وحقيقة الأمر أنّ المهاجرين من المشرق قد حَملوا معهم حبّهم للشعر، وقناعتهم بأنّ الشعر منبرهم ويعبّر عن حالهم، لذا كان من أسبق النماذج الأدبيّة ظهوراً. يقول المقري: ((والشعر عندهم له حَظٌّ عظيم وللشعراء من ملوكهم وجاهة، ولهم عليهم حظٌّ وافر[٢])).

لقد واكب الشعر الأندلسي الأحداث والمناسبات والوقائع التي جرت هناك، فكان لسانهم المعبّر عن أدقّ تفاصيل حياتهم يتعايش معهم، ويتطور بتطور هذه الحياة. ويمكن الاستدلال على معايشة الشعر للبيئة الأندلسية باستنطاق العديد من النماذج الأندلسية ومراحل تطورها.

فأشعار المدح والهجاء والفخر والحماسة، كانَت الغالبة على الشعر الأندلسي في عصر الولاة لأنّ معظم الشعراء من العرب الطارئين على الأندلس، الذين لم يكونوا بَعْدُ تشربوا مناخ الأندلس[٣]، أضف إلى ذلك أنّ الأندلس في تلك الفترة عاشت كثيراً من الفتن والحروب والعصبيات. لذا كان من الضروري أن يعبّر الأدب عن هذه الفتن بشعر الحماسة والفخر، بسبب تشجيع الحكام والولاة عليه عند اشتراكهم في الحروب بأنفسهم[٤].

---

[١] محمد خفاجي، الحياة الأدبية في الأندلس ص/٤٣.

[٢] المقري، نفح الطيب جـ١/١٠٢.

[٣] يوسف طويل، مدخل إلى الأدب الأندلسي ص/١٠.

[٤] المرجع نفسه، ص/٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومع تطور الحياة الأندلسية تطوّر الشعر، فظهر شعر الزهد والمجونيات والعزل بالمذكر في الوقت الذي زخرتْ فيه الحياة بأنواع المتع، كما عبّر عن حياة الترف بما سادَ البلاد من رخاء ورقي ولا سيّما في عصر الخلافة زمن الناصر[١].

وتأثر الشعر بموجة الغناء التي سادت الأندلس وبخاصة بعد دخول زرياب، حيث كانت معظم مجالس الشراب تدار على ترنم أصوات المغنّين[٢].

كما أثّرت حريّة المرأة في ظهور شعر بعضهن ، وبروز عدد من الشاعرات مَدَحْنَ، وتَغَزَّلْنَ، بحيث شَكَّلْنَ ملمحاً بارزاً من ملامح الشعر الأندلسي، وشَحَذت الطبيعة الأندلسيّة قرائحهم، وأسرتْ قلوبهم فتغنوا بمناظرها الخلاّبة وتعلقوا بأجوائها.

لذا نستطيع القول بأنّ الظاهرة وليدةُ بيئتها[٣]، عبّرت عن حالات الفخر والمعاناة والتغريب التي عاشها الأندلسيون، بل لقد كان باستطاعه هؤلاء الأدباء هضم كل جديد وتمثيله وإشاعة الصفاء فيه[٤]، أو بعبارة ثانية جعله أندلسياً صادقاً معبراً عن أحاسيسهم ومشاعرهم.

لقد كانت العصبيّات بكافّة أنواعها، وليدة المجتمع الأندلسي، نتيجة لتلك الصراعات القبلية أو الإقليميّة أو المذهبية ....، ومن هذا الباب كان من الضروري أنّ تظهر صور هذه العصبيات في الشّعر الأندلسيّ، باعتباره المعبّر الصادق عن بيئته وكلّ ما يصدر عنها.

---

[١] يوسف طويل، مدخل إلى الأدب الأندلسي ص/١٠.

[٢] المرجع نفسه ص/٦٤.

[٣] يسري سلامة، الأدب الأندلسي، صور فنية واجتماعية ص/١٩.

[٤] بروفنسال، سلسلة محاضرات عامّة، ص/٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العصبيّة العرقيّة:

أولاً: بين العرب والمولدين:

كانَ من أوضح صور العصبيّة العرقيّة في الأندلس تلك الحرب التي دارت رحاها فترة من الزمن بين العرب والمولدين في القرون الأولى من الدولة، إذ سَعَى كلا الطرفين في تلك الحرب للتغلب على الآخرِ، وفي ذلك يقول لسان الدين بن الخطيب: ((ولولا أنّ اللهَ مَنّ على العرب بسوّار ونَصَرَه، لما أبقى العجمُ المولدون منهم أحداً))[1].

ويبدو أنّ انتقام العربِ مع سَوّار من المولدين كان انتقاماً شديداً، إذ قَتَلَ منهم ما قَتَل، وافتَتَح حصونهم، وغنم أموالهم، واتّسع أمره عندما سَعَتْ إليه عَرَبُ النواحي، وعلا ذكرُه في النّاس[2].

ومهما يكن من أمرٍ، فإنّ هذه العصبيّة قد تعدّتْ ساحات القتال، وشملت الأدب، فأفرزت لنا نماذج أدبيّة وشعريّة، أجلّتِ الغموض عن مفهوم العصبيّة العرقيّة في الأندلس، بل إنّ اعتمادَ هذه الحرب العرقيّة على الشعر في الردّ على الخصوم وإلهاب مشاعر النّاس كان اعتماداً كبيراً، وبخاصّة أنّ قوّاد العربِ في الحربِ كانوا من الشعراء كسوّار بن حمدون، وسعيد بن جُودي[3].

لقد صوّر ابن جودي المولدين بعد هزيمتهم على يد سوّار وكأنهم فريسة نالتها رماح العرب، وأذلّتها بما نالها من الأسر والمهانة فيقول[4]:

ولمّا رأونا راجعينَ إليهمُ ... تَولّوا سراعاً خَوْفَ وَقْعِ المناصلِ

---

[1] لسان الدين الخطيب، الإحاطة جـ٤/٢٧٠.

[2] ابن الأبّار، الحلة جـ١/١٤٩-١٥٠.

[3] هو سعيد بن جوديّ بن اسباط بن إدريس السعدي من هوازن، نصبته العرب بعد سوّار، كان شاعراً وفارساً، هابه ابن حفصون، قتل سنة ٢٨٤هـ. (ابن الأبّار، الحلة جـ١/١٥٥-١٥٨، ابن عذاري، البيان المغرب جـ٢/١٣٦).

[4] ابن الأبّار، الحلة جـ١/١٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَسِرنا إليهم والرّماحُ تنوشُهـــــم ... كوقعِ الصياصي تحتَ رَهْجِ القساطلِ
فلَم يَبْقَ منهمْ غيرُ عـانٍ مُصفّـدٍ ... يُقَادُ أسيراً مُوثَقـاً فـــي السلاسـلِ
وآخر منهُمْ هاربٌ قَد تَضايَقَـــتْ ... بـهِ الأرضُ يهفو من جَوَىً وبلابِـلِ

وفيها يمدحُ ابنُ جوديّ سوّاراً بشجاعته التي فَرّقَت شَـمْلَ العدى من المولدين، وهو يُكنّي عنهم بـ ((بني الحمراء)) إشارة منه إلـى عُجمتهم، ولا شك أنّ العاطفة الدينيّة تمتزج في هذه الأبيات بالعصبيّة العرقيّة عندما يجعل الشاعرُ سواراً مؤيداً من الله، فيقول[1]:

٤٩٤٩١٤

به قَتَلَ اللـهُ الذينَ تَحزّبـــــوا ... علينا وكانوا أهْـلَ إفْكٍ وباطِـــلِ
سَما لبني الحمراءِ إذ حانَ حينُهـمْ ... بجمْعٍ كمثْلِ الطّودِ أرْعَنَ رَافِـــلِ
أدَرْتُم رَحى حَرْبٍ فَدارَتْ عليكم ... لحتفٍ فأفناكُم بـه اللـهُ عاجِـــلِ
لَقِيتُم لنا ملمومةً مُستَجيـــــرةً ... تُجيدُ ضِرابَ الهامِ تحتَ العوامِـــلِ

ويخلُص الشاعر إلى مَدْح نسب سوّار القيسيّ، إذ يربط بَيْنَ هذا النسب العربيّ والمجدِ، ونلمس في هذه الأبيات شعوراً بالزهو والفخر يملأ نفس الشاعر بهذا النسب، ودعوةً للوحدةِ بين القبائل العربيّة في وجه هؤلاء المولدين فيقول[2]:

بها مِن بنـي عَدْنانَ فتيانُ غَـــارَةٍ ... ومِن آلِ قَحطانٍ كمثلِ الأجَـــادِلِ
يقودُهم لَيْثٌ هِزَبْرٌ ضَبَـــــارِمٌ ... مِحَشٌّ حُروبٍ ماجِدٌ غيرُ خَامِـــلِ
أرومتُهُ من خيرِ قيسٍ سَمَا بـــــه ... إلى المجدِ قِدْماً والعُلا كُلُّ فاضِـــلِ
لَهُ سَوْرَةٌ قيسيّةٌ عَرَبيّـــــــةٌ ... بها ذادَ عَن دينِ الهُدَى كُلَّ جاهِـــلِ

يعود ابنُ جوديّ في قصيدة أخرى، يذكرُ فيها مقتل الزعيم العربي يحيى بن صُقالة، ويدعـو للأخذ بثأره، ويبرز فيها نقائض أعدائه، ويسمّيهم في أبياتـه بـ ((العبيد)) إشارة منه إلى ذلّ المولدين وهَوَانهم فيقول[3]:

---

(١) ابن الأبّار، الحلة جـ١/١٤٩.

(٢) المصدر نفسه جـ١/١٥٠.

(٣) ابن الأبّار، الحلة جـ١/١٥١-١٥٢. لسان الدين الخطيب، الإحاطة جـ٤/٢٧٥-٢٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قَد طلبنَا بثأرِنـا فقتلتمـــــــا ... منكُمْ كُـلُّ مـارقٍ وعنيـــــدِ
قد قتلناكُمُ بيحيى ومـــــــا ... أنْ كانَ حُكمُ اللهِ بالمـــــردودِ
هجتُم يـا بنـي العبيدِ ليوثـــاً ... لم يكونوا لجارهم بقعـــــودِ
فاصطلوا حَرّها وحَدّ سيـوفٍ ... تتلظّى عليكمُ بالوقـــــــودِ

ينتقل ابـن جـوديّ بعد ذلك لمدح النسب العربـيّ لسوّار، السـاعي للأخذِ بثأر يحيـى مـن المولدين. ويعقد الشاعر صورتين الأولى تبرز عزة أصحاب النسب العربـيّ وكرامتهم والثانيـة ذُلّ العبيد وما جلبوه على أنفسهم من سوءٍ بقتل هذا القائد العربي، فيقول[١]:

حـاكمٌ مـاجدٌ يقـودُ إليكُـــــمْ ... فئـةً سـادةً كمثـلِ الأســـــودِ
يطلبُ الثـأرَ بـابنِ قَـوْمٍ كِـــرامٍ ... أُخذوا بالعهودِ قَبْلَ المهـــودِ
فاستَباحَ الحمراءَ لَمْ يُبْقِ منهُمْ ... غيرَ عانٍ في قُدّهِ مصفـــودِ
قَد قَتَلنـا منكُم ألوفـــاً فَمَـــا ... يَعْدِلُ قَتْلَ الكريمِ قتـلُ العبيـــدِ
مَثّلوه لمّـا أضَـافَ إليهـــــمْ ... لم يكن قتْلُهُ برأي سديـــــدِ
قَتَلَتْهُ عَبيـدُ سُوءٍ لئـــــــامٌ ... وفِعَالُ العبيدِ غيرُ حميـــدِ
لم يُصيبوا الرَّشادَ فيما أتَـــوهُ ... لا ولا كان جَدّهم بِسَعْـــــودِ

ويخلُص الشاعر في قصيدته إلى مدح القائد العربي كما فـي القصيـدة السـابقة، مؤكـداً علـى شجاعته وفروسيته فيقول[٢]:

كانَ ليثاً يحمي الحروبَ وحصنـاً ... ومَـلاذاً وعِصْمَـةَ المقصـــــودِ
كان فيه التّقى مع الحلمِ والبَـــاً ... سِ وجُودٌ ما مثلَهُ من جـــــودِ
فجَزاكَ الإلهُ جَنّةَ عَـــــــدْنٍ ... حَيْثُ يُجْزَى الثوابَ كُلُّ شَهيـــدِ

إن الإحساس بالعصبيّة العربيّة، والخوفَ على العربِ من الهلاك على يد المولدين، هما اللذان جعلا الشاعر محمداً الأسديّ[٣]، يدعو العرب إلى الوحدة والتجمّع ضدّ أعدائهم، ونبذ

---

[١] ابن الأبّار، الحلة، جـ١/١٥٢. لسان الدين الخطيب، الإحاطة جـ٤/٢٧٦.

[٢] ابن الأبّار، الحلة جـ١/١٥٢. لسان الدين الخطيب، الإحاطة جـ٤/٢٧٦.

[٣] محمد بن سعيد بن مخارق الأسدي، شاعر العرب، قال قصائد يمدح جودي وقومه ومن قوله يرثي ابن جودي:
مَنْ ذا الذي يُطعِم أو يكسو ... وقد حَوَى حِلفَ النّدى رمْسُ (ابن الأبّار، الحلة جـ١/١٥٦)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العصبيات القبليّة من بينهم، إذ يصوّر أحياء العرب كتلة واحدة لا تستطيع العيش من دون الأخرى فيقول[١]:

يا أيُّها العربُ النّائي مَحَلُّهـــــمُ ... أنتم نِيَامٌ ومَـنْ يَشْنَأكُمْ سَهَـــــرُ
ما عَيْشُ عَدْنَانَ دونَ الحيِّ من يَمنٍ ... أو عيشُ ذي يمنٍ قد خَانَها مُضَـرْ
إنّ السّهامَ إذا ما فُرِّقَتْ كُسِـــرَتْ ... وإنْ تَجَمَّعَتْ تَبْقَى لَيْسَ تَنْكَسِـــرْ

ومما لا شك فيه أنّ من أهم مميزات الصراع بين العرب والمولدين شعرياً، هو ظهور شعر النقائض بين الطرفين.

فكما كانَ للعرب شاعرهم المفّاخرْ بنسبهم والمدافع عن أعراضهم، فقد كانَ للمولدين شاعرُهم ألا وهو العبلي[٢]، الذي دافع عن قومه أمام الشعراء العرب.

وكان كُلّ طرف منهم يتفاخر بنسبه ويردُّ عليه شاعر الطرف الآخر بقصيدة قد تكون من نفس البحر والقافية نفسها.

فليحيى ابن أخي يحيى بن صُقالة قصيدة طويلة، يمدحُ فيها سوّاراً، ويذكر له وقعة عند إلبيرة، ويبدو أنّ هذه القصيدة قد ناقض فيها يحيى شاعرَ المولدين العبلي، وأوّل شعر العبلي قوله[٣]:

قد انقصفَت قناتهُم وذَلّـــــوا ... وضُعْضِعَ ركـنُ عزّهُمْ الأذَلُّ
فما طُلَّتْ دِماؤهُمْ لديهـــــم ... وها هُم عندَنا "إلبير" طـــلُّ

---

[١] عبداللطيف محمود، شعوب الحرب في الأندلس، ص/٣٤، عن المقتبس في أخبار بلد الأندلس لابن حيان، تحقيق ملشر أنطونيا ص/٦٤.

[٢] عبدالرحمن بن أحمد العبلي، شاعر اختص بمدح المولدين، وذكر عيوب العرب وهجوهم. (ابن الأبّار، الحلة جـ١/١٥٤).

[٣] ابن الأبّار، الحلة جـ١/١٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمّا يحيى فيبدأ ردّه على العبلي برسم طريق النصر العربي، وذلك بالوحدة بين القبائل العربيّة، وتبرز العاطفة الدينيّة في أبيات يحيى عندما جعل أبناء العرب ((مودين من الله)) أمّا المولدون فهم أهل الشرك، حيث يقول[١]:

لِواءُ النَّصرِ مَعْقودٌ علينا ... بتأييدِ الإلهِ فما يَحِلُّ
إذا ما استَلأمَتْ أسَدٌ وقَيْسٌ ... رأيتُ الشِّرْكَ قد خَضَعوا وذَلّوا
ومِن قحطانَ والحَيّينِ بَكْرٌ ... وتَغلِبَ أُسْدُ غابٍ ما نَفِلُّ

ويستطرد يحيى في رسم صورتين متناقضتين في ردّه على العبليّ، الأولى توضحُ لنا العربيّ صاحب العزّ والشجاعة والفروسيّة، والثانية تَصِفُ المولّدَ أو الأعجمي الذي قِيْدَ أسيراً إلى مورد الموت بصورة الذليل المهان، فيقول[٢]:

لِسَوّارِ على الأعْداءِ سَيْفٌ ... أبادَ ذَوي الغوايةِ فاضْمَحَلّوا
لَقَد ذَلّتْ رِقابهُمُ بِصُغْرٍ ... فَصادَفَهُم شديدُ البأسِ صَلُّ
سَقاهم كأسَ حَتْفٍ بَعْدَ حَتْفٍ ... بها نَهَلَ العبيدُ معاً وعَلّوا
قناةُ المجدِ مركزُها عَزيزٌ ... حماها مانِعٌ لا يُسْتَذَل
قتلتَ بواحدٍ سَوّارُ ألْفاً ... وألْفُهُم بواحِدِنا يَقِلُّ
وأكْثَرُ قَتْلِنا لَهُمُ حَلالٌ ... بما ارتَكَبوهُ ظُلْماً واستَحَلّوا
فأوردنا رِقابَهُم سيوفاً ... تَشُبُّ النارُ منها إذ تَسَلُّ
وَرِثْنا العزَّ عَن آباءِ صِدْقٍ ... وإرثُكُمُ بَني العُبْدانِ ذُلُّ

وصوّر العبليّ في قصيدة أخرى ديارَ العرب وقد عمّها الخَرابُ والدّمار، فيقول[٣]:

مَنازِلهم مِنْهُم قَفارٌ بلاقِعُ ... تجاري السَّفا فيها الرياحُ الزعازِعُ
وفي القلعةِ الحمراءِ تدبيرُ زيغِهم ... ومنها عليهم تستَديرُ الوقائعُ
كما جَدَلَتْ آباءَهُم في خلائها ... أسِنَّتُنا والمرهفاتُ القواطِعُ

---

[١] عبداللطيف محمود، شعر الحرب في لأندلس، ص/٣٣، عن المقتبس (أنطونيا) ص/٦٤.
[٢] ابن الأبّار، الحلة جـ١/١٥٣.
[٣] عبداللطيف محمود، شعر الحرب في لأندلس، ص/٣٣-٣٤، عن المقتبس (أنطونيا) ص/٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيردّ عليه الأسدي قوله بأبياتٍ تشير إلى عزّ البيوت العربيّة، مع ربط المولدين بالذلّ، إذ يعود الشاعر مرّة أخرى ويسميهم عبيداً في قوله[١]:

مَنَازِلنا معمورةٌ لا بلاقِـــــعُ ... وقَلْعَتُنَا حِصْنٌ من الضَّيمِ مَانِعُ
وفيها لَنَا عِزٌّ وتدبيرُ نُصْـــرَةٍ ... ومنها عليكم تَسْتَتِبُّ الوَقَائِـــعُ
ألا فأذنوا منها قريباً لِوَقْعَـــةٍ ... تشيبُ لَها ولْدَانكم والمَرَاضِـــعُ

ومما لا شكّ فيه أنّ دور الشعراء كان كبيراً في رسم ملامح الصراع بيْن العربِ والمولدين، القائم في أساسِهِ على العصبيّة العرقيّة، لذلك لا نستغربُ أن يَجْعَلَ النّاس سعيد بن جودي رئيساً عليهم بعد مقتل سوّار.

وبالإضافة إلى ما تميّز به ابن جودي من شاعرية، فهو صاحب عزة وأنفة، جعلته يعتز بفروسيته حتى عندما أسرَه المولدون، فيقول[٢]:

لئن كُنْتُ مأخوذاً أسيراً وكُنْتُمـــا ... فَلَيْسَ عل حَرْبٍ ولكنْ على غَـــدرِ
ولو كُنْتُ أخْشَى بَعْضَ ما قَدْ أصابني ... حَمَتْنِيَ أطرافُ الردينيّة السُّمْـــرِ
فَقَد عَلِمَ الفتيانُ أنّي كَمِيُّهـــا ... وفَارِسُها المقْدَامُ في ساعةِ الذّعـــرِ
وإنْ لم يكنْ قَبْرٌ فأحسنُ موطِئـــاً ... من القَبْرِ للفتيانِ حَوْصَلَةُ النَّســـرِ

ثانياً: هجاء الصقالبة وذمُّهُم:

كانَ الصقالبة من العناصر التي استعان بها الأمراء والخلفاء في خدمة الدولة -كما أشرنا في التمهيد للبحث- لحفظ الأمن وإخماد الثورات والفتن التى كانت تشبّ بين الحين والآخر، كما فعل الحكم بن هشام المعروف بالحكم الربضي، حيث استجلب هؤلاء الصقلب لإخماد الفتن التي نشبت مع الثوّار المخالفين له من أهل طليطلة[٣]، وهم من قال فيهم الحكم المستنصر: ((هم

---

(١) عبداللطيف محمود، شعر الحرب في لأندلس، ص/٣٣-٣٤، عن المقتبس (أنطونيا) ص/٦٣.
(٢) ابن لأبّار، الحلة جـ١/٥٩أ.
(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، جـ٢/٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمناؤنا وثقاتنا على الحُرم فينبغي للرعيّة أن تلين لهم وترفق في معاملتهم))[١]. حتى صار منهم القوّاد وخاصّة الخلفاء وجلساؤهم، كنصر الخصي[٢] الذي ترقى في كُلّ المناصب في زمن عبدالرحمن بن الحكم المعروف بعبدالرحمن الأوسط، حتى وصل به الأمر إلى التدخل في شؤون الدولة وأمور الخلافة، قال عنه ابن حيّان: ((خليفة الأمير عبدالرحمن الحكم، المقدّم على جميع خاصته، المدبّر لأمرِ داره، المشارك لأكابر وزرائه في تصريف ملكه))[٣].

ويبدو أنّ أهل البِلاد كرهوا وصول الصقلب إلى هذه المراكز، ممّا أوغرَ صدور النّاس عليهم، وبخاصة العلماء والأدباء، إذ لَمَسوا في هؤلاء الصقلب جهلاً وعجمةً تظلمان الأدب والعلْم العربي، لذا فقد سمّى سعيد الشنتريني[٤] هؤلاء الصقالبة بالجهّال في قوله[٥]:

وزالَ ماءُ العِلْمِ مِنْ وجْهِـــــــهِ مُذ زالَ من جَهْلِهِمْ الجائـــــــرِ

إنّ الشعر العربيّ -الذي وصل إلينا- لم يَنْقُل لَنا صورة واضحة عن طبيعة العلاقة بين الصقلب وغيرهم من الأجْناس، وعن عاداتهم وتقاليدهم ومدى عصبيتهم لِعرقهم وقومهم.

وربّما عُزِي هذا الأمر -قلّة الأشعار عن الصقلب- إلى انشغال الدولة في الفتوح والحروب مع النصارى، واقتصار هؤلاء الفتيان على أمور الخدمة في القصور أو الخدمة مع الجيوش الإسلاميّة دون تدخل في شؤون الدولة.

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب جـ٢/٢٥٩.

(٢) أبو الفتح نصر بن أبي الشمول، كان خليفة الأمير عبدالرحمن بن الحكم، المقدم على جميع خاصته، سوّلت له نفسه اغتيال مولاه عبدالرحمن بالسمّ، إلاّ أنّ الدائرة كانت عليه فمات بالسمّ وذلك سنة ٢٣٦هـ، انظر ابن حيان، المقتبس "د. مكي" /١٤٩. وكذلك المقري، نفح الطيب جـ١/٣٥٠.

(٣) ابن حيان، المقتبس "د. مكي" /١٤٩.

(٤) سعيد بن عبدالله العروضي الشنتريني، ذكره أبو الخطّاب بن حزم، ممن ألّف من أهل الأندلس، ولـه أشعار، (الضبّي، بغية الملتمس جـ٢/٣٩٦، ابن بسّام، الذخيرة م٢/ق٣/٨٧٠).

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب جـ٢/٢٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يُضاف إلى ذلك عدم إتقان الكثير منهم العربيّة وأسرارها حتى يستطيع أن ينظم القصائد التي تُمجّد جنسه وعرقه.

ولم يمنع ذلك من أن تَرِدْ بعض الأبيات التي تذم وصول بعض الصقالبة إلى المراتب العليا في خدمة الملوك والخلفاء، وقَد كانَ يحيى الغزال من الشعراء الذين تَصَدّوا لأعمال نصر، وهجاه، فتراه ينبّه نصراً أنّ هذا الجمع الذي يجمعه مصيره إلى القبر، وكأن هذا الكلام دعوة من الشاعر لنصرٍ أنْ يلزمَ حدَّه، ويعرف قدره، فيقول[1]:

أعْني أبا الفتحِ ما قَد كانَ يأمُلُـــهُ ... مِن التّصَانُعِ والتّشريفِ للدُّورِ
وكُلُّ عَرْضٍ وقَرْضٍ كانَ يجمعـه ... حفيرةٌ حُفِرَتْ بينَ المقابيـــــرِ
فصارَ فيها كأشقى العالميــن وإنْ ... لَقّوه بالنَّفحِ في مسْكٍ وكافـــورِ

وفي القصيدة نفسها يذّمُّ الشاعر سعي نصرٍ هذا لدسّ السمّ للأمير عبدالرحمن بن الحكم، إلاّ أنّ اللهَ أبطلَ كيدَهُ وشرّهُ، فيقول[2]:

وكانَ أزمَعَ شيئاً لـم تَكُنْ سَبَقَتْ ... به مِنَ اللهِ أحكامُ المقاديـــــرِ
إذا أرادَ الإلهُ الشيءَ كَوّنَـــــهُ ... فَلَنْ يضرّك فيه سوءُ تدبيـــــرِ

لقد حَمّلَ الغزال في نفسه علىنصرٍ الخصيّ، لذا فهو ينذرُ بوفاته وهلاكه عن طريق النجم قبل وقوعها بمدّة، فيقول[3]:

قُلْ للفتى نصرٍ أبـــي الفتـح ... إنّ المقانِبَ حلّ فـي النّطْـــحِ
وأراهُ قهقَرَ فيه ثمّ مَضـــــى ... قُدُماً ومُدَبّراً إلـى الرُّمْـــــحِ
وأرى النّحوس لـــــه مُسَاعِدَةً ... فانظرْ لنفسكَ واقبَلَنْ نُصحِـــي

---

(1) يحيى الغزال، ديوانه ص/٨٣، ابن حيّان، المقتبس "د. مكي" /١٥٢.

(2) يحيى الغزال، ديوانه ص/٨٤، ابن حيّان، المقتبس "د. مكي" /٨٤.

(3) يحيى الغزال، ديوانه ص/٦٠، ابن حيّان، المقتبس "د. مكي" /١٥٢، ١٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكانَ أمير المؤمنين قد منحَ بَيْتَ نصر الخصيّ بعدَ موتِه لمغنّيه زرياب، فتَناقَل النّاس هذا الخبر كغيره من الأخبار، إلاّ أنّ الغزال يُعلنُ عن فرحته لهذه المنحة بل يُصرّح بأن زرياب هو أهلٌ لهذا البيت أكثر من نصرٍ الخصيّ، ويصوره لنا الشاعر وهو يخرجُ من الدّنيا ذليلاً، تاركاً بيته إلى قبرِه، خالعاً ثيابه مرتدياً الكفن، لا يجيب داعية ولا يرجعُ صوتاً، فيقول[1]:

ذَكرَ النّاسُ دارَ نَصْرٍ لزريـــــا ... بَ وأهْلٌ لِنَيْلِها زريـــــابُ
هكذا قَدّر الإلهُ وقَد تجـــــــ ... ـــري بما لا تظنّهُ الأسبـــابُ
أخرجوه مِنْها إلـى مسكنٍ ليـــ ... سَ عليهِ إلاّ التّـــرابُ حِجابُ
لا يجيبُ الدّاعيه فيه ولا يـــــر ... جِعُ من عنده إليه جَـــوابُ
وتَغانَتْ تلكَ المراكبُ عنْـــــهُ ... وأمِيْلَتْ إلى سِواهُ الرِّكـــابُ
لَيْسَ مَعْهُ مِن كُلِّ ما كان قد جـــ ... ـمَّـ ـع إلاّ ثلاثـــةٌ أثـــوابُ

ويستمر الغزال في رسم تبدّل حال هذا الرجل، بل يتعدّى ذلك إلى الحديث عمّا أصابَ أهلَه من الذلّ، فيقول[2]:

وتَلاشـى جميـعُ ذاكَ فلمّـــا ... يَبْقَ إلاّ ثوابُهُ أو عِقَـــابُ
عسكرٌ جُنِّدوا فَليسَ بمـــأذو ... نٍ لهم عنه أنْ يكون الحسـابُ
فرأيتُ الرّقـابَ مـن أهلِـهِ ذ ... لّـ ـتْ وعزّتْ من آخرين رِقَـابُ
وكذاكَ الزّمانُ يُحْدِثُ في تصـــ ... ـريفهِ الذلُّ والبلا والخَـــرابُ

إنّ المتأمل للأبيات السابقة لَيَجد فيها عصبيّة صريحة ضدّ الصقالبة، وذمّ ما وَصَلوا إليه من مناصبَ وتجاوزهم أمرَ خدمتهم للأمير.

---

[1] يحيى الغزال، ديوانه ص/٥٢، ابن حيّان، المقتبس "د. مكي" /١٥٤.

[2] يحيى الغزال، ديوانه ص/٥٣، ابن حيّان، المقتبس "د. مكي" /١٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعبّر الشاعر عبدالله بن الشمر[١] عن ألمه وحسرته لتولى نصر الخصي المناصب العليا في الدولة ويصوره بأنّه عدوّ طامح للقضاء على حكم الأمير عبدالرحمن، بجمعه لأعوانه من الصقلب واستطالة أمرهم.

ويستخدم الشاعر في هذه الأبيات كلمات من مثل {لصوص، أراذل، كلب، عدو} مما يوحي بالكره الشديد الذي يكنّه النّاس لهؤلاء الصقلب، فيقول[٢]:

وما عاقني إلاّ عَدوٌّ مُسَلَّطٌ ... يَذِلُّ ويُقصي مَنْ يَشَاءُ ويُرْغِمْ
ولم يَسْتَطِلْ إلاّ بكم وبعزّكم ... ولا ينبغي أنْ يُمنَحَ العِزَّ مجْرِمْ
فمكّنتموهُ فاستطال عليكم ... وكادتْ بنا نيرانه تَتَضَرَّمْ
كذلكَ كلبُ السُّوْءِ إنْ يشبع انبرى ... لِمُشْبِعِهِ مُسْتَشْلِياً يَتَرَمْرَمْ
فجَمَّعَ إخواناً لصوصاً أراذلاً ... ومَنّاهم أنْ يقتلونا ويَغْنَمُوا

ويظهر ابن الشمر فَرَحَه وسُروره لموت هذا الصقلبي، وبخاصة أنّ الشاعر كان يخاف منه ويهابه، لذا تجلّت معالم السرور بأنْ جَعَل مصيره سيؤول إلى جهنّم، ويتمنّى لو كان مصير الصقالبة إلى الهلاك، حيث يقول[٣]:

فَنَحْمَدُ ربّاً سَرَّنا بهلاكِهِ ... فما زالَ بالإحسانِ والطّولِ يَنْعَمْ
أرادَ بكيدِ اللهِ نَصْرٌ فكادَهُ ... وللهِ كيدٌ يَغْلِبُ الكيدَ، مُبْرَمُ
بكى الكُفْرُ والشيطانُ نَصْراً فأعْوَلا ... كما ضَحِكَتْ شوقاً إليه جَهَنَّمْ
وكانتْ له في كلّ شهْرٍ جبايَةٌ ... جبايةُ آلافٍ تُعَدُّ وتُخْتَمْ
فهل حائطُ الإسلامِ يوماً يَسُومُهُم ... بما اجترموا يوماً عليهِ وأقْدَموا
ويُنْهِبَنَا أموالَهُم وهْوَ فاعِلٌ ... فإنّي أرى الدّنيا له تَتَبَسَّمْ

---

[١] عبدالرحمن (عبدالله) بن الشمر بن نمير القرطبي، كان مقرباً من عبدالرحمن الأوسط وابنه محمد، وهذه القصيدة وجهها للأمير محمد بن عبدالرحمن ومدحه فيها. (ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس/٨٢-٨٣. ابن عبدربه، العقد الفريد جـ٥/٢١٩).

[٢] ابن عبدربه، العقد الفريد جـ٥/٢١٩.

[٣] المصدر نفسه جـ٥/٢١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأمّا الشاعر سعيد الشنتريني، فيعلنُ عن بغضه للصقالبة من جانب، وعن فرحته لإخراج المنصور بن أبي عامر لهم من قصر الخلافة من جانبٍ آخر. ويصوّرهم بالظّلمة الجهّال، قد انحبس ماء العلم بوجودهم في القصر، وبحمل ثقيل أرهق كاهل المنصور إلى أنْ طرّحه بعيداً عنه، ولعلّ تشبيه الصقالبة بالحمل يعطي مدلولاً عن كُرْهِ بعض النّاس الاختلاط بهم، فيقول[1]:

أُخْرِجَ مِنْ قَصْرِ إمامِ الهُدى ... كُلُّ فَتَىً مُنْبَسِطٍ جائِرِ
فَمن رأينا مِنْهُمُ قالَ لا ... مِساسِ "فعلَ النّاس بالسّامِرِ"
فَخَفَّ ظَهْرُ المِلْكِ المُرْتَضَى ... مُذْ خَفَّ من ثِقْلِهِمُ الظاهِرِ
وسَالَ ماء العلم من وجْهِهِ ... مُذْ زالَ من جهلِهِمُ الجائِرِ
فلازَمَ الإقراءَ في قَصْرِهِ ... مع الوزيرِ الخيّرِ الطاهِرِ

العصبيّة القبليّة:

يصف صاحب نفح الطيب عرب الأندلس بأنّهم: ((كانوا يتميّزون بالقبائل والعمائر والبطون والأفخاذ))[2] إذ يبدو من هذا أنّ فكرة القبلية والنزوع إليها والتعصب لها قد امتدّت مع العرب من المشرق إلى الأندلس.

ومما يدل على أنّ هذه العصبية هي نتاج مشرقي، تلك الفتن المبيرة التي عصفت بالأندلس وأهلها في أول قيامها، فأهلكت النّسلَ والحرث، إذ ليس من الممكن أن تنشأ مثل هذه الفتن في ليلة وضحاها في دولة حديثة النشوء.

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب جـ٢/٢٦٤.

[2] المقّري، نفح الطيب جـ١/٢٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويدل على اتصال هذه العصبيّة بالمشرق استذكار أدباء الأندلس وقادتها لحروب قبلية قامت في المشرق، لإلهاب الحماس والحمية في نفوس القوم، كوقعة مرج راهط[١] التي ذكّرَ بها أبو الخطار هشامَ بن عبدالملك ليكون له معيناً في حربه ضد القيسيّة.

لقد ولّدت هذه الحرب حقداً متبادلاً بين كلٍّ من اليمنية والقيسية عبّرت عنه مصادر التاريخ بصورة تبيّن لنا الضغينة التي خلفتها هذه العصبيّات، فعلى سبيل المثال ترى أحد الكتاب يعبّر عن حالة الناس بعد انتصار الصُّميل على أبي الخطّار بقوله: ((ففرحت قلوبهم بذلك))[٢] وهي عبارة تدلُّ من دون شك على عمق العصبيّة بين الطرفين.

والغريب في الأمر أنّ التاريخ الأندلسي قد صوّر لنا هذه الفتن تصويراً دقيقاً، بعكس الأدب، إذ لم ينقل منه إلا القليل من الأبيات الشعريّة، وربّما عُزي الأمر إلى حداثة الدولة، إذ سعت القبائل في تلك الفترة للسيطرة على زمام الحكم دون أن تولي اهتماماً للأدب وللشعر. وربّما كان السبب في قلّة الأشعار يعود إلى تجنبّ الرواة لنقل مثل هذه الأبيات حتى لا تثار الفتن في البلاد بسبب هذا الشعر، مما سيؤدي الى تمزيق البلاد، وتفرّق كلمتها.

ويستطيع الباحث أنْ يَلْمس مظاهر العصبيّة القبلية من بعض الأشعار التي وصلت إلينا عن تلك الفترة، في مَدْح الشعراء لقادة القبائل، إذ يُصرّ الشاعر على إبراز النسب القبليّ للممدوح، وارتباطه بأصوله التي يدافع عنها، ومن ذلك قول أبي الأجرب[٣] مادحاً الصميل[٤] :

---

[١] مرج راهط: موضع في شمال دمشق، جرت فيه معركة بين الأمويين بقيادة مروان بن الحكم ضد أعدائهم من القيسيّة بزعامة الضحّاك بن قيس الفهري أمير عبدالله بن الزبير، وكان اليمنيون في هذه الوقعة متحالفون مع مروان بن الحكم. وأبلت فيه كلبٌ بلاء حسناً. (الحلة جـ١/٦٥)

[٢] المقري، نفح الطيب جـ١/٢٣٨.

[٣] أبو الأجرب جعونة بن الصمّة الكلابي، من قدماء شعراء الأندلس، جرى في شعره على مذهب العرب الأوائل، كان مدّاحا للصميل وزير عبدالرحمن الفهري، وأفنى فيه قوافيه، دُعِيَ بعنترة الأندلس، لم يلحق دولة بني أمية. (المغرب جـ١/١٣١، الإحاطة جـ٣/٣٤٧، الضبي جذوة المقتبس جـ١/٢٩٣)

[٤] لسان الدين الخطيب، الإحاطة جـ٣/٣٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بَنَى لـك حـاتِمٌ بيتـاً رفيعـــــا رأيْنـاهُ علـى عُمْـدٍ طِـــــوالِ
فأنت ابنُ الأكارم منْ مَعَـــــدٌ بمُعْتَلَجِ الأباطح والرِّمـــــالِ

أما أبو الخطّار رأس اليمانيّة، فقد كانَ شاعراً منافحاً عن قبيلته، دفعه الإحساس بالظلم لقبيلته، أن يوجّه عدداً من الأبيات لهشام بن عبدالملك، يذكّره بقيام قبيلة كَلْب مع مروان بن الحكم في يوم مرج راهط، ضد القيسيّة مع الضحّاك بن قيسٍ الفهري أمير عبدالله بن الزّبير، ويبدو أنّ هذه الأبيات قد قالَها بعد أنْ تعاقب على إفريقيّة ولاةٌ من قَيْس، الأمرُ الذي لَم يُعْجِب أبا الخطّار، فلجأ إلى استذكار الوقائع التي كانت لقبيلته مع مروان، وفضل قبيلته في تدعيم الحكم الأموي، وهي إشارة إلى أحقيّة هذه القبيلة بالحكم، فيقول[1]:

أفأنتُم بنـي مـروان قَيْسـاً دِمَاءَنـــا وفي الله -إن لم تُنْصِفوا- حَكَمٌ عَـدْلُ
كـأنّكم لـم تشـهدوا مَـرْج راهـــطٍ ولم تعلموا مَن كانَ ثَمَّ لـه الفَضْـــلُ
وقينـاكُمُ حَـرّ القَنَـا بنحورنـــــــا ولَيْس لكم خيل سِوَانا ولا رَجْـــلُ
فلمّـا بلغْتُم نَيْلَ مـا قـد أردْتُـــمْ وطابَ لَكم منّـا المشـاربُ والأكْـــلُ
تَعَامَيْتُمُ عنّا بِعَيْنٍ جَلِيَّـــــــةٍ وأنتمْ كذا ما قَدْ عَلِمنَـا لها فُعْـــلُ

وهو ينبّه هشام بن عبدالملك بأمور الحرب والفتن، إذ قد تكون الدائرة على بني أميّة، وعندها سينتقض ما قد كان بين قومِهِ وبني أميّة، لأنّ هشاماً قد نحّى قومه عن الولاية.

ويستوحي أبو الخطّارَ في حديثهِ عن الولاية وانتقاض الأمر، صوراً معبّرةً هي أكثر دلالة وأشدُّ وقعاً في نفس السامع، فيقول[2]:

فَلا تَأمنوا إنْ دَارَتْ الحـربُ دورةً وزَلّتْ عَن المِرْقاةِ بـالقَدم النَّعْـلُ
فينتقضُ الحبلُ الذي قَد فَتَلْتُـــمُ ألا ربّما يُلْوى فينتقضُ الحبـــلُ

---

[1] ابن الأبّار، الحلة جـ١/٦٤.

[2] المصدر نفسه جـ١/٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وارتبط مفهوم هذه العصبيّة القبليّة عند أبي الخطّار بالتقاليد والعادات العربيّة القديمة، من الانتقام للقتلى والتنكيل بمن تجرّأ على قتلهم.

بل إنّ المقتول من قبيلة أبي الخطّار يعدلُ تسعين رَجلاً من القبيلة الأخرى، فتراه يقول معبّراً عن نقمته بعد أن قُتِلَ أحَدُ أتباعِه[١]:

فلَيْتَ ابنَ حَوّاسٍ يخَبّرُ أنّني ... سَعَيْتُ به سَعْيَ امرىءٍ غيرِ غافلِ
قَتَلْتُ بِه تسعينَ تحسبُ أنّهُمْ ... جذوعُ نخيلٍ صُرِّعتْ بالمسَايلِ
ولو كانَتِ الموتى تُباعُ اشتريتُه ... بكفّي، وما استثنيْتُ منْها أنَاملي

ويبْدو أنّ أبا الخطّار أدرك أنّ في اجتماع الصُّميل مع عبدالرحمن الفهري، قوّة وشدّة للمُضريّة، لذا فقد سَعَى أبو الخطّار للتفريق بينهما، عندما وجّه للصمّيل أبياتاً يدعوه فيها لترك الفهري، معللاً ذلك بأن الفهريّ يَنْقُصه الحسب، والنسب العربيّ.

ولعلّ أبا الخطّار قد وجّه هذه الأبيات للصّميل لما عُرِفَ عنه من شجاعة وفروسيّة وشاعريّة، فيقول مخاطباً الصّميل[٢]:

إنّ ابنَ بكرٍ كَفَانِيْ كلَّ مُعْضلةٍ ... وحطَّ عن غاربي ما كانَ يُؤْذيني
إذا اتّخذْتَ صديقاً أو هَمَمتَ بِهِ ... فاعْمد لذي حَسَبٍ إنْ شئتَ أو دِينِ

إنّ الصُّميل كانَ شديد العصبيّة ضد اليمانيّة، أكثر من غيره، الأمر الذي يُعللُ لنا سرّ مدح أبي الأجرب له، ومخاطبة أبي الخطّار له في الأبيات السابقة. ونَلمح عصبيّته ضدّ اليمانيّة، ومدى ما أبلاه فيهم في قوله[٣]:

ألا إنّ مالي عنْدَ طيٍّ وديعةٌ ... ولا بُدَّ يوماً أنْ تُردَّ الودائعُ

---

[١] ابن الأبار، الحلة جـ١/٦٦.

[٢] المصدر نفسه جـ١/٦٥-٦٦.

[٣] المصدر نفسه جـ١/٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سَلُوا يَمَناً عَن فِعلِ رُمْحي ومِنْصَلـــي فإنْ سكتوا أثنتْ عليَّ الوقائِـــــــعُ

العصبيّة الدينيّة:

ليس المقصود بالعصبيّة الدينيّة تعصّب المسلمين ضدّ الديانات الأخرى أو أصحابها وتحريم اعتناقها في أرض الأندلس، بل إنّ ما أوردتْه كتب التّاريخ يؤكد خلاف ذلك، إذ وجد من اليهود والنصارى طوائف كثيرة في أرض الأندلس، احتُرموا واحتُرمَتْ شعائر دينهم. لأنّ المسلمين في الأندلس جعلوا من قوله تعالى: ﴿لا إكْراه في الدّين﴾[١] شعاراً لهم.

لقد وَجَدَ اليهود -دون غيرهم- في الأندلس تسامحاً دينيّاً عَزَّ نظيره، بعدما كانوا يعيشون تحت وطأة الذلّ والمهانة بين القوط قبل الفتح الإسلامي[٢]. بل إنّ الإسلام نهى عن العصبيّة بكلّ أشكالها وحَرّم الدعوة لها، إذ هي مبدأ مستمدّ من الروح الجاهليّة التي حاربها الإسلام.

إنّ المقصود بالعصبيّة الدينيّة -عنوان المبحث- هو الردّ على مَن حاول الطعن بالدين الحنيف من اليهود أو النّصارى أو حتّى المنحرفين عنه، بقصد الاستهزاء أو التشكيك بالدين الإسلامي.

إنّ استقراء التاريخ الأندلسي يُثبتُ لَنَا أنّ اليهودَ لم يَجْرؤوا على الطعن بالدّين الإسلامي، إلاّ بعد ما قويت شوكتهم، وبخاصة في دولة باديس بن حبوّس بعد أنْ تولوا مناصب رفيعة في الدولة، كما حدث مع ابن النغريلة الذي صار وزيراً لباديس، فجَهِدَ أن يُولّيَ اليهودَ مَنَاصبَ الدولة، بل لقد قَادَته عصبيّته العمياء للطعن بالإسلام والاستهزاء بالقرآن الكريم حينما أقْسَمَ أنْ ينظم القرآن الكريمَ في أشعارٍ وموشحات يُغنّى بها، ومن ذلك قوله[٣]:

---

[١] سورة البقرة، آية/٢٥٦.

[٢] محمد الدغلي، الحياة الاجتماعية/١٩.

[٣] ابن سعيد، المُغرب جـ٢/١١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نَقَشْتُ في الخَدِّ سَطْـــــراً من كِتَابِ اللـهِ مـــــوْزونْ
لَن تنالوا البِـرَّ حَتَـــــى تُنْفِقوا ممـا تحبّـــــــون

وسيقف الباحث على أثر على بعض أمثلة العصبيّة الدينيّة وحماس الشعراء للدفاع عن الدّين الحنيف في وجه من حاول الطّعن به أو التشكيك فيه.

أولاً: بين المسلمين واليهود:

استاء مسلمو الأندلس من تولي اليهود مناصب كثيرة في الدولـة، وبخاصـة سيطرتهم علـى الأمور الماديّة، بعد ما كانوا يؤدون الجزية للمسلمين.

ولم يكتفِ اليهود بهذا بل سَعَوا إلى تقسيم الدولة بينَهم لزيادة التحكم بها،كما يتضح من قـول أبي إسحق الإلبيري[1]:

وقَدْ قَسَّمُوها وأعْمَالَهَـــــا فَمِنْهُم بكلّ مكانٍ لعيـــــنْ

لقد جاءَتْ قصيدة الإلبيْري صَرْخَةَ رَفْضٍ لهذا الحال من تمكّن اليهـود مـن الدولـة، فاضحـةً مكرهم وخداعهم. ويصوّر الإلبيري المسلمَ خاضعاً لليهود ليلهب المشاعر الدينيـة، ويـبرز فكـرة هامة، هي أنّ المسلمين قادرون على أداء هذه الأعمال التي يؤديهـا اليهـود، لـذا فـالخلاص مـن اليهود أحقّ وأولى، فيقول[2]:

ألا قُلْ لِصَنْهاجَةٍ أجمعيـــــن بـدور النّـدا وأُسْـدِ العَريـــــن
لقد زَلّ سَـيدكم زَلّـــــةً تَقِرُّ بها أعينُ الشامتيـــــن
تَخَيَّرَ كاتِبَهُ كافِـــــراً ولو شاءَ كـانَ مـن المسلميـــن
فَعَزَّ اليهودُ به وانْتَخَـــــوا وتَاهُوا وكانوا من الأرْذليـــن
ونالوا مُنَاهم وجَازوا المَـــدَى فَحَانَ الهلاكُ وما يَشعُـــرون

---

[1] الإلبيري، ديوانه ص/٩١.
[2] المصدر نفسه ص/٨٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فكم مُسْلمٍ فاضلٍ قانـــــــتٍ ... لأرذلِ قِرْدٍ من المشركيـــــــن
وما إنَّ ذلكَ من سَعْيهـــــــم ... ولكنَّ منّا يقومُ المُعيـــــــن

ويُذَكِّرُ الإلبيري باديسَ، بما يستحقّهُ اليهود من صغار لطعنهم بالدين، ويصوّر الشاعر اليهودي لابساً خَرْجته يطوف في شوارع المدينة ذليلاً، بعيداً كُلَّ البعد عن أئمة المسلمين، ويقرر الإلبيري في أبياته بأنّهم يستحقون هذه الهيئة، فيقول[1]:

فَهَلاّ اقتدى فِيْهِمْ بالأُلـــــــى ... منَ القادةِ الخيْرَة المُتَّقيْـــــــن
وأنْزَلَهم حَيْثُ يستاهلـــــــون ... ورَدَهُمْ أسْفَلَ السّافليـــــــن
وطافوا لدَينا بأخْرَاجِهـــــــم ... عَلَيْهم صغَارٌ وذُلٌّ وهُـــــون
وقمُّوا المزَابِلَ عَنْ خِرْقَـــــةٍ ... مُلَوَّثَةٍ لِدِثَارِ الدّفيـــــن
ولم يَسْتَخِفّوا بأعلامِنـــــا ... ولم يَسْتَطِيلوا على الصالحيـــن
ولا جالسوهم وهُم هُجْنَـــــةٌ ... ولا واكبوهُم مع الأقربيـــــن

ويعطف الإلبيري في قصيدته إلى مَدْحِ باديس، بالمَجْد والفروسية وغيرها من الصفات، ويضع مقابل هذه الصفات العَلِيّة صفات اليهود فهم "فِرَاخ الزنا، فاسقون"، وهي مقابلة الشيء بضدّه، ومن ثَمَّ يذكر الشاعر بأن الله قد حَذَّرَ من اتّخاذ الفاسقين صَحبةً، وفي هذا إلحاح من الإلبيري على التذكير بالدين وموقفه بمن أستهزأ به وتجرّأ على أهله، فيقول[2]:

أباديسُ أنْتَ امرؤ حـــــاذقٌ ... تُصيبُ بِظَنّكَ نَفس اليقيـــــن
فكيْفَ اخْتَفَتْ عَنْكَ أعيَانُهـــــم ... وفي الأرضِ تَضْرِب منها القرون
وكيف تُحِبُّ فِرَاخ الزّنـــــا ... وهمُ بغْضُوك إلى العالميـــــن
وكيف استنمْت إلى فَاسِـــــقٍ ... وقَارَنتهُ وَهْو بِئْس القَرِيـــــن
وقَد أنْزَل اللهُ في وَحْيِـــــهِ ... يُحذّر من صُحْبَةِ الفاسقيـــــن
فقد ضَجّتِ الأرضُ من فِسْقهم ... وكادَتْ تميدُ بنا أجمعيـــــن
تأمّل بعينيك أقْطَارَهـــــا ... تجدْهُم كِلاباً بها خَاسئيـــــن
وكيف انفردْتَ بتقريبهـــــم ... وهم في البلاد من المُبْعَديـــــن

---

[1] الإلبيري، ديوانه ص/٩٠.

[2] المصدر نفسه ص/٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على أنّـكَ المليكُ المُرتَضَـــــى سليلُ الملوك من الماجديـــــن
وأنّ لك السَّبْقَ بَيْنَ الـــــورَى كما أنتَ من جِلّةِ السابقيـــــن

ويلـحُ الشـاعر فـي الأبيـات السـابقة علـى تكـرار صيغـة الاسـتفهام "كيـف" لإعـلان اسـتنكار المسلمين على ما وصل إليه اليهود.

ويذهبُ الإلبيري بَعْدَ ذلك ليقرر في قصيدته حقيقة سَعْي اليهود نحو السلطة في البلاد، ونحو السيطرة على أمورِ البلاد كافة، ويدلّل على ذلك بما تبدل من حال اليهود، والإلبيري يتحدث عنهم بضمير الجمع في "قسّموها" "يقبضون" "يلبسون" ... الخ، ليدلل على أن اليهود أجمعين قد تبدل حالهم واستولوا على البلاد، فيقول[1]:

وإنّي احتَلَلتُ بغرناطـــــةٍ فكنت أراهُم بها عابثيـــــن
وقد قَسّموها وأعمالَهـــــا فمنهم بكلّ مكانٍ لعيـــــن
وهم يقبضون جباياتهـــــا وهم يخضمون وهم يَقْضمـون
وهم يلبسون رفيعَ الكُسَـــا وأنتم لأوْضعِها لابســـون
وهم أمَناكُم على سِرّكِـــم وكَيْف يكونُ خؤونٌ أميـن؟
ويأكلُ غيرهُمُ دِرْهمـــــاً فَيُقْصى ويُدْنَونَ إذ يأكلـون
وقد ناهضوكُم إلى رَبّكُـــمْ فما تمنعون ولا تُنكِـــرون
وقد لابسوكم بأسحارهـــم فما تسـمعون ولا تبصـرون
وهم يذبحون بأسواقِهـــــا وأنتم لأطرافِها أكلـــــون

ويخلص الإلبيري في هذا المقطع إلى ذكر ما حَلّ بالمسلمين من ذلّ إذ يطلبون حاجاتهم من اليهود، ويُوضيح عن سخريةِ اليهود من الإسلام، ساعَتَها لا يجدُ الإلبيري إلاّ أن يُلجئ أمره إلى الله، فيقول[2]:

فَصَارَتْ حوائجنا عِنْـــدَهُ ونَحْنُ على بَابِهِ قائمـــون

---

[1] الإلبيري، ديوانه/٩١.

[2] المصدر نفسه/٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبَضْحَكُ مِنّا ومن ديننـــــــا فإنّا إلى ربّنـا راجعـــــون

لقد تَجاوَز اليهود حَدّهم في الاستهزاء بالدين، والتكبّر علـى المسلمين، وهم أهل ذمّـة، لـذا يدعو الإلبيري باديسَ أنْ ينتقم منهم، ويفرّق شملهم وينزلهم عمّا وصلوا إليـه مـن تَكبّر ورِفْعَـة، فيقول مشيراً إلى ابن النغريلة[١]:

فَبَادِرْ إلى ذَبْحِهِ قُربَـــــةً وَضَحِّ بِـهِ فَهْو كَبْشٌ سميـن
ولا تَرْفَعِ الضغطَ عَنْ رَهْطِـهِ فقد كَنَزوا كُلَّ عِلْـقٍ ثميـن
وفَرّق عُرَاهم وخُذ مالَهـم فأنتَ أحَقّ بمـا يجمعـــــون
ولا تَحْسَبَنْ قَتْلَهـم غَـــدْرَةً بَلِ الغَدْرُ فـي تَرْكِهِم يَعْبثُون
وقد نَكَثوا عَهْدَنَا عِنْدَهـــــم فَكَيْفَ تُلامُ على النَّاكِثِيـــن

لَقَد عبَّرَت قصيدة الإلبيري الزاهد عمّا وَصَلَ أمرُ اليهود في غرناطـة مـن تحكّم فـي أمـور المسلمين والاستهزاء بدينهم، لذا فقد جَعَلَ بعضُ الباحثين هذه القصيدة الشرارة التي أشـعلت نـار الثورة على اليهود[٢] بعد أن استشرى أمرهم.

لَقَد رأى أهل الأندلس فـي اشتغال اليهـود فـي الأمـور الماديّـة قَلْبـاً للشـريعة الإسـلاميّة، إذ الأصل أن يؤدّيَ اليهود ما عليهم من جزيّة. لذا عبَّر الشعراء عن إحساسهم بالمرارة لهذا الحـال ودَعَوا للخلاص منهم، من ذلك قـول أبـي حَفْصٍ الزكرميّ العروضـي مخاطبـاً أهل دانيـة وقـد طولِبَ بمكس كانَ يتولاّه يهودي[٣]:

يا أهلَ دانيـةٍ لَقَد خالفْتُـــــم حُكْمَ الشـريعةِ والمـروّةِ فينـا
ما لي أراكُمْ تأمرونَ بِضِدّ مـا أمَرَتْ، تُرى نَسَخَ الإلهُ الدّينا
كُنّا نُطالِبُ لليهودِ بجزيَـــــةٍ وأرَى اليهودَ بجزيةٍ طلبُونـــا

---

(١) الإلبيري، ديوانه/٩٢.

(٢) جودت الركابي، في الأدب الأندلسي ص/١٢٥.

(٣) السلفي، أخبار وتراجم أندلسيّة/٣٧-٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويذكر عيسى اللخميّ الممدوح بالدين الإسلامي، الذي يأبى عليه أنْ يستكتب اليهود ويستخلفهم على أمره، ويكثر الشاعر من استفهامه ليعبّر عن استنكار المسلمين أن يتولى اليهود الأمر، ويعلل الشاعر ذلك بحقد اليهود المتوارث على المسلمين، فيقول[١]:

أيا ابن الأكْرَمين ومَنْ عُلاهُ ... يُوافِقُ فَرْعُها السّامي أُصولْ
أترضى أنْ تكُونَ فتى هِلالٍ ... وقَيْسٍ وابنُ عمّكم الرّسولْ
وتحمي دينَه بالسيفِ نَصْراً ... وكاتبكُم يكذّبُ ما يقُولْ
وَتَنْقُدُهُ عَلَيْكَ العُرْبُ طُرّاً ... أما في المسلمينَ بُدٌّ بَديلْ
مَتَى نَصَحَتْ يهودُ العُرْبَ يوماً ... أحقْدُهُمُ لأوسكُمُ يَزُولْ
أيَحْكُمُ فيهُمُ سَعْدٌ بحكْمٍ ... ويُلْفى مِن يهودَ لَكُم خَليلْ

ونختم حديث الشعراء عن ازدياد النفوذ اليهودي وسيطرته، بوصف يوسف بن محمد[٢] لهم وقد تحكّموا بأعراض المسلمين، وهو يتنبأ بقيام الدولة اليهودية بين المسلمين، فيقول[٣]:

تَحَكّمتِ اليهودُ على الفروجِ ... وتَاهَتْ بالبغَالِ وبالسُّروجِ
وقامَتْ دولة الأنذال فينا ... وصارَ الحُكْمُ فينا للعلُوجِ
فَقُلْ للأعْورِ الدّجّالِ هذا ... زَمَانُكَ إنْ عَزَمْتَ على الخُروجِ

لَقَد استغلّ اليهود انقسام الدولة الإسلاميّة إلى طوائف، لينشروا معتقداتهم وحقدهم على الإسلام، محاولين إقامة دولة يهودية، في الوقت الذي عاشوا في ظل الدولة العادلة طوال فترة الخلافة دونَ أنْ يَصِلَ لنا أثر شعْري يذمهم أو يذمّ شعائرهم.

---

[١] عيسى بن عبدالله اللخمي، قال أبياته ينتدّد ببعض رؤساء العرب عن استكتاب يهودي، (المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الخامس/٤٩٧، ٤٩٨.

[٢] الوزير الكاتب أبو الحسين يوسف بن محمد بن الجدّ، وبنو الجدّ أسرةٌ توارثت الأدبَ ورتبَهُ، واستكتب أبا الحسين هذا ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن عمّار، وله عنه رسائل مشهورة. (ابن بسّام، الذخيرة م٢/ق٢/٥٦٢).

[٣] ابن بسّام، الذخيرة م٢/ق٢/٥٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمّا هذه الأشعار فقد عبّرت عن حقد اليهود وسعيهم لتشويه الإسلام، الأمر الذي أثار حفيظة الشعراء، وألهب مشاعر النّاس للانتقام منهم.

ثانياً: بين المسلمين والنّصارى:

نالَ النّصارى حريتهم الدينيّة في أداء شعائرهم كاليهود في الأندلس، ولم تَشْهَد عصبيّة دينيّة بَيْن النّصارى والمسلمين، إلاّ في الوقت الذي ظَهَرَفيه ابن حفصون، إذ كانت الحرب بين ابن حفصون وحكّام الأندلس حرب عقدية، لأنّ ابن حفصون أظهر اعتناقه للنصرانيّة بعد أن كان يُسَرُّ ذلك ونابز أهل الإسلام.

ومع كُلّ هذا فلم يطعن المسلمون بالديانة النصرانية أو شعائرها، بل عَبّروا عن كفر ابن حفصون وسعيه للقضاء على الدولة الإسلاميّة، وما مَسّ المسلمين من فَرَح بعد الانتصار عليه، ومن ذلك قول ابن عبدربّه[1]:

رامَ ابنُ حَفْصُونَ النّجاة فَلَم يَسُرْ ... والسيفُ طالبُهُ فَلَيْسَ بناجِ
في ليلةٍ أُسْرَتْ به فَكأنّما ... خيلَتْ نقيضةَ ليلة المِعْراجِ

والانتصار على ابن حفصون نَصرٌ مِنَ اللهِ لعبادِهِ المسلمين، على أعدائهم، ويكنى عنهم ابن عبدربه بـ"الخنازير" رمز النجاسة فيقول[2]:

فَتَمَّ صُنْعُ اللهِ للإسلامِ ... وَعَمّنا سرورُ ذَاكَ العامِ
وخيرُ ما فيه من السرورِ ... موتُ ابنِ حفصونَ به الخنزيرِ
فاتّصَلَ الفتحُ بفتْحٍ ثانٍ ... والنَّصْرُ بالنَّصْرِ من الرّحمنِ

امّا أتباع جعفر بن حفصون فهم من أهل الفسق والفجور، ومن المنافقين الناكثين للعهود، فيجعلهم ابن عبدربّه أولياء الشيطان، فيقول[3]:

---

(1) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب جـ٢/١٣٣.
(2) ابن عبدربّه، ديوانه/٢٦٨.
(3) المصدر نفسه/٢٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثُمَّ لَوَى الشيطانُ رأس جَعْفـــرٍ وصَارَ منـه نافخاً فـي المنْخَـرِ
وضَمَّ أهل النَّكْثِ والخـــــلافِ من غير ما كافٍ وغيـــر وافِ

ويؤكد ابن عبدربه على فكرة ولاءِ ابن حفصون وأتباعِهِ للشيطان فيقول:

عِصَابَةٌ من شيعةِ الشيطـــــانِ عدوّةٌ للّهِ والسُلطَـــــــــــانِ

وتظهر الفرحة بصَلْب أوصال عمر حفصون في أبيات الشاعر أحمد الرازي، وتبرز الحميّة الدينية في البيت الأخير الذي حمد فيه الله على ما أنعم به من انتصار الإسلام، ولقد بدا الوازع الديني عند الشاعر بألفاظه التي استمدّها من القرآن الكريم من مثل "الأجداث" "ثوى في الثرى" "قَعْرَ جهنمَ" "بوّأ النفس" فيقول[1]:

تَبَدّى لِرَأي العَيْن مَرْأى مُجَسّمـــاً وقامَ من الأجداثِ خَلْفاً مُتَمـــــاً
فما كان إلا مثلَ مَنْ نَـامَ نَوْمَـــةً فأَنْبَهَ عنها حينَ أُغْفِي وهَوّ مـــا
ثوى فـي الثرى حَتّـى إذا صـارَ أُعيْدَ إليـه جِسْمُه فتألّمـــــــا
رِمّةٌ رَقى فَوْقَ جذعٍ بالهواءِ مُعَلَّقٍ يُحَاولُ منه بـالنجومِ تَحوُّمَـــــا
تبارَكَ مَن أَبْدَاهُ للخَلْقِ سَامِكـــاً وبَوّأَ مِنه النَفْسَ قعرَ جهنّمـــــا

وكانَ يومَ صُلِبَ ابن حفصون قد أمطرت السماء، فانبرى أحد الشعراء يمزج بين صورتي سقوط المطر الطاهر على الأرض وسقوط دم الخبيث، ويُظْهر لنا أن ابن حفصون رجْسٌ تطهّرت الأرض منه وارتاحت النفوس منه فيقول[2]:

سَحَابٌ يمورُ الغيثُ مِنْها وديمَـةٌ دِمَـاءُ العِدَى تهمي بـه وتَمـــورُ
غِياثان فينا واكفان من الحَيَـــا ولكنّ ذا رِجْسٌ وذاك طَهُـــورُ
وذاك نجيعٌ لَيْسَ يقبَلُهُ الثَـــرى وذا نَـاجِعٌ يَسْرِي بـه ويَغُـــورُ
تدنّستِ الدُّنيا به فتطهّـــــرَتْ بُطُونٌ لها مِنْ رِجْسِهِ وظُهُـــورُ

---

[1] ابن حيان، المقتبس جـ٥/٢٢١.

[2] المصدر نفسه جـ٥/٢٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الخليفة المسلم، فهو مؤيد من الله في حربه مع هؤلاء الكفّار كما في قول ابن عبدربه مادحاً الناصر[١]:

فاعتَاقَهُ الخليفَةُ المُؤَيَّـــــــدُ وهو الذي يُشْقَى بـه ويُسْعَـــــدُ
ومَنْ عليهِ من عُيونِ اللـــــــهِ حوافظٌ منْ كُلِّ أمرٍ داهـــــــي

ويقول في بيت آخر[٢]:

خليفَةُ اللهِ على عبـــــــادِهِ وخَيْرُ من يحكمُ في بـــــلادِهِ

وكما كان الناصرُ خليفة الله، فإنّ المنصور قد اختاره الله ليقيم الهدى للناس، ولنُصْرة الدين الحنيف، يقول ابن درّاج[٣]:

وصَفْوةُ اللهِ مِنْ أنْصَارِ دَعْوَتِـــهِ ومَنْ تَتَقَّى لنَصْرِ الدّينِ وانْتَخبَـــا

إنّ المظفّر بن المنصور كان سيفاً صارماً على أعداءِ الدين، فبدّدَ شملهم، وجَمّع غرَى المسلمين، يقول ابنُ درّاج[٤]:

يا أيُّهَا المَلِكُ الذي بسيوفِـــــهِ ورماحِهِ أُضْحَى الهُدَى معصومـا
بكم اغْتَدَى شَمْلُ العِدَا متبـــدّدا وبكم غَدَا شَمْلُ الهُدَى منظومـــا
كرُمَتْ مغَارِسُهم وطابَ نِجارُهم حَتّى غدا بهم الزّمانُ كريمـــــا

ويبين ابنُ خَفَاجَة عظيم الناحية الدينيّة عند المعتمد واعتصامه بالله في حربه مع الكفّار حيث يقول[٥]:

صابرٍ في اللـــهِ مُحْتَسِبٍ واثقٍ في اللـه مُعْتَصِـمِ
فتكةٌ في الرّوم قاصمـــةٌ ظَهْرَ عِزّ الرُّومِ والصَّنَـــمِ

---

[١] ابن عبدربه، ديوانه/٢٦٩.
[٢] المصدر نفسه/٢٧٤.
[٣] ابن دراج، ديوانه/٣٦٧.
[٤] المصدر نفسه/٤٤٧.
[٥] ابن خفاجة، ديوانه/١١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويظهر تأثر المعتمد بالقرآن الكريم عند حديثه عن حربه مع الكفار في قوله ((سيعود بالفتح القريب))، ومما لا شك فيه أنّ القارىء لهذه الأبيات يدرك اعتماد المعتمد وجيشه على الله، وتفاؤل المعتمد بالنصر لأنّه يحامي عن الدّين ضد أتباع الطاغوت، فيقول في أبيات قبل بدء المعركة[1]:

لا بُدَّ مِنْ فَرَجٍ قريبٍ ... يأتيكَ بالعَجَبِ العَجيبِ
غَزْوٌ عليكَ مُبَارَكٌ ... سيعودُ بالفتحِ القَريبِ
للهِ سَعْدُكَ إنّهُ ... نكسٌ على دينِ الصليبِ
لا بُدَّ من يومٍ يكونُ ... لأخا لَهُ يوم القليبِ

ويخلص الباحث من هذا العرض للعصبيّة الدينيّة بنتيجة ذُكِرت آنفاً بأنّ مسلمي الأندلس قد احترموا أهل الذّمّة، وتركوا لهم حريتهم في أداء شعائرهم، عاكسين بذلك أبهى صورة لسماحة الإسلام وعدله. وأمّا إنْ تعرّض الإسلام للهجوم والطعن من لدن حاقد أو منافق أو حتّى مستهزىء انبرى له الفقهاء والأدباء للردّ عليه، حماية للدين ولأهله. وقد عبّر الشعراء عن ذلك بصورة واضحة إذ كانوا لسان الجمهور الذي ينكر الطعن بالإسلام، ويرحّب بمن يدافع عنه من القادة والعلماء.

العصبيّة المذهبيّة:

مثّل ظهور المذهب الظاهري في الأندلس أبرز ملامح العصبيّة المذهبيّة في الأندلس وذلك لسيطرة المذهب المالكي على الفقه الأندلسي. ويبدو أن المصادر التاريخيّة تجعلُ من ابن حزم[2] الداعية الأول والمتحمّس للدعوة لهذا المذهب.

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب جـ٤/١٣٥. المقري، نفح الطيب جـ٤/٣٦٤.

[2] اسمه: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، أبو محمد، عالم الأندلس في عصره، وأحدُ أئمة المسلمين، ولد بمدينة قرطبة سنة ٣٨٤هـ، من أسرة غنيّة عريقة النسب، فقد كان أبوه أحمد بن سعيد من كبار الوزراء في دولة المستنصر، توفي سنة ٤٥٦هـ، فكان عمره إحدى وسبعين سنة. (ابن بسّام، الذخيرة م١/ق١/١٦٧، الحميدي، جذوة المقتبس جـ٢/٤٩٠، الذهبي، سير أعلام النبلاء جـ١٨/١٩٢-٢١٢، ابن خلكان، وفيات الأعيان جـ٣/٣٢٥، المراكشي، المعجب/٤٩، ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان جـ٤/١٩٨).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لم يكن الفقهاء المالكيّون يرضون أن يدخل جزيرتهم مذهب آخر، إمّا تعصباً منهم لمذهبهم، أو حرصاً على النّاس أن تنشق عصاهم وتتفرق كلمتهم. وعلى العموم فإنّ هؤلاء الفقهاء تعصّبوا ضد المذاهب الأخرى، وأعلنوا شذوذ من يتخذها مذهبا.

مال ابنُ حزم في بداية أمره إلى التمسك بالمذهب الشافعي وناضل عنه، وانحرف عن مذهب غيره، فاستُهدف بذلك لكثير من الفقهاء وعُيّبَ بالشذوذ[١].

انطلق ابن حزم في الدعوة إلى مذهبه الظاهري، بعد أن تحوّل عن الشافعيّة بعد ما شاهده من تشتت أهل الفقه في آرائهم وتنازعهم لأخذهم بالقياس. إذ أُخْضِعَ الفقهُ للأهواء الشخصيّة، والإسراف في تجاوز النصوص والإغراق في اعتماد الرأي والأقيسة والعلل، ربّما لخدمة المكاسب الشخصيّة في إطار الفساد الذي شاع في الحياة الاجتماعية في الأندلس، ولا سيّما في عصر مضطرب بالأهواء، عاصف بالفتن، كالعصر الذي قدّر لابن حزم أنْ يحيا فيه وهو القرنُ الخامس الهجري، إذ عمّتْ الفوضى كُلَّ ميدان حتى ميدان الفقه والتشريع[٢].

يقول ابن حزم عن هذه الفوضى في ميدان الفقه: ((ولا يغرنّكم الفسّاق والمنتسبون إلى الفقه، اللابسون جلودَ الضأن على قلوب السباع، المزيّنون لأهل الشرّ شرّهم، الناصرون لهم على فسقهم))[٣].

ويقول ابن خفاجة في التعبير عن هذه الفوضى التشريعيّة[٤]:

درسوا العلوم ليملكوا بجدالهم ... فيها صدور مراتبٍ ومجالسِ
وتزهّدوا حتّى أصابوا فُرْصَةً ... في أخذ مالِ مساجدٍ وكنائس

---

[١] ابن بسّام، الذخيرة م١/ق١/١٦٧.

[٢] جمانة باشا، أثر الأندلسيّة في الأدب الأندلسي/٢٦٢.

[٣] رسالة التلخيص لوجوه التلخيص/١٧٤، ضمن رسالته في الردّ على ابن النغريلة اليهودي.

[٤] ابن خفاجة، ديوانه/٣٦٦، المقري، نفح الطيب جـ٣/٣٠٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو أنّ ابن حزم قد نَزَع هذا المنزع في إعلان المذهب الظاهري، بعد طول نظر وتفكير فيما يدور حوله من الانحرافات والخلافات الشرعيّة جرّاء التوسع بالأخذ بالقياس، فرأى هذا العالِم أنّ الحال بحاجة إلى ضبط واتزان، فاعتمد في مذهبه على الكتاب والسنّة وإجماع الصحابة وأبطَلَ القياس[١].

لقد خرج ابن حزم بهذا المذهب عن مَذهب أهل الجزيرة -المالكي-، الأمر الذي ألهب مشاعر التعصب ضدّه وضدّ مذهبه.

ويبدو أنّ ما أثار حفيظة كثير من الفقهاء ضد ابن حزم غير خروجه عن مذهبهم المالكي هو تعصّب ابن حزم لمذهبه، وصرامَة عبارته مع غيره من العلماء، يقول الذهبي: ((ابن حزم عديمُ النظير، على يُبسٍ فيه وفَرْط ظاهريّة، في الفروع لا الأصول، لم يتأدّب مع الأئمة في الخطاب بل فجّج العبارة وسَبَّ وجَدَع))[٢].

ويَذْكر عمّن يصف لسانه: ((كان لسان ابن حزم وسيف الحجّاج شقيقين))[٣]، ويقول ابن بَسّام عن تجرئه على العلماء: ((فلَم يَلْطُف صَدْعَهُ بما عنده بل يَصْك مُعَارضيه ويُنْشِق مُتَلَقّيه إنشاق الخَرْدَل، فينفرّ عنه القلوب ويوقعُ بها النّدوب))[٤].

إذن فابن حزم تَعَصّب لمذهبه، ودافع عنه في وجه خصومه من المالكيّة، وزاد على ذلك بأن ألّف في الرد على خصومه ومناصرة مذهبه، كما يتّضح في أسماء الرسالتين اللتين يذكر هما له الذهبي، وهما: ((ما وقَعَ بين الظاهريّة وأصحاب القياس)) و((الإظهار على مَنْ شَنّع على الظاهريّة))[٥].

---

[١] زكريا إبراهيم، ابن حزم الأندلسي، المفكر الظاهري الموسوعي/٩، ١٠.

[٢] الذهبي، سير أعلام النبلاء جـ١٨/١٨٤.

[٣] المصدر نفسه، جـ١٨/١٩٠.

[٤] ابن بسّام، الذخيرة م١/ق١/١٦٨.

[٥] الذهبي، سير أعلام النبلاء جـ١٨/١٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو أنّ أهمّ ما ميّز ابن حزم هو اعتزازه بشخصيته العلميّة أمام خصومه، فتراه يقول[١]:

لي خلّتان أذاقاني الأسى جُرَعا ... ونغّصا عيشتي واستهلكا جلدي
وفاءُ صِدْقٍ فما فارقتُ ذا مِقةٍ ... فزالَ حُزْني عليه آخر الأبدِ
وعزّةٌ لا يحلُّ الضيمُ ساحتَها ... صَرامةٌ فيهِ بالأموال والولدِ

إنّ أسلوب ابن حَزم في الدفاع عن مذهبه ومناصرته، جعل العديد من المؤرخين يصفه بـ ((الجهل بسياسة العلم التي هي أعرضُ من إيعابه))[٢]، فتمالأ عليه الفقهاء المالكيّة، وأجمعوا على تضليله وشنّعوا عليه، وحذّروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامّهم عن الدنو منه، فطفق الملوك يقصونه عَن قربهم ويسيّرونه عن بلادهم إلى أنْ انتهوا به مُنْقَطع أثره بلدة من بادية لَبْلة[٣]، وهو في ذلك غير مُرْتَدعٍ ولا راجعٍ يَبُث علمه فيمن ينتابه من بادية بلده[٤].

لقد عبّر ابن حزم عن ألمه وحسرته لعزوف النّاس عن علمه وتلقيه منه بل هو يشير أنّه لو كان في المشرق، لوجد من العناية الكثير فيقول[٥]:

أنا الشمسُ في جوّ العلومِ منيرةٌ ... ولكن عَيْبي أن مَطْلعي الغربُ
ولو أنّني من جانب الشّرقِ طالعٌ ... لَجَدَّ على ما ضاع من ذِكريَ النَّهْبُ
ولي نحو أكنافِ العِراقِ صبابَةٌ ... ولا غَرْوَ أنْ يَستوحِش الكَلِفُ الصَبُّ
فإنْ يُنزلِ الرحمنُ رَحْلي بينهم ... فحينئذٍ يبدو التأسّفُ والكَرْبُ
فيا عَجَباً مَنْ غابَ عَنهم تَشوّقوا ... له ودنوُّ المرءِ من دارِهِم ذَنْبُ
وإنّ مكاناً ضاقَ عَنّي لَضَيِّقٌ ... على أنّه فَيْحٌ مذاهبُهُ سَهْبُ
وإنّ رِجالاً ضيّعوني لَضَيّعٌ ... وإنّ زماناً لم أنَلْ خِصْبَهُ جَدْبُ

---

[١] الطاهر أحمد مكي، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة/٣٠٨-٣٠٩.

[١] ابن بسّام، الذخيرة م١/ق١/١٦٩.

[٣] لَبْلة: في غرب الأندلس مدينة قديمة، وتعرف بالحمراء، بينها وبين طليطلة نحو عشرين ميلاً. (الحميري، الروض المعطار/٥٠٧).

[٤] الذهبي، سير أعلام النبلاء جـ١٨/٢٠٠.

[٥] الطاهر مكي، دراسات عن ابن حزم، تحت فصل ما لم يُنشر من شعره/٣٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وابن حَزم يشيد بِعلمِه في نفس القصيدة. هذا العلم الذي تأخر عن شأوه الآخرون، ولم يدركوا مثله، فيقول[١]:

فإنْ شئت في علمِ الديانةِ تَلْقَنـــي ... نقاباً له لم يَحْفَ عَنّي لَهُ نَقْـــبُ
وأمّا أفانين الحديثِ فإنّنـــي ... أنا بحرُها الطامي وينبوعها السَكْبُ
وقيّدْتُ من فُتْيا ذوي الفقهِ ضابطـاً ... يحفظيَ ما طالتْ به قبلها الحُقْـــبُ
وإنْ لاذ طـلاّب الكـلامِ بجانبـــي ... فإنّيَ ساقِيْهم وكلُّهُمْ سَـــــرْبُ
وإنْ تذكرِ الأشعارَ لم يـكُ خارجـاً ... أمامي جريرٌ فـي الرهان ولا كعبْ
وأمّا تسائلْ باللغاتِ ونحوهـــــا ... فما صَارمي فيها إذا عُدّدَتْ ينبـــو

لَقَد شَعَر ابنُ حزم بمرارة الظّلْم، إذ دعا الفقهاء لتجنب مذهبه، وتجنب طلب العلم منه، لذا رأيناه يفخر بعلمه، ويركزُ على الاعتزاز بنفسه في وجه من ظلمه، وهو يُظْهرُ نغمة من التحدّي أمام مَن أحْرقَ كُتبه[٢]، تعصباً ضد مذهبه، فإنْ كانت الكتب أحرقت فإن مذهبه وعلمه محفوظ في صدره فيقول[٣]:

دَعوني من إحْراقِ رقٍّ وكاغـــدٍ ... وقولوا بعلمٍ كي يرى النّاسُ مَن يدري
فإنْ تحرقوا القرطاسَ لا تحرقوا الذي ... تضمّنَه القرطاس، بل هو في صـدري
يسيرُ معي حَيْثُ استقَلّتْ ركائبـــي ... وينزلُ إنْ أنزلْ ويُدْفَنُ في قبـــري

وهو يردُّ على من شَمِتَ به من حسّاده، ويطعّم هذا الردّ باعتزاز جميل ومعبّر بنفسه فيقول[٤]:

لا يَشمَتَنْ حاسدي إذ نكبَةٌ عَرَضَتْ ... فَالدَّهْرُ لَيْسَ على حالٍ بُمتَّـــركِ
ذو الفَضْلِ كالتِّبر يُلْقَى تحت مَتْربـةٍ ... طَوْرَاً، وطوراً يُرى تاجاً على مَلِـكِ

---

[١] الطاهر مكي، دراسات عن ابن حزم/٣٣٤.

[٢] أحرقها المعتضد بن عبّاد بإشبيلية. المقري، نفح الطيب جـ١/٨٢.

[٣] المقري، نفح الطيب جـ١/٨٢.

[٤] المصدر نفسه جـ١/٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد تمكّن المَذْهَبُ الظّاهريُّ من نَفْسِ ابن حَزْم، وغَدَا نزوعاً أصيلاً في فكره ووجدانه، فبرزتْ مبادئه، وأصوله في مختلفِ مناحي نشاطِهِ الفكريّ والأدبي، ويتّبدّى هذا النزوع حتّى عند حديثه عن الحب وفي شعره الغزلي، حيث يقول[١]:

وَذِي عَذَلٍ فيمَنْ سَبَانِيَ حُسْنُـــهُ ... يُطِيلُ مَلامي في الهَوَى ويَقُـــولُ
أمن حُسْنِ وَجْهٍ لاحَ لم تَرَ غيـــرَه ... ولم تَدرِ كيفَ الجِسْمُ، أنتَ قتيـــلُ؟
فَقُلْتُ له: أسْرَفتَ في اللَّومِ فَاتَّئِـدْ ... فَعِندِيَ رَدٌّ لو تشاء طويـــــلُ
ألم تَرَ أنّي ظاهِرِيٌّ وأنّنِـــــي ... على ما بَدَا حَتّى يقوم دليـــــلُ

وهو يُصَرّح بأنه لا يعتمدُ إلاّ على البُرْهان والحجة القويّة في استدلاله، وهذا التصريح يأتي في قصيدة يشكو فيها الهجران فيقول[٢]:

لم أَشْكُ صَدّاً ولـم أُذْعَر بهجـــران ... ولا شَعَرْتُ مَدَى دَهْري بسلـــوان
فالآن أعْدَمني أضواهمـا قَـــدَرٌ ... تجري بأحكامِهِ فينا الجديـــدان
لكنّني قائلٌ قولاً لا يحقّقُـــــهُ ... كُلُّ البريّةِ عن نورٍ وبُرْهـــــانِ

وهو يدعو صرَاحة في أبيات أخرى إلى تجنّب القياس، والالتزام بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية، وهذا أساس المذهب الظاهري، وابن حزم برفضه للقياس يعلن النّقد لفقهاء المالكية، فيقول[٣]:

أُشْهِدُ اللـهَ والملائكَ أنّـــــي ... لا أرَى الرَّأيَ والمقـاييسَ دينـــا
حَاشَ للّهِ أنْ أقولَ سوَى مـــــا ... جاءَ في النّصّ والهُدَى مُسْتبينا
كَيْفَ يخفى على البَصَائر هَـــذَا ... وهو كالشمسِ شُهْرَةً ويقينـــــا

ويكشف ابن حزم عن حرصه في نشر مذهبه، إذ يتمنّى أنْ يَنْشُرَ دعوته إلى التمسك بالقرآن والسنّة، بدلاً من تناسيها، فيقول[٤]:

---

[١] الذهبي، سير أعلام النبلاء جـ١٨/٢٠٧ وانظر الذخيرة م١/ق١/١٧٥.
[٢] الطاهر مكي، دراسات عن ابن حزم ص/٣٣٧-٣٣٨.
[٣] الذهبي، سير أعلام النبلاء جـ١٨/٢٠٥-٢٠٦.
[٤] الحميدي، جذوة المقتبس جـ٢/٤٩٢، الذهبي، سير أعلام النبلاء جـ١٨/٢٠٦، وانظر دراسات عن ابن حزم ٣٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مُنَايَ مِن الدُّنيا علومٌ أبثُّهَـــــا ... وأنْشرُها فـي كُلّ بـادٍ وحاضِـــرِ
دُعاءٌ إلى القُرآن والسّـنَنِ التـــي ... تناسَى رِجالٌ ذِكْرَها فـي المَحَـاضِرِ
وألـزمُ أطـرافَ الثّغورِ مُجَاهِـــداً ... إذا هَيْعَـةٌ ثـارتْ فـأوّلُ نَافِـــرِ
لأُلْقَى حِمَامي مُقْبلاً غيرَ مُدْبِـــرِ ... بسُمْرِ العَوالي والرّقاق والبواتِـــرِ

ويصوّر ابن حزم أصحاب المذهب المالكي بالنيام، إذ هم غافلون عن الأخذ بالسنة النبوية الشريفة، معتاضون عنها بالقياس والرأي[1]:

أنَائمٌ أنْتَ عَن كُتْـبِ الحديث وَمَـــا ... أتى عن المصطفى فيهـا من الدّيــنِ
لمسـلمَ والبخـاريِّ اللّذيـن همـــــا ... شَدّا عُرَى الدينِ فـي نَقْلٍ وتبييـــنِ
هيهات رأيُ امرىءٍ من وَحْي خالقنـا ... قياسُ هذا بـذا رأي المجانيـــــنِ
يا مَنْ هَدَى بهما اجعلني كمثلهمـــا ... في نصْرِ دينكَ مَحضاً غيرَ مفتـــونِ

ويُفْصح ابنُ حزم عن طبيعة هذا الجدال المذهبي، فقد عابوا على ابن حزم تجرّأه على أصحاب المذهب المالكي، وهو بطبيعة الحال يردُّ عليهم ببيان المنهج الذي يسير عليه في رفضه الأخذ بالرأي، والدعوة للتمسك بالنصوص القرآنية والأحاديث، واستقاء الأحكام منها، حيث يقول[2]:

قالوا تحفَّظْ فـإنّ النّاسَ قد كَثُـــرتْ ... أقوالُهُمْ وأقوالُ العِدَا مِحَـــــنْ
فقلتُ هل عيبُهم لـي غير أنّـــيَ لا ... أقولُ بـالرأي إذ فـي رأيهـم فتـــنْ
وأنّني مُولَعٌ بالنّصّ لَسْتُ إلـــــى ... سواهُ أنْحُو ولا فـي نَصْرِهِ أهَـــنْ
لا أنثني نحو آراءٍ يُقَـالُ بهـــــا ... في الدّينِ بل حسبيَ القرآنُ والسُّنَنْ
يا بُرْدَ ذا القَوْلِ في قلبي وفي كبـدي ... ويا سُروري به لـو أنّهُمْ فَطِنُـــوا
دعهم يَعُضُّوا على صُمّ الحصَى كمداً ... من ماتَ مِن قولـهِ عنـدي لـه كِفـــنْ
إنّـى لأعْجَبُ من شأني وشأنِهِـــمْ ... واحَسْرَتَا إنّنى بالنّاسِ مُمْتَحَـــنْ

ويشير في القصيدة نفسها إلى ما كان يجري بين العلماء من ذكر له وتحريض عليه، لاعتناقه المذهب الظاهري[3]:

---

[1] الذهبي، سير أعلام النبلاء جـ١٨/٢٠٩، وانظر الطاهر مكي، دراسات عن ابن حزم ص/٣٣٩.
[2] الطاهر مكي، دراسات عن ابن حزم/٣٣٩.
[3] المرجع السابق/٣٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما لهم شُغْلٌ عَنّي فَيَشْغَلُهم ... أوْ كلُّهم بِيَ مَشْغولٌ ومُرتهنُ
كأنّ ذكريَ تسبيحٌ بهِ أُمروا ... فليْسَ يغفلُ عنّي منهمُ لَسَنُ
لو بِيْعَ ذكري على ما قد تكاثر من ... طلاّبه لم يكنْ يُدْرَى له ثَمَنُ

ويخلص الباحث من الأبيات السابقة أنّ موجة من العصبية المذهبيّة قد اجتاحتْ الأندلس وقت ظهور المذهب الظاهري على يد ابن حزم، إذ دعا فيه إلى التمسّك بالقرآن والسنة، والابتعاد عن الأخذ بالقياس لدخول الرأي والهوى فيه -حسب رأي ابن حزم- هذا الأمر أوغر صدور الفقهاء المالكية ضد ابن حزم، فنُفي وقوطعت دروسه، ونُهيَ الناس عن حضور مجلسه، حتى أحرقت كتبه في إشبيلية، هذه الأمور مجتمعة دَعَتْ ابن حزم للتمسك بمذهبه والمدافعة عنه ضد خصومه، إلى درجة تصل إلى حَدّ التعصّب. بل هو يتهّم هؤلاء الفقهاء بالجهل والتعصب الأعمى لضلالهم وجهلهم، وهو يكشفُ عن زيفهم، كما في قوله[1]:

مَنْ عَذيري مِن أُناسٍ جَهِلوا ... ثُمّ ظَنّوا أنّهم أهْلُ النّظَرْ
رَكِبُوا الرأيَ عِناداً فَسَروا ... في ظلامٍ تاهَ فيه مَنْ عَبَرْ
وطريقُ الرُّشْدِ نَهجٌ مُهْيَعٌ ... مثلما أبْصَرْتُ في الأُفْقِ القَمَرْ
وهُوَ الإجماعُ والنّصُّ الذي ... لَيْسَ إلا في كتابٍ أو أثَرْ

العصبيّة الإقليميّة ((الجغرافيّة)):

أحَسَّ الأندلسيون إحساساً عميقاً بالانتماء إلى وطنهم وبلدهم، وارتبطت مشاعرهم وأفكارهم بأندلسهم، وزاد هذا الإحساس بالانتماء للأندلس، أنّ بلدهم كان عُرْضَةً للطعن بعلمه وحضارته من المشارقة أو من أهل العُدوة، لذا فقد صَار القاريء لِشِعرهم يلمح التعلّق بالوطن، وحميّة الدفاع عنه، وعَقْد المقارنات بينه وبين سائر البلدان ليظهروا من خلال شِعرهم تميّز وطنهم عن تلك البلدان، وليس من شك أنّ عاطفة الانتماء للوطن الأندلسيّ كانت هي المسيطرة على

---

[1] الطاهر مكي، دراسات عن ابن حزم /٣٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأشعار التي عبّرت عن حبّهم وولائهم وشوقهم لوطنهم، كما في قول ابن خفاجة متشوقاً إلى وطنِهِ[١]:

أجَبْتُ وقد نَادى الغَرامُ فأسْمَعَا ... عَشيّةَ غَنّاني الحمامُ فرَجَّعَا
فَقُلْتُ وَليْ دَمْعٌ تَرَقْرَقَ فأنْهَمَى ... يسيلُ وصَبْرٌ قَدْ وَهَى فتضعْضَعَا
ألا هل إلى أرضِ الجزيرةِ أوْبَةٌ ... فأسْكنَ أنفاساً وأهْدأ مَضْجَعَا
وأغْدوا بواديها وقد نضَحَ النَّدى ... مَعَاطِفَ هاتيكَ الرُبى ثُمّ أقْشَعَا
أُقَلّبُ طَرْفي فى السماءِ لعلّني ... أشيمُ سَنَا بَرْقٍ هُناكَ تطلّعَا

إنّ ابنَ خفاجة قد أحسَّ إحساساً قوياً بالشوقِ إلى الأندلس، ممّا دَفَعَهُ إلى التخيّل أنّه يغدو ويركضُ فى أوديتها وبساتينها. وتبدو ملامح الألم والحسرة واضحة عنده لابتعاده عن وطنه، وهو يعبّر عن شوقه العميق للأندلس في أبيات أخرى[٢]:

فيا لَشَجَا صَدْرٍ من الصَّبر فَارِغٍ ... ويا لقَذَى طَرْفٍ من الدَّمْعِ مَلآنِ
ونَفْسٍ إلى جَوِّ الكنيسة صَبَّةٍ ... وقلبٍ إلى أُفْقِ الجزيرةِ حَنَّانِ
ميادينُ أوطاري ومَعْهَدُ لَذَّتي ... ومَنْشأ تهيامي ومَلْعَبُ غزلانـي

ويعبّر القاضي أبو عبدالله محمد بن أبي عيسى (ت ٣٣٩هـ) عن الآلام والصعوبات التى ألمّتْ به لبعده عن الأندلس، والقاضي قال هذه الأبيات بَعْدَ رحلته إلى المشرق طلباً للعلمْ، وهو يَذْكر صَراحة أنّ أزمان قرطبة خير من أزمان في المشرق، فيقول[٣]:

مَاذا أُكابدُ مِنْ وُرْقٍ مُغَرّدَةٍ ... على قَضيبٍ بذاتِ الجزعِ مَيّاسِ
رَدَّدْنَ شَجَا قلْبي الخليِّ فَهَل ... فى عَبْرَةٍ ذَرَفَتْ في الحبِّ مِنْ باسِ
ذَكَّرْنَهُ الزمنَ الماضي بقرطبةٍ ... بَيْنَ الأحبّةِ في أمنٍ وإينَاسِ
هُمُ الصَّبابَةُ لولا هِمّةٌ شَرَفَتْ ... فصيَّرتْ قلبَهُ كالجندلِ القاسـي

---

[١] ابن خفاجة، ديوانه/١٢٨.
[٢] المصدر نفسه/٣٤٥.
[٣] المقرّي، نفح الطيب جـ٢/١٢-١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وابن الفرضي (ت ٤٠٣هـ) يُعلنُ تمسّكه بوطنه في رحلته إلى المشرق لطلب العِلْم، ويؤكد أنّ هذه الغربة قد زادتْهُ وَجْداً وشوقاً لوطنه.

ويبدو أنّ ذكْرَ الأندلس والاشتياق لها عند الرّاحلين إلى المشرق، قد صار سُنّةً ينتهجها أهل العلم، للتأكيد على أنّ أواصرَ الترابط بينهم وبين أندلسهم ما زالت قويّة، وأنّهم لن يتخلّوا عنها على الرّغم مما وجدوا في المشرق من عِلْم وأدب، يقول ابن الفرضي[1]:

ولم يُسْلِني طولُ التّنائي عليكُمُ ... بَلْ زادني وجْداً وجَدّدَ لي ذِكرى
يمثّلكم طولُ التّنائي عليكُمُ ... ويدنيكُمْ حتّى أُناجيكُمُ سِرّا
سأستعتبُ الدّهرَ المفرّقَ بيننا ... وهل نافعي أنْ صرْتُ أستَعْتِبُ الدّهرا

وابنُ الفرضي في أبيات أخرى يُعْلِنُ بصراحة شديدة أنّ الأندلس موطِنُهُ وأنّه متمسّكٌ به، ويبدو أنّ ابنَ الفرضي يخْرج في أبياته عن حَدّ الشّوقِ لوطنه إلى حدّ التعصّب لكل ما هو أندلسيّ، وهو يتمنّى أنْ يعودَ إلى وطنه ولو لليلةٍ واحدة يقضيها مع أهلِهِ وعشيرتِهِ.

إنّ أبياتَ ابن الفرضيّ الآتية تُشْعِرُ القارىء أنّ أهْلَ الأندلس قد وجَدوا بعض الصعوبات في غربتهم والمعايرة لهم والتعصّب ضِدّهم، ممّا دفعهم لإعلان التمسّك بوطنهم بصورة قوية ومعبّرة، يقول ابن الفرضيّ[2]:

أُحِبُّ بلادَ الغربِ والغَرْبُ مَوطني ... ألا كُلُّ غربيٍّ إليَّ حبيبُ
فيا جَسَداً أضْناهُ شوقٌ كأنّهُ ... إذا انْتضيَتْ عنه الثيابُ قَضيبُ
فَما الدّاءُ إلاّ أنْ تكونَ بغُربةٍ ... وحسبُك داءً أنْ يُقالَ غَريبُ
فيا ليتَ شِعري هَل أبيتَنّ ليلةً ... بأكنافِ نهرِ الثلجِ حينَ يَصوبُ
وَحَولي أصحابي وبِنْتي وأُمُّها ... ومعشرُ أهلي والرؤوفُ مجيبُ

---

[1] المقرّي، نفح الطيب جـ٢/١٣١.

[2] لسان الدين الخطيب، الإحاطة جـ٣/٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يصوّر لنا جعفر بن أبي عليّ القالى ما يلاقيه الأندلسيّ من سوء معاملة في المشرق، إذ هو غريبٌ عن القومِ شاذٌ عنهم، يُسمّى هناك بـ ((الغريب))، كُلُّ هذا جَعَلَ الأندلسيين يعبّرون عن حُبّهم واشتياقهم العميق لوطنهم، إلى درجة تصلُ إلى حدّ التعصّب له، يقول أبو عليّ القالي[١]:

حَنَنْتُ إلى بَغْدادَ حَيْثُ تمكّنَتْ ... أصولي فلمّا أنْ حَلَلْتُ ببغدادِ
رأيتُ ديارا يبعثُ الهمَّ لحظُها ... وقَوماً يَسُومونَ الغريبَ بأحقادِ
فَوَلّيْتُ عَنْهُمْ عائداً غيرَ عاطِفٍ ... وإنْ كان فيما بينهم نَشْءُ أجْدادي
وَجُزْتُ على مِصْرٍ فَغَمّضْتُ مُقْلَتي ... وقُلْتُ بعنفٍ مغربَ الشمسِ يا حادي

ويعبّر الكاتب أبو بكر محمد بن القاسم، وهو من الذين ارتحلوا إلى المشرق عند الفتنة بقرطبة[٢] عَن ألم الفراق الذي أصابه في رحلته إلى المشرق، والحقيقة أنّ ألم الإحساس بالغربة يبدو واضحاً عند ابن القاسم، إذ يُظهرُ اشتياقاً شديداً إلى وطنه، ويفضّلُ المقام فيه على المقام بحلب، فيقول[٣]:

أيْنَ أقْصَى الغَرْبِ من أرضِ حَلَبْ ... أمَلٌ في الغربِ مَوْصولُ التَّعَبْ
حَنَّ مِن شَوقٍ إلى أوطانِهِ ... مَنْ جَفَاهُ صَبْرُهُ لمّا اغْتَرَبْ
جَالَ في الأرضِ لجاجاً حائراً ... بَيْنَ شَوقٍ وعَنَاءٍ ونَصَبْ
كُلُّ مَنْ يلقاهُ لا يَعْرِفُهُ ... مستغيثاً بَيْنَ عُجْمٍ وعَرَبْ
لَهْفَ نفسي أينَ هاتيكَ العُلا ... وا ضياعاهُ ويا غَبْنَ الحَسَبْ

ويشير ابن القاسم في أبياته إلى ما قد يلاقيه المغترب عن وطنه من هَمّ وحزن، بل ونفور الآخرين عنه، لذا فهو يدعو أهله وأصحابه للتمسّك بوطنهم على الرّغم مما يدور فيه من الفتن والحروب، فيقول[٤]:

---

[١] ابن سعيد، المغرب جـ١/٢٠٤.
[٢] المصدر نفسه، جـ٢/٣١.
[٣] المقرّي، نفح الطيب جـ٢/٩٥.
[٤] المصدر نفسه جـ٢/٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يـا أحبّـائي اسـمَعُوا بَعْـضَ الـذي ... يتلقّـاهُ الطريـذ المُغْتـرِبْ
وليكُـنْ زجْـراً عَـنْ غُرْبَـةٍ ... يرجـعُ الـرّأسُ لديهـا كالـذَّنَبْ
واحملوا طَعْناً وضَرْباً دائمـاً ... فَهْوَ عِندي بَيْنَ قومي كالضَّـرَبْ

لقد أثّر الإحساس بألم الغربة في نفس ابن القاسم، الأمر الذي جعله يتعصّب لموطنه ويحنُّ إليه، لذا فهو يشبّه المشرق بجهنّم عند خروجه منه، ومدينة دانية الأندلسيّة بالجنّة، وهذا التشبيه يوحي لنا بمقدار العنت الذي لاقاه ابن القاسم في غربته، فيقول[1]:

وكـم لقيْتُ قَبْلَ مُجْـاهِدٍ ... وكم أبْصَرَتْ عيني وكم سَمِعَتْ أُذُني
ولاقيْتُ من دَهْرِي وصَرْفِ خطوبِهِ ... كما جَرّتِ النكباءُ في معطف الغُصُنِ
فلا تسألوني عن فِرَاقِ جهنّمٍ ... ولكن سلوني عن دخولي إلى عَدْنِ

إنّ هذا الإحساس بالانتماء للأندلس والتوجّه الدائم لها قد جعل الشعراء الأندلسيين يتغنون بجمال بلادهم وروعته، الأمر الذي يوحي لنا بأمرين: الأول: حرْص الشعراء على تمييز الأندلس أمام البلدان الأخرى وبيان فضلها، والثاني: التعلّق الشديد بالوطن، وبخاصة عند الشعراء الذين ذاقوا طعم الغربة ومرارتها ومنهم ابن خفاجة، حيث يقول[2]:

إنّ للجَنّـةِ بالأندلـسِ ... حُسْنَ عَيْنٍ وريّا نَفَـسِ
فَسَنَا صُبْحَتِهَا مِن شَنَـبٍ ... ودُجَى ليلتِهَا مِن لَعَـسِ
فإذا ما هَبّتِ الريحُ صَبَـا ... صِحْتُ واشوقي إلى الأندلسِ

ويتحدث ابن زيدون عن هواء بلنسية، فيجعله دواءً لكلّ سقيم، وهو يرى في أبياته أنّ من دَخَلَ بلنسية لا بُدّ أن يعشقها، وهذا لا شك من قبيل مدح المكان والتعلق به، فيقول[3]:

رَاحَتْ فَصَحَّ بها السَّقِيـمْ ... ريحٌ مُعَطّرَةُ النَّسِيـمْ
مقبولـةٌ هَبّـتْ قَبُـولاً فهي تعبقُ في الشَّمِيـمْ

---

[1] المقري، نفح الطيب جـ٢/٩٦.

[2] ابن خفاجة، ديوانه/١٣٦، المقّري، نفح الطيب جـ٤/٢٠.

[3] ابن زيدون، ديوانه/١٨٥-١٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أفضيضُ مِسْـــــــكٍ أم بلنسيةٌ لرّياها نميـــــــمْ
بلدٌ حبيبٌ أُفُقُـــــــــه لفتىً يجلُّ به كَريـــــــمْ

وهذا التعلق بالمدينة الأندلسية جَعَل ابن شُهيدٍ يبكي بكاءً حارّاً لما حَلَّ بقرطبة من دَمار وتخريب أيام الفتنة، حيث يقول[1]:

فَدَعِ الزَّمَانَ يصوغُ في عَرَصَاتِهِـــم نُوراً تكادُ لـــه القلوب تُنَـــــوَّرُ
فَلِمِثْلِ قُرطبةَ يقِلُّ بكـــــاءُ مَـــــن يبكي بعَيْنٍ دَمْعُهَـــا مُتَفَجِّـــــرُ

ويبدو أنّ الفخر بالمدن الأندلسية والحنوّ لها، قد جاء رَدّاً على بعض أدباء المشرقِ والمغرب، ممّن قَلّلوا من شأنِ الأندلسِ علميّاً وفكريّاً وحضاريّاً كما في قول أحدهم يهجو مدنية رُنْدَة[2]، ويشيرُ إلى كرهِ البقاء فيها فيقول[3]:

قُبْحاً لِرَنْـدَةَ مِثْلَمَـــــا قَبُحَتْ مُطَالَعَةُ الذُّنُـــوبْ
بلدٌ عليهِ وَحْشَـــــــةٌ ما إنْ يفارقُهُ القُطُـــوبْ
مـا حَلَّها أحَدٌ فيَـــــذْ ـوِي بَعْدَ بَيْـنٍ أنْ يـؤوبْ
لم آتِها عندَ الضُّحَـــــى إلاّ وخُيِّلَ لي غُـــروبْ
أُفقٌ أعَمُّ وساحَـــــــةٌ تملا القلوبَ من الكروبْ

لذا كان الأندلسيّون حريصين على إبداء محاسن وطنهم ومدح مدنهم باستجلاب التشبيهات التي تنمّ عن جمال المُدُنِ وحُسْنِها كما في الأبيات[4]:

ذَكَرْتُكِ يا حمصُ ذِكْرَى هـوىً أمـات الحسودَ وتعنيتَـــــــهْ
كأنّكِ والشمسُ عندَ الغـــروبِ عروسٌ من الحُسْنِ مَنْحُوتَـــــهْ
غَدا النهرُ عِقدَكِ والطّودُ تَـــــا جُكِ والشمسُ أعلاهُ ياقوتَـــــهْ

---

[1] ابن شهيد، ديوانه/١٠٩.

[2] من مدن تاكرنا بالأندلس وهي مدينة قديمة لها آثارٌ كثيرة (الحميري، الروض المعطار/٢٦٩).

[3] المقّري، نفح الطيب جـ٤/١٣٢-١٣٣.

[4] المقّري، نفح الطيب جـ٣/٢٦٦. والأبيات للأديب أبي الحسن بن حصن الإشبيليّ، كان في إشبيليّة في أيام أبي القاسم محمد بن عبّاد، انظر الحميدي جذوة المقتبس جـ٢/٤٩٨، تحقيق إبراهيم الأبياري.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويُبْدي ابنُ حَزمٍ شيئاً من العصبيّـة عِنْدَ ذِكْرِ تَعَلُّقِهِ بـالأندلسِ واستغنائه بالسكنةِ فيهـا عـن أقطارِ الأرض فيقول[١]:

ويا جَوْهَرَ الصينِ سُحْقاً فَقَـــــد غَنِيتُ بياقوتَةِ الأَنْدلـــــــــسِ

إنّ العصبيّة الإقليميّة قد دَفَعَتِ شعراء الأندلس للافتخار بوطنهـم ومدنهـم، بـل والزهـوّ بقـوة دولتهم في عصور ازدهارها أمـام قـوّة المشـرق أو ضعفـه عندمـا يكـون ضعيفـاً. فذهـب بَعْض الشعراء إلى دعوة الخلفاء والقادة للسيطرة على بلاد المشرق، وضمّها إلى بلاد الأندلس صاحبـة العزّ والقوة، كما في قولِ ابن درّاج القسطلي يمدح المنصور بن أبي عامر[٢]:

مُتَذَلِّلٌ لكَ عِزُّ كُلِّ مُمَنَّـــــــعٍ مُتَسَهِّلٌ لكَ صعبُ كُلِّ مـــــرامِ
حَتّـى تبـوّأَ بالمشـارقِ طاعـــــةٌ مأمولةٌ مـن مُغْرِقٍ وشآمـــــي
وتَرِدَ نائي المُلْكِ في أوطانِـــــهِ من عَهْدِ كُـلِّ مُتَـوِّجٍ فَمُقَـــــامِ
وتحِلَّ بالحَرَمَيْنِ منكَ كتائـــــبٌ مأمونةُ الإحلالِ والإحْـــــــرَامِ

ومن هذا المعنى قَوْل محمد بن شُخَيْصٍ[٣] في مَدْح الحكم المستنصر[٤]:

وقَد صَفَا لَـك مُلْكُ الغربِ أجْمَعُـهُ ودانَ مُنْـتَزِحٌ فيـه ومقتَـــــربُ
فما تَوَقُّفُ جُنْدِ النَّصْرِ عن جهـــةٍ ضَيَّمْتَ بها مِصْرٌ واجْتُثَّتْ بها حَلَبُ

إنّ الغيرةَ والعصبيّة للأندلس قد أثارها أهل المشرق والعُدوة عندمـا راحـوا يشككون بقدرة علماء الأندلس في الوصول إلـى مـا وصـل إليـه المشـارقة مـن علـمٍ ورقـيّ، الأمرُ الـذي ألهـب مشاعر الأدباء والشعراء، فدافعوا عن وطنهم وأظهـروا التعلـق بـه بصـورة قويـة ومعبرة، بـل راحوا في بعض الأحيان يعرّضون بالمشرق وعلمه، فالرماديّ الشاعر الأندلسي، يمدح أبا علـي

---

[١] رسائل ابن حزم جـ١/١٨٢.

[٢] ابن درّاج، ديوانه/٤٢٥.

[٣] قال عند الحميدي مات قبل الأربعمائة (ابن سعيد، المغرب جـ١/٢٠٨).

[٤] ابن حيان المقتبس (تحقيق عبدالرحمن الحجي/١٦٢).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القالي عند دخوله الأندلس سنة ٣٣٠هـ. وتقوده العصبيّة إلى تصوير المشرق خالياً من العلم والأدب بخروج أبي علي عنه، وتصوير الأندلسِ وقد عمّها نور العلم، فيقول[1]:

فَالشَّرْقُ خالٍ بَعْدَهُ فكأنّمـــــا ... نَزَلَ الخَرابُ بربْعِهِ المأهولِ
جَمَعُوا بغيبتِهِ وموتِ شيوخِـــهِ ... عَنْهُم ولمّا يَظْفَروا ببديـــــلِ
مُذ جاءَهم وهمُ بليلِ همومِهِـــمْ ... منه، فَصَاروا في دُجى موصولِ
فكأنَّهُ شَمْسٌ بَدَتْ في غَرْبنَـــا ... وتَغَرَّبَتْ فى شَرْقِهِم بأفـــولِ

[1] الرمادي، ديوانه/١١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

أثر العصبيّة في:

الموشّحات، الأزجال، الأمثال الأندلسيّة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أثر العصبيّة في الموشّحات، الأزجال، الأمثال

العصبية في الموشّحات:

لم يكن الموشّح الأندلسي ناقلاً لصورة العصبيّة التي شهدتها الأندلس، على الرّغم من كونهِ فناً أندلسياً خالصاً، نشأ وازدهر فيها.

ولعلّ السبب في ذلك يكمن بأنّ اختراع الموشح قد جاء في فترة زمنية متأخرة، في أواخر القرنِ الثالث الهجري، إذ كانت العصبيّات العربيّة من مضريّة ويمنيّة قد انتهت بالإضافة إلى العصبيّات التي كانت بين العرب والمولّدين.

وسبب آخر يضاف إلى السابق، أنّ الموشح -كما أشار عددمن الباحثين- قد نشأ لحاجة الغناء الأندلسي. وكان لابُدَّ من مسايرة هذه الموجة بإيجاد مادة صالحة للغناء، رقيقة بألفاظها متنوعة وسهلة بأوزانها، فكانت البواكير الأولى للموشحات الأندلسية.

لذا فأغلبُ الظنّ أنّ هذه الموشحات كانت تنظم لغرض التّلحين، وتصاغ على نهجٍ معين لتتسق مع النغم المنشود[١]. وارتبط الغناء في أصوله بموضوع الغزل، لذا فإن معظم الموشحات التي أُلّفت، ونظمت كان موضوعها الغزل[٢]. حتى أنّ الموشحات التي ساقها الشعراء للمديح، فقد مزجوا مديحها بالغزل، فابنُ اللبّانة يمدح صاحبَ دولة بني عبّاد، ويلحّ على ذكر المآثر العربيّة، والافتخار بها، مع التغنّي بالنسب العربي للمدح، ومع كلّ هذا يُصرّ الشاعر على الابتداء بالغزل، بل يجعل أكثر الموشحة غزلاً في قولهِ[٣]:

---

[١] عمر الدّقاق، ملامح الشعر الأندلسي ص/٣٢٨.

[٢] محمد عنان، الموشحات الأندلسية ص/١٢.

[٣] ديوان الموشحات جـ١/٢٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كم ذا يؤرّقنـــي ذو حَـــــــدَقِ
مَرْضَى صحـاحِ لا يُلينَ بـــالأرقِ

١

قَدْ باحَ دمعي بما أكْتُمُـــهُ
وحَنَّ قلبي لِمَنْ يظلمُهُ
رَشاً تمرَّنَ في "لا" فَمْهُ
كم بالمُنَى أبداً الثُمُهُ
يَفْتَرُّ عَنْ لؤلؤٍ مُتَّسِقِ
من للأقاحِ بنسيمِهِ العَبِقِ

٢

هَلْ من سبيلٍ لرَشْفِ القُبَلِ
هيهاتَ من نيلِ ذاكَ الأمَلِ
كم دونَه من سيوفِ المُقَلِ
سُلّتْ بلحظٍ وقاحٍ خجِلِ
أبدى لَنَا حمرةً في يَقَقِ
خَدُّ الصبَاحِ فيه حُمْرَةُ الشَّفَقِ

٣

مَنْ لي بمدحِ بني عَبّادِ
ومن محمّدهم إحمادِي
تِلْكَ الهبَاتُ بلا ميعادِ
عَذَرْتُ من أجلِها حُسّادِي
حكتْني الوُرْقُ بينَ الوَرَقِ
راشوا جناحي ثم طوّقوا عنقي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤

للهِ مَلْكٌ عليهِ أعتمَدا

من يَعْرُبٍ وهو أسْنَاهم بَدَا

وهم إذا عَنَّ وفْدٌ وَفَدَا

إنْ حوربوا في نَسَقِ

راحوا براحٍ، للنَّدى وللعَلَقِ

٥

طابَ الزَمَانُ لنا واعتدَلا

في دولةٍ أورثَتنا جذَلا

رَدَّتْ علينا الصبَا والغزلا

فَقُلْتُ حينَ حبيبي رحَلا

أهدِ السلام لِصبٍّ قَلِقِ

مع الرِّياحِ، بالأنامِ لا تثقِ

مما يؤكد على أنّ موضوعَ الغزلِ كانَ الأكثر ظهوراً في الموشحات الأندلسيّة. إنّ ابن اللبّانة قد سار على ما كان انتهجه بعض الشعراء في عصر الطوائف، من تمجيد الأنساب والافتخار بها، وتمييز صاحبها بالمجد وتأهّله لتولّي الحكم لعلوّ نسبه.

أمّا ابن بقيّ[١] الوشّاح الأندلسيّ فقد أظهر ألماً وحسرةً على كسادِ الأدب إذ لم يتفهّم هذا الأدب من في عصره لكثرة الأعاجم هناك، فيقول[٢]:

---

[١] يحيى بن عبد الرحمن بن بُقي الأندلسي، أبو بكر، شاعر ووشّاح مبدع من قرطبة، توفي سنة ٥٤٠هـ. (المقري، نفح الطيب: جـ٤/٢٣٧-٢٤٠، ابن خاكان، قلائد العقيان م٤٠٣/٩١٩، ابن سعيد، المغرب: جـ٢/١٩).

[٢] ابن سعيد، المغرب جـ٢/٢٠، ابن بسّام، الذخيرة م٢/ق٢/٢٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى اللهِ أشْكوها نوىً أجنبيّـــــــــةً ... لها مِنْ أبيها الدّهرِ شيمةُ ظالمِ
إذا جاشَ صدرُ الأرضِ بي كنت منجداً ... وإنْ لمْ يَجِشْ بى كنتُ بينَ البَهائمِ
أكُلُّ بني الآدابِ مثلـــــيَ ضائـــــع ... فأجعلَ ظُلمي أُسوةً في المظالمِ
ستبكى قوافى الشّعرِ مـــلْءَ جفونِهـــا ... على عربيٍّ ضاعَ بين الأعاجـــمِ

لذا فهو يلحُّ على ذكر النسب العربيّ لممدوحِهِ والإشادة بهذا النسب في بعض موشّحاته كما في قوله[1]:

يا غُرّةً غرّتني بها القَدَرُ
الشّمسُ في مائها أم القَمَرُ
وشُّحتْ تِلكَ الخُصُورُ بالحَدَقِ
وصِرْنَ منها يَرْمِيْنَ بالأَرَقِ
تِلكَ الأجْفَانِ، ما تَسْتَثني
غيرَ الإنسان، ولا تثني
بالهَوزَنيّينَ سادةِ الأمَمِ
أثْبَتَّ في ساحةِ العُلَى قدَمي
هم نجومُ الجوزاءِ والحَمَلِ
جَلّوا فما يُضْرَبونَ بالمَثَلِ
بنو قحطانْ، ماءُ المُزْنِ
قلْ في غَسّانْ، ولا تَكْنِي

كما ظهرت آثار العصبيّة الإقليميّة في بعض الموشّحات التي تعبّر عن مفهوم التنافس بين المشرق والأندلس، إذ لم يقتصر هذا الصراع على العلم والآداب بل تعدّاه إلى السياسة في مدح القُضاة والأمراء والحكّام، كما في قول ابن بقيّ[2]:

---

[1] ديوان الموشحات جـ١/٤٦٩،

[2] المصدر نفسه جـ١/٤٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أدعوهُ بالقاضـــي وأملـــى يَقْضـــي عليـهِ لـي
أنـــا بـــه راضٍ لأنّـــهُ يرضـــي لأميـــلِ
قُلْ غيرَ معتـــاضٍ بِمَن علـى الأرضِ منـه قُـــلِ
أما تَرى أحمـــدْ في مَجْـده العالـي لا يُلْحَـــقْ
أطلَعه الغَـــربُ فأرِنـــا مِثْلَـــه يا مَشْـرقْ

أمّا بنو عبّاد في الأندلس فهم متفوقون على بني العبّاس في المشرق، يقول ابن اللبّانة[1]:

ألا دَعنـــي من الصدّ والهجرِ
وخُذْ عنّـى حَديثين في الفَخْرِ
وقُـلْ إنّـــي أُحَدّثُ عَنْ بَحْـرِ
سطا وجـادْ رَشيدُ بني عبّـادْ فأنسى النّاس رشيدَ بني العبّاسْ

وعند الحديث عن الموشّحات يلفت نظر الباحث تعصّب أدباء الأندلس لهذا الفن الأدبيّ باعتباره أندلسيّاً خالصاً، فقد أبدعه الأندلسيّون ونَضَج في بيئتهم وعبّر عنها بما سادَها من لَهوٍ وحبٍّ للطبيعة، ولعلّ العصبيّة لهذا الفنّ قد نشأت في الوقت الذي أتّهم فيه الأندلسيّون بالتقصير في أدبهم، واقتصارهم على تقليد أدباء المَشْرق والنسج على منوالهم، وتتضح هذه العصبيّة في قول ابن بسّام عن فنّ الموشحات[2]: ((وكانت صَنْعَةُ التّوشيحِ التي نهج أهلُ الأندلسِ طَريقَتها، وَوَضَعوا حَقيقتها، غير مَرْقومَة البرود ولا منظومةِ العقود، فأقامَ عبادة هذا منآدها، وقوّم ميلها وسنادَها، فكأنّها لم تُسْمَع بالأندلسِ إلاّ منه ولا أُخِذَتْ إلاّ عَنْهُ)).

وما يهمّنا من النّصّ السابق قول ابن بسّام ((نَهَج أهل الأندلس طريقَتَها، ووضعوا حَقيقتها))، إذ يظهر فيه حماسُ ابنُ بسّام في نسبة هذا الفن لأدباء الأندلس.

ويؤكد ابن سناء المُلْك فكرة التّعصّب باعتبار الموشّح فنّاً أندلسيّاً خالصاً بقوله: ((ممّا تَرَك الأوّل للآخِر، وسَبَقَ بها المتأخر المتقدّم، وأجلبَ بها أهلُ المغرب على أهلِ المشرق ... صارَ

---

[1] ديوان الموشحات جـ١/٢٠٩.
[2] ابن بسّام، الذخيرة م١/ق١/٤٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المغربُ بها مَشْرِقاً لشروقِها بأفقِه وإشراقِها في جَوّه وغادَرَ بها الشعراء من متَردّم، ملحةُ الدّهر وبابلُ السحر وعنبر الشَّحْرِ، وعود الهند ... وتبرُ الغرب، ومعيار الأفهام وميزان الأذهان، ولبابُ الألباب))[١].

العصبيّة في الأزجال:

ارتبط الزّجل منذ بداياته ببيئة الشبّان المرحين، فاكتَسَبَ الزّجل مرحاً وخِفّةً، واتّسَمَ بالهزل، بل جُعِلَ الهزلُ لقباً له[٢].

ويؤكد الدكتور الأهواني ذلك بنصّ ينقله عن مخطوط كتاب ((جميع نواميس الكنيسة والقانون المقدّس))، إذ جاء فيه: ((لا يجوز للقلارقيين -أي رجال الكنيسة- أن يحضروا المَلاهي والزّجل في العرائس والمشارب، بل يجبُ عليهم الانقلاب قبل دخول تلك الأطراب))[٣].

فالزّجل كما يُفْهَمُ من النّصّ السابق ارتبط بالأعراس ومجالس اللهو والشراب، بل إنّ في اسم الزّجل الذي اختاره الأندلسيون ما يدلُّ على أنّهُ نَشأ للتغنى به في الطرقات والأسواق والمحافل، وظَلّ ذلك شأنهم على توالي الزّمن[٤].

ومما لا شكّ فيه أنّ بيئة كتلك التي نشأ فيها الزّجل لا يُناسبها التّغنّي بالعصبيّات والتباهي بها، أضِفْ إلى ذلك أنّ من انتشر بينهم الزّجل فئة تَسْعَى للهو والمرح والتغزل بالنّساء، لا للتباهي بالعصبيّات.

---

[١] ابن سناء الملك، دار الطراز/٢٩. ابن سناء الملك في عصر الموحدين، ومع ذلك فقد أثبتُ برأيه للتأكيد عن معنى العصبيّة للموشّح، والتي واكبتْ الحديث عن الموشّح منذ نشوئه وفي عصور ازدهاره.

[٢] عبدالعزيز الأهواني، الزّجل في الأندلس/١٥٨.

[٣] المصدر نفسه/٥٩.

[٤] شوقي ضيف، عصر الدول والامارات، ص/١٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يؤكد الباحثون في تاريخ معرفة الزّجل الأندلسي، أنّه عُرف في أواخر القرن الرابع الهجري في الوقت الذي أخذ فيه التوشيح يتجه إلى التكلّف ويبتعد عن البساطة[١]، مما يعلّل لنا خُلو الزّجل من العصبيات وذكر الفِتن التي اشتعلت نارها في القرون الأولى من قيام الدولة الأندلسيّة.

فلم يعد مجال لاتخاذ الزّجل منبراً للمنافحة عن الأنساب، والتغنّي بالأمجاد، ولعلّ ما ورد في زَجلِ ابن قزمان من مَدْح الأنساب العربيّة، يُعَدُّ امتداداً لما تَميّز به أدباءُ الأندلس في مدائحهم من الإشادة بنسب الممدوح، فيقول مادِحاً[٢]:

يا قُرَشِي، يا أشْرَفِ نَسَبْ
مَنْ يقُل إنُّ شَك كَذَبْ
وكَفُ وأنتْ وَجْهَ العَرَبْ
وعَيْنَ الإسلام إذا نَظَر
صَارَتْ ضياعَكْ للنّاسِ ضيَاعْ
لَسْ مَتَاعَك عنْدَك متاعْ

وهو مع مدحه لنسب الممدوح، يشير إلى أنّ الإسلام، أولى أن يُرَاعى بيننا، وابن قزمان في مدائحه يركّز على ذكر شجاعة الممدوح بغض النظر عن أصله ونسبه.

لقد أبدى الأندلسيّون عصبيّة إقليمية في إصرارهم على نسبة وضع الزّجل وازدهاره لأدباء الأندلس، والدفاع عن هذه النسبة، لإظهار التفوق الأدبي والفنّي عندهم مقابل التفوق المشرقي.

---

[١] عبدالعزيز الأهواني، الزّجل في الأندلس، ص: ٥٢.

[٢] ديوان ابن قزمان/٨٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأمثال الأندلسيّة:

إنّ أهم ما عُرِفَ عن المثل العربي، هو أنّه مرتبط بقصة واقعية، حدثت في زمن معين، ويعكس بعض الجوانب الاجتماعيّة التي تتراءى للباحث.

ولعلّ من المُسَلّمِ به أنّ الأمثال قد تكوّنُ مصدراً لايستهان به في دراسة المجتمع، شأنها في ذلك شأن فنون القَوْل جمعياً -بل قد تكوّن الأمثال- كوثيقة اجتماعيّة أقرب إلى الصدق وأدنى إلى الأصالة من غيرها في تمثيل روح المجتمع وتصوير طبيعته العامة، لأنها نابعةٌ من الشعب ومعبّرة عن آرائه وتجاربه واتجاهاته[١].

ولعل من أبرز الظواهر الاجتماعيّة التي قد تظهر للباحث في الأمثال هي العلاقة التي كانت تحكم أفراد المجتمع الأندلسيّ فيما بينهم، وبخاصّة أنّ هذا المزيج البشري في الأندلس، قد انعكست آثاره على مجالات الأدب كافّة، فكان من البدهيّ أنْ يمدّنا المثل الأندلسي بجملة من الصور التي تمثل الحياة الاجتماعيّة الأندلسيّة. فالمثل نابعٌ من هذه الفئات وهو ممثّل لأفكارهم وعقائدهم وعصبيّاتهم وعلاقاتهم.

إنّ ما يبرهنُ على صدق ما صوّره المثل الأندلسي عن مجتمعه، أنّ الباحث قد وجَدَ صَدَىً لهذه الأمثال في نماذج أدبيّة أخرى. فالمثل الذي يعبّر عن استياء العرب مِنْ تولّي اليهود جَمْعَ الجزية في قولهم: ((عَرَب البطَاحْ يَغْرَمُ الجزيَ لليهود))، ظَهَر معناهُ في قول الشاعر[٢]:

كُنّا نُطالِبُ لليهودِ بجِـــــــزيةٍ ... وأرى اليهودَ بِجِزْيَـــــةٍ طلبونـــا

---

[١] أبو يحيى الزجّالي، أمثال العوام في الأندلس ق١/٢٠٤.

[٢] السلغي، أخبار وتراجم أندلسيّة/٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالأمثال هي صورةٌ صادقة للإحساس الشعبي، وانعكاس حقيقي للمدى الذي وصلتْ إليه العصبيّة هنا.

ولا يستطيع الباحث أنْ يرد المثل إلى عصرٍ بعينه، فمن المعروف أنّ نسبة الأمثال العاميّة إلى قائليها أو مرسليها أمرٌ لا سبيل إليه، فهي ولبد شعبي مجهول النسب[١]. لذا فإنّ الباحث سيكتفي بالحديث عن هذه الأمثال دون أن نلمحَ في نسبتها إلى زمن ولادتها، فهذا الأمر جدّ صعب، وبخاصة للأمثال الشعبيّة كهذه.

مال اليهود في الأندلس إلى العيشِ في مجتمعات تَخص أبناء جنسهم، يقيمون فيها شعائرهم الدينيّة، ويندمجون في المجتمع الإسلامي دون مضايقة. واليهود مالوا للاحتماء بالدولة العربيّة، للخلاص من الظلم الذي وقع عليهم قَبْلَ فَتْحِ البلاد.

ومع ذلك فقد رَسَم العربيّ صورة لليهود على حقيقتها تتمثل بالإنسان الغادر الانتهازي، الذي يحاول أن يستغفل الآخرينَ للقضاء عليهم، وتتجلى ملامح هذه الصورة في المثل[٢]: ((كُلْ مَع يهودي، وارقُدْ مع نَصرَاني)).

إنّ استخدام الأساليب الأمريّة في المثل، تُنَبِّهُ القارىء إلى حرص العرب من اليهود. ولا شكّ أنّ ما حَصَلَ في دولة باديس من اليهود ومحاولة القضاء عليها ليؤكد للدارس صدق الرؤية الشعبية الأندلسية لليهود.

أمّا الصورة الأُخرى التي برزت لليهود في المثل الأندلسي، فهي صورة الإنسان ذي القدرة على إدارة الأمور والأعمال التجارية، وتحصيل الضرائب كما في المثل[٣]: ((حاجَ بقطاع يَهودي يقضيها)).

---

[١] أبو يحيى الزجالي، أمثال العوام في الأندلس ق١٤٨/١.

[٢] المصدر نفسه ق٣٧٥/٢.

[٣] المصدر نفسه ق١٨٢/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وارتبط اسم اليهودِ بالتجارة وأمورها، والدرايةِ بها كما في المثل[١]: ((إذا رَيْتَ اليهودي يـذمُّ السِّلعَ، ادْرِ أنّه يشتريه)).

إلى أنْ وَصَلَ الأمر بهم، بأن أصبحوا يتولون جمع الضرائب والجزية من مسلمي الأندلس، وصور لنا المثل ((عَرَبُ البطاحْ، يَغْرَمُ الجزي لليهود))[٢] مما ألهبَ العصبيّة ضدّ هؤلاء اليهود، الساعين بغدرهم إلى ذلّ الإسلام والغدر بأهله، ولاشكّ أنّ هذا المثل يعكس لنـا صـورة المجتمـع الأندلسي، قبلَ الثورة التي ثارها على اليهود بغرناطة. فهو مجتمع عبّر عن كرهه لليهـود الذيـن سعوا لإزالة الدولة والاستيلاء على مناصبها شيئاً فشيئاً.

وتَنَاثَرتْ في كتب الأمثال والتاريخ، أمثالٌ رسمت لنا الإطار الاجتماعي لطبيعة العلاقة بيـن الأجناس الأندلسية، فالصقالبة جنس جُلفٌ في معاملتـه مـع الآخريـن إنْ تحكّم بـالأمور كمـا فـي قولهم[٣]: ((أجفى من خَصِيّ))، وتعبّر بعض الأمثـال عـن السـخرية والاسـتهزاء بـالصقلب لمـا عُرف عنهم بوجوب إخصائهم رمزاً للخدمة كما فى المثل[٤]: ((القَطَم فَارض الصقالبة)).

أمّا المولدون، فقد كان النّاس يترقبون سماع اندحار ابـن حفصـون وصـحبـه مـن النصـارى بشغف، بعدما عظم أمره واستطال. وسَعَى لإذلال العرب وتحقيرهم فليـس مـن الغريـب أنْ يجدّ الناس في تداول الأمثال التي كانت تشير إلى انهزام لبن حفصون.

فالمثل ((غَرَّرْتني يا إسحاق)) انتشر بين النّاس بعدما قُبِضَ على اثنين مـن أصحـاب ابـن حفصـون سنة ٢٨٧هـ وصلبا، وذلك أنّ أحدهما قد قال هذه الكلمة لصاحبة وهو يُرفع على الخَشَبَة[٥].

---

[١] أبو يحيى الزجالي، أمثال العوام فى الأندلس ق٢/١١.

[٢] المصدر نفسه ق٢/٣٨٧.

[٣] المصدر نفسه ق٢/٢١٥،

[٤] المصدر نفسه ق٢/١١٩.

[٥] ابن عذاري، البيان المغرب جـ٢/١٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمّا الأعاجم، فهم بعيدون كَلّ البُعْدِ عن الأصالة العربيّة والفخار، إذ يصوّر الأندلسيون الأعاجم يركبون الحمير، سخرية بهم، في الوقت الذي امتطى العرب الخيول الأصيلة كما في المثل[1]: ((ذُكرتْ الخُيُول، ذَكَرَ أبو جِيلٍ حمارْ)) وأبو جيل من أسماء الأعاجم في الأندلس.

إنّ دراسة الحياة الاجتماعية كما تظهُر صورتها في الأمثال، لهي دراسة لواقع دقيق، إذ إن هذه الأمثال قد نبعت من إحساس شعبي، تجاه قضايا معينة. ولعلّ من أبرز هذه القضايا هي العلاقة بين الأجناس البشرية في الأندلس، ومدى العصبيّة التي وجدت طريقها بينهم. ويتضح من الأمثال السابقة بعض الملامح للخيوط الاجتماعية التى ربَطت أهل الأندلس.

---

[1] أبو يحيى الزجالي، أمثال العوام في الأندلس ق٢/٢١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

أثر العصبيّة في النّثر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أثر العصبيّة في النثر الأندلسي

لم يكن العصر الأول في الأندلس -كما يصفه الدّارسون- عَصْرَ عِلْم، وإنّما كان عَصْرَ غزوٍ وصراعٍ ومنازعات سياسيّة بين العصبيّات.

والظروف لم تَكُنْ تَسْمَحُ بوجود فن نثري متطور، يمثّل الشخصيّة الأندلسيّة بصورتها الحقيقيّة، بل كان النثر يقتفي أثر قرينه في المَشْرِق وينسجُ على منواله ويسيرُ على نهجه ويجري في مضماره[١]، وزادوا عليه في تلك الأوقات بما اقتضته حياتهم الخاصة[٢].

واكب النثر الأندلسي السياسة هناك، ولِدَ في ساحاتها ونشأ في أحضانها، وتحت رعاية الولاة والأمراء خطا أولى خطواته وأرسى أولى قواعده، فلا عَجَب حينئذ أنْ يرتبط تطور قسم هام منه بتطور مرافق الدولة وأنْ يساير نموّ الحاجات[٣].

ومع بدء الاستقرار السياسي في الأندلس في القرن الثالث والرابع الهجريّان، بدأت الكتابة النثرية بالتطور والنموّ، حتّى تأخذ طابعاً أندلسيّاً مميّزاً لها من حيث الموضوعات، إذ عَرَضَتْ لشتى الموضوعات وتنوعت مضامينها، تبعاً لتطور مظاهر الحياة المختلفة وملابساتها[٤].

إذن فالنثر الأندلسي -كما هو الشعر- صورة طبيعية لما ينعكس عن المجتمع الأندلسي اجتماعياً وسياسياً وثقافياً ودينيّاً، فعبّر هذا النثر بصورة صادقة عن أنواع العصبيّات التي نشأت وتطورت في الأندلس.

---

[١] مصطفى الشكعة، صور من الأدب الأندلسي/٥٦٩.

[١] عبدالعزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس/٤٣٧.

[٣] علي بن محمد، النثر الأدبي في الأندلس في القرن الخامس، جـ١/١٧٢.

[٤] علي لغزيوي، أدب السياسة والحرب في الأندلس/٤٠٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَوُجِدَ من ذلك، النثر المعبّر عن الصراع بين الإسلام والنصارى، الذي اتّخذَ من الجهاد والاستنفار للحرب موضوعاً له[١].

إنّ أبرز ما يميّز نثر العصبيّة أنّه نتاج جاء في قمة النضوج الأدبي للأندلس، ولا سيّما في عصر الطوائف، فكان خير ممثل للتطور الشكلي للأدب، وصورة معبّرة عن العصبيّة الأندلسيّة.

استطاع الأدباء الأندلسيون بما لهم من حرية الكلمة أن يجولوا برسائلهم في كُلّ مجال وأنْ يعالجوا من الموضوعات كُلّ قريب وبعيد وأن يطبلوا ما شاءوا، وأن ينهج كُلّ كاتب منهم في صناعته النّهج الذي يرتضيه ويلبّي ميوله[٢].

ولعلّ أكثر ما يبيّن لنا صورة هذه الحريّة، رسالة ابن غرسيّة، الذي اتّخذ رسالته منبراً للطعن في مفاخر العرب.

إذن، فالنثر الأندلسي اتّسعت مجالاته اتّساعاً لم يسبق له نظير، وامتدت أغراضه لتشمل كُلّ مناحي التعبير، حتى لم يكد شيء للشعر ينفرد به أو يتميّز دونه[٣].

وسيحاول -الباحث- في الفصل القادم، أنْ يقف على بعض ما أنتجه النثر الأندلسي للتّمثيل على العصبيّات التي عَصفت بذلك المجتمع، لنقف معها على صورة صادقة تمثل المنهج الفكري للأندلسيين.

العصبيّة العرقيّة:

امتاز القرن الخامس الهجري في الأندلس بنضوج فن النثر الذي عبَّر عن جوانب من الحياة الأندلسيّة الفكرية والدينيّة والسياسيّة، وغيرها. بالاضافة إلى ذلك فقد شهدت الأندلس في هذا

---

[١] شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات / الأندلس/٤٤٧.

[٢] عبدالعزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس/٤٤٩.

[٣] علي بن محمد، النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس جـ١/٢٠٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القرن إنقساماً إلى دويلات وطوائف ممّا أوجد مُدناً ضَعُفَ الوجود العربيّ فيها، الأمر الذي أتاح للحاقدين على العرب أن يعبّروا بحرية كاملة عن عصبيّتهم العرقيّة. ولعلّ أبرز ما يمثل تلك العصبيّة هو رسالة ابن غرسيّة، والردود التي توالت عليها.

كانَ ابنُ غرسيّة أقوى صوتٍ شعوبي في شبه الجزيرة، فقد أثارت رسالته المشهورة حفيظة عدد من الكتاب للرد عليه وعلى طعونه في العرب، واسم ابن غرسيّة هو أبو عامر أحمد بن غرسيه، يصفه ابن سعيد بأنه كان من عجائب دَهْرِه، وغرائب عَصْرِه، وإنْ كان نصابه في العجميّة، فقد شَهِدتْ له رسالته المشهورة بالتمكن من أعنة العربيّة، وهو من أبناء نصارى البشكنس[١].

استقّر ابن غرسيّة في كنف مجاهد العامري[٢] ومن بعده عِنْدَ ابنه إقبال الدولة علي بن مجاهد[٣]، بَعْدَ أنْ سُبيَ صغيراً، وتربّى في حَضرة دانية[٤].

ويبدو أنّ ابنَ غرسيّة قد وجدَ عند مجاهد العامري المكانة العالية والحرية، التي جَعَلتْه يُصَرّحُ بشعوبيته ضدّ العرب، نثراً برسالته المشهورة، وشعراً كما في قوله الذي يؤكد فيه صلته بالرّوم[٥]:

---

[١] ابن سعيد، المغرب جـ٢/٤٠٦.

[٢] هو أبو الجيش مجاهد بن عبدالله العامري، مولى عبدالرحمن بن المنصور بن أبي عامر، استولى على دانية وما يليها بعد الفتنة وتوفي في سنة ٤٣٦هـ. (لسان الدين الخطيب، أعمال الأعلام/١٨، الضبي، بغية الملتمس جـ٢/٦٣٢-٦٣٣).

[٣] علي بن مجاهد العامري، صاحب دانيه بعد أبيه، توفي أبوه سنة ٤٣٦هـ، حذا حذو أبيه في الإقبال على العلماء إلاّ أنّه كان ذلك تطبّعاً لا طبعاً، وكانت همته في التجارة، جرى بينه وبين جاره وصهره ابن هود ما يطول شرحه، حتى استولى على بلاد دانية، ثم حاصروه؛ على أن يسلمه في نفسه وولده، فكان ذلك سنة ٤٦٨هـ، ونقله إلى سرقسطة، فكان آخر العهد به، توفي ٤٧٤هـ. (ابن بسّام، الذخيرة م١/ق٣/٧٠٢، لسان الدين الخطيب، أعمال الأعلام/١٩، ابن عذاري، البيان المغرب جـ٣/١٥٧، ابن سعيد، المغرب جـ٢/٤٠١).

[٤] ابن بسّام، الذخيرة م٢/ق٣/٧٠٢، ابن سعيد، المغرب جـ٢/٤٠٦.

[٥] ابن سعيد، المغرب جـ٢/٤٠٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنّ أصلي كما علمتُ ولكـــــــ . نّ لساني أعزُّ من سحبـــــانِ
وأنا من خيرِ الملوكِ بصَـــــدْرٍ هل ترى بالقناةِ صَدْرَ السِّنـــــانِ .

لقد فَتَحَ مجاهدٌ البابَ أمامَ ابنِ غرسيّة للتعبير عن شعوبيته، وأمـام ابـن سيدة العـالم اللغـوي المشهور، المعروف بشعوبيته، إذ يصفه يحيى بن مَسْعَدَة بـ ((شعوبي الجزيرة)) في رسالتهِ التـي ردّ فيها على ابن غرسيّة -كما سيمر معنا- ويقول فيه اليَسَعُ بن حزم ((كان شعوبيّاً يُفَضّل العجم على العرب))[١]، ويبدو أنّ سكوت مجاهدٍ عن هـذه الشـعوبيّة، التـي نمـت بذرتهـا فـي حضرتـه، بسبب أصوله غير العربيّة، يقول عنه المراكشيّ في المُعْجِب: ((كان يملكُ دانية وأعمالها مجـاهد العامريّ، أصله روميّ))[٢]، أمّا ابنه عليّ فقد تربّى تربية بعيدة عـن العربيّـة وأهلهـا، إذ أسَرَتْهُ الروم وهو ابنُ سبع سـنين، فنشـأ عِلْجـاً مُتَجهّمـاً، وأعجمـاً طِمْطمـاً، يتكلّـم بلسـان الـرّوم ويتزيّـا بزِيّهم، فَعَرَض عليه والده الإسلام فقبلـه[٣]. الأمـر الـذي يعلـل ضـعف الإحسـاس بالعربيّـة عنـد مجاهد العامريّ وابنه علي.

كانَ ابنُ غرسيّة يعتنق الإسلام، ومما يؤكد ذلك أنّه لم يهاجم الإسلام في رسالتِهِ، بـل هـاجم العربَ وطعن في عاداتهم في عصور تمتدُّ إلى ما قبلَ الإسلام بقـرون، بعكـس فعـل اليهـود فـى رسائلهم وأشعارهم، إذ تعمّدوا النيلَ من الإسلام وقدسيته كما فعل ابن النغريلة اليهودي.

بـل إنّ ابـن غرسيّة يعلـن تمسكه بـالدّين الحنيـف، وافتخـاره بـالنبي ﷺ وإجلالـه لصحابتـه الأطهار، فيقول: ((ولكنّ الفَخْرَ بابن عمّنا الإبراهيمـي النسـب الإسـماعيلى الحَسَب، انتشلنَا الله تعالى به، وإيّاكم من العماية والغواية ... بهذا النبيّ الأمـيّ أفـاخرُ مَـنْ تفَخّـر، وأكـاثرُ مَـنْ تَقَدّم

---

[١] ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان جـ٤/٢٠٥، الذهبي، سير أعلام النبلاء جـ١٨/١٤٥.

[٢] المراكشي، المعجب جـ٢/٧٧.

[٣] ابن بسّام، الذخيرة م١/ق٤/٢٦٥، لسـان الديـن الخطيـب، أعمـال الأعـلام ٢١٩-٢٢٠، ابـن عـذاري، البيـان المغرب جـ٣/١٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتأخّر، الشريف السلفين، والكريم الطرفين، المُلْتَقَى بالرسالة، والمُنتقى للأداء والدلالة، أصلي عليه عدد الرمل ومدد النّمل، كذلك على واصلِ جناحه ورماحِهِ، أصحابه الكرام، عليهم من الله أفضل السلام))[١].

إذن، فابن غرسيّة مسلم، تمرّس في العربيّة، واشتدّ عوده في فهم أساليبها، فكانت الرسالة قويّة بألفاظها وبنائها اللغوي، الأمر الذي يؤكد نضوج ثقافة ابن غرسيّة الشاملة على الرّغم من أصله الروميّ.

أمّا من وجّه إليه ابنُ غرسيّة رسالته فيبدو أنّه الأديب أبو جعفر بن الخرّاز، معاتباً له لترك مدح مجاهد، واقتصاره على مدائح ابن صمادح التجيبيّ[٢].

ويؤكد ابن سعيد أنّه كانَ بين ابن غرسيّة وجعفر بن الخرّاز الشاعر صحبة أوجبت أن استدعاه من خدمة المعتصم بن صُمادح ملك المريّة، ناقداً عليه ملازمةَ مدحِهِ وتركِهِ مَلِكَ بلاده[٣].

وأمّا ما أثبت في صدر الرّسالة بأنها موجهة إلى الشاعر ابن الحدّاد[٤]، فيرجّح الدكتور عبدالسلام هارون أنّ هذا الخلط وقع من تصرّف أديبٍ أو ناسخ، ومما أسْعَفَ على ذلك قُرب إحدى الكلمتين في الرسم من الأخرى (الخرّاز، الحدّاد)[٥].

---

[١] نوادر المخطوطات جـ١/٢٧٨.

[٢] هو المعتصم بالله أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح التجيبي، ملك المريّة، ولي بعد أبيه سنة ٤٤٣هـ، لقب نفسه المعتصم بالله، توفي سنة ٤٨٤هـ. (ابن بسّام، الذخيرة م٢/ق١/٧٢٩. ابن خلكان، وفيات الأعيان جـ٥/٤٠-٤١. ابن عذاري، البيان المغرب جـ٤/١٤٤).

[٣] ابن سعيد، المغرب جـ٢/٤٠٧، وورد الخبر في الذخيرة م٢/ق٣/٧٠٤.

[٤] هو شاعر مادح، اسمه محمد بن أحمد بن عثمان القيسي، وأصله وادي آش، ومعظم شعره في بني صمادح توفي سنة ٤٨٠هـ. (ابن سعيد، المُغرب جـ٢/١٤٣، المقري، نفح الطيب جـ٤/٤٩، ابن خلكان، وفيات الأعيان جـ٥/٤١، ابن بسّام، الذخيرة م٢/ق١/٦٩٢).

[٥] نوادر المخطوطات جـ١/٢٦٠ وورد الخلط في نص الأسكوريال كما أشار الدكتور عبدالسلام هارون.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يُضاف إلى ذلك أنّ من تَرْجَمَ لابن الحدّاد لم يُشِر إلى موضوع الرّسالة المشهورة، مع ذكرهم اختصاصَ هذا الأديب ببلاط المعتصم بن صمادح[1]، مما يؤكد أنّ ابنَ الحدّاد لم تُوجّه له تلك الرسالة، وإنّما وُجّهَتْ إلى ابن الخرّاز.

عَبّر ابن غرسيّة عَنْ عصبيّته ضدّ العرب بشيءٍ من التفصيل، مع اعتزازه بأصوله الأعجميّة، بنسيج فكريّ مترابط، وبإطار لغوي متماسك. إذ يَبْدَأ بالتقليل من شأن العرب من آل حَسّان وغَسّان ومَنْ ثمّ الاستهزاء بركوب العرب للناقة، التي تدل على أنّ هذا العربيّ متشرّد، لا يجدُ أسرةً ينضوي تحت جناحها، وبيتاً يسكنه، فراح يجوب الأرضَ تائهاً.

ثمّ يَدْخل ابن غرسيّة لمدحِ عرقه، بأنّهم أكاسرة أصحاب مجد ضارب في العراقة وأصولها مع إشعار القارئ أنّهم بأصولهم غير العربيّة بعيدون عن خسائس الأمور التي شغلت العربَ عن العزّ، كَرَعي الإبل والشاة، أمّا هم حماة للسروح نماة للصروح.

ويُصرّ ابن غرسيّة على إظهار ذلّ العرب، بأنّ هاجر أم العرب، ما هي إلاّ خادمة لـ ((سارة)) ربة الإياة، أمهم. لِذا فإن العرب استحقوا بأن يكونوا حائكين للبرود، وسائسين للفرود.

يرتبط العرب في رسالة ابن غرسيّة بالصحراء والقفر، وجفاء الطبع، بينما يرتبط الأعاجم بالفراديس، إذ هم ((بنو غاب)) رِفاق الطبع مع شجاعة في لِقاء العدو، جرى ذِكرُهم في شرق الأرضِ وغربها.

ويمرّر ابن غرسيّة صوراً تقابل بين سلوك العربيّ في حياته وسلوك الأعاجم، والتي تعكس انكباب العربِ على توافه الأمور وسعيهم بجدٍّ لها، فإذا كانَ العرب مغرمين بالسليل وهو السّنام، فالعجم مغرمون بالشليل وهي ثياب الحرب. يسمعون صيحات النفير لا نَقر الدفوف والخشب.

---

[1] ابن خلكان، وفيات الأعيان جـ٥/٤١، المقري، نفح الطيب جـ٤/٤٩، ابن بسّام، الذخيرة م٢/ق١/٦٩٢، ابن سعيد، المُغرب جـ٢/١٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويذكّر ابن غرسيّة بعادات العرب في حياتهم التي تدلّ على حياة الذلّ والفقر، كحفر الأكر للماء ورعي الجمال، ولباسهم الرذيل، وأكل الحنظل المرّ النابت في الصحراء. والأحناش والأفاعي، ليختم هذا الكلام باكتمال الفكرة في ذهن القارىء، بقوله ((مَعْشَرَ البداة)).

ويربط ابن غرسيّة حديثه عن الأنساب بالدلائل التاريخيّة، فالفرس برأيه أذلوا الأمّة العربيّة، إذ فرضوا عليها مكان سكناها عندما ملّك الفُرس العربَ الحيرة. ليؤكد على عزّة النسب الفارسي بعد ذلك بقوله: ((فنحنُ غُرُق، عُرُق في الأنساب الصميمة والأحساب العميمة))، ويقول: ((وقد رسخت في المجدِ أصولنا وفروعنا))، الأمر الذي هيّأهم لسيادة العالم بعقولهم وعلومهم التي برعوا بها، في الوقت الذي كان فيه العربُ يشتغلون بالمحرمات التي تدنس جنسهم وعقائدهم كفعل نائلة وإساف، وأبي غبشان، وأبي رُغال، الذين لم يراعوا حرمة بيت الله.

لَقَد وجَد ابنُ غرسيّةَ المجال أمامه للاستهزاء بالتراث العربيّ والثقافة العربيّةبشِعرها ونَثْرها، دونَ أن يطعن بالإسلام وشخوصه وما جاء به من تعاليم وقيمٍ ومبادىء سامية، بل هو يفاخر بالنبي ﷺ وهم به ازدادوا فخاراً ومجداً إلى مجدهم.

ونقف هنا على بعض الأمثلة التي يفتخر فيها ابن غرسيّة بنسبه ويذمّ العرب ونسبهم وارتباط هذا النسب بالصحراء وجفاوة الطبع والشتات في مشارق الأرض ومغاربها.

((سلامٌ عليكَ ذا الرَّوِيّ المرويّ، الموقوف قريضُه على حلّةِ بَجّانةِ[1] أرش[2] اليمن، بزهيدِ الثّمن، كأنّ ما في الأرضِ إنسانٌ، إلاّ مِن غَسّان[3]، أو مِن آل ذي حَسّان[4]، وإنْ كانَ القومُ أقنوكَ[5]، وعن

---

[1] بجانة: مدينة بالأندلس من أعمال كورة إلبيرة، خربت وقد انتقل أهلها إلى المريّة (معجم البلدان جـ١/٣٣٩).

[2] أرش: الديّة (تاج العروس /أرش).

[3] غَسّان: اسم ماء نزل عليه قوم من الأزد فَنُسبوا إليه (اسان العرب /غسّن)

[4] حَسّان: قبيلة تُعرف بذوي حَسّان من بني مختار من بني هلال من عامر من العدنانية (معجم قبائل العرب جـ١/٢٦٩).

[5] اقْنوك: أعنوك وعلموك (لسان العرب / قنو).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العالمِ أغنَوكَ، على حَسَبِ المذكور، فما هذا الإعمالُ للكُور[١]، وتَركُ الوُكور[٢]، وقَلَّ ما تأخذهُ الشَعرةُ في الرَحيل، إلاّ عن الرَبْعِ المُحيل! ولو أنَّ القَومَ خَلَطوكَ بالآل[٣]، لَما أحوَجَكَ إلى الخبطِ في الآل[٤].

مَهْ مَهْ[٥]، مَنْ أحوَجَكَ إلى رُكوبِ المهمة[٦]؟ وتَقِفْ[٧]، وودِّك لا تَقِفْ على مَن اضطرَّكَ إلى الإيغال، وبَاعَكَ بَيْعَ المسامحِ بك لا المُغَال[٨]، وعَوَّضَك من الأنديةِ، بجوبِ الأودية، ومن المآلف، بقطعِ المتالِف، وحَمَلَكَ على مخالفةِ الحِصَان[٩]، ومحالفةِ الحِصَان، ووكَّلَكَ بمسحِ الأرض، ذاتِ الطُّولِ والعَرض، فإذا يَمَّمتَ تبالَة[١٠]، تتبالَة[١١]، وصِرْتَ ضِغْثاً[١٢] على إبَالة[١٣]، تَتَعَلَّلُ باليمين، ضِنّاً بالعِلْق[١٤] الثمين))[١٥].

ويقارن بين النسب العربيّ الدنيء -برأيه- ونسب الأعاجم الذين ترفّعوا عن سفاسف الأمور.

---

[١] الكُور: رحل الناقة (لسان العرب / كور).

[٢] الوُكور: البيوت، الوَكْرُ: عُشّ الطائر وإن لم يكن فيه، (لسان العرب / وكر).

[٣] آل الرجل: أهلُه.

[٤] الآل: السّراب، قال الأصمعي الآل والسّراب واحدٌ (لسان العرب / أول).

[٥] مه: اسم فعل بمعنى اكْفُفْ (لسان العرب / مه).

[٦] المهمة: المفازة البعيدة والقفر (لسان العرب / مه).

[٧] تَقِفْ: صار حاذِقاً فَطِناً (الوسيط / تقف).

[٨] المُغَال: باع بثمن غالٍ (وسيط غيل).

[٩] الحِصَانُ: حَصُنَ المكانُ حَصَانَةً: كلُّ موضعٍ حصين لا يوصل إلى ما في جَوْفِهِ (لسان العرب / حصن).

[١٠] تَبَالَة: بلدٌ باليمن خصبة، بفتح التاء وتخفيف الباء (لسان العرب /تبل).

[١١] التَتبيبُ: الهلاك، وتتبّوهم تتبيباً أي أهلكوهم، وتبّاً له، على الدعاء (لسان العرب / تبّ).

[١٢] الضِغْثُ: ملء اليد من الحشيش المختلط (لسان العرب / ضغث).

[١٣] الأبَالة: القطعة من الطيرِ والخيلِ والإبل، ومثل يضرب: ضِغثٌ على إبَالة وإبَالة أي زيادة على وِقْر، أورده الجوهري أيضاً أي بليّةٌ على أخْرى كانَتْ قَبْلَها، (لسان العرب / أبل).

[١٤] العِلْق: المال الكريم (لسان العرب)

[١٥] نوادر المخطوطات جـ١/٢٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((أحْسَبُكَ أزْرَيْت، وبهذا الجيلِ البجيلِ ازْدَرَيْت، وما دَرَيت، أنَّهم الصُّهب[١] الشُّهب[٢]، لَيْسُوا بُعرْب، ذوي أينقٍ جُرْب، أساورة[٣]، أكاسِرَة[٤]، مُجُد[٥]، نُجُد[٦]، بُهَم[٧]، لا رُعاةَ شُوِيهاتٍ ولا بَهَم، شُغلوا بالماذيِّ[٨] والمُرَّان[٩]، عَنْ رَعْيِ البُعْرَان وبجلبِ العزِّ عن حَلْبِ المعزِ، جبابرَة، قياصرة، ذوو المغافِر[١٠] والدُّروع، للتنفيسِ عَنْ رَوْعِ المَرُوع، حماةُ السُّروح[١١]، نماةُ الصُّروح، صُقُورة، غَلَبتِ عليهم شُقُورة[١٢]، وشقورةُ الخرصان، لكنَّهم خَطَبةٌ بالخِرْصان[١٣].

ما ضَرَّهم أن شَهِدُوا مِجَـــــاداً أو كافَحُوا يومَ الوغَى الأنـــــدادا

ألاّ يكونَ لونُهم سَـــــــوَادا

أرومةٌ[١٤] رُوميّة، وجُرثومةٌ[١٥] أصفريّة[١٦].

نَمتْهم ذَوو الأحسابِ والمجدِ والعُلَى من الصُّهبِ لا راعُو غضاً[١٧] وأفانِ[١٨]))[١٩]

---

[١] الصُّهبةُ: الشُّقْرةُ في شعرِ الرأس، ويُقالُ أصلُهُ للروم لأنّ الصهوبة فيهم، وهُمْ أعداء العَرَب (لسان العرب / صهب).

[٢] الشُّهبة: البياض الذي غَلَب على السَّواد (لسان العرب / شهب).

[٣] الإسْوار: قائد الفُرْس، وقيل هو الجَبَّد الرَّمي، والجمع أساوِرَة وأساوِر (لسان العرب / سور).

[٤] كِسْرى كَسْرى: اسم ملك الفُرس والجمع أكاسرة وكساسرة (لسان العرب / كسر).

[٥] الماجدُ: الشريف الخَيِّر (الوسيط / مجد).

[٦] نُجُد: جمع نجيد وهو الشجاع الماضي فيما يَعْجَزُ عنه غيْره، وقيل هو الشديد البأس (لسان العرب / نجد).

[٧] بُهَم: مفردها بُهْمَة: الشجاع، وقيل هو الفارس الذي لا يُدْرى من أين يُتى له من شدّة بأسه (لسان العرب/بُهَم).

[٨] الماذيّ: العسل الأبيض، وقيل الماذيّ: السلاح كلّه من الحديد (لسان العرب / مذي).

[٩] المُرّان: الرِّماح الصلبة، واحدتها مُرّانية (لسان العرب / مرن).

[١٠] المِغْفَر: زردٌ يُصنع من الدروع على قَدْرِ الرَّأس يُلبس تحت القَلَنسوة. (لسان العرب / غفر).

[١١] السَّرْحُ: المال السّارح، ولا يُسمّى من المالِ سَرْحاً إلاّ ما يُغْدى به ويُراح. (لسان العرب / سرح).

[١٢] الرجل الأشقر: الذي يعلوُ بياضه حمرةٌ صافية (لسان العرب / شقر).

[١٣] الخِرْصان: مفردها الخِرْص وهو الرُّمح (لسان العرب / خرص).

[١٤] أرومة: الأروم: أصل الشجرة (لسان العرب / أرم).

[١٥] الجرثومة: الأصل، وجرثومة كل شيء أصله.ومجتمعه (لسان العرب / جرثم).

[١٦] أصفريّة: الأصفر هم الرّوم، وقيل ملوك الرّوم (لسان العرب / صفر).

[١٧] الغَضَى: من نبات الرّمل (لسان العرب / غضى).

[١٨] الأفانى: من العشبِ وهي خضراء لها زهْرةٌ حمراء وهي طيبة (لسان العرب / فنى).

[١٩] نوادر المخطوطات جـ١/٢٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويشير ابن غرسيّة إلى ما استحقّه العربيّ -برأيه- من عبوديّة ذلك أنّه عصى سيّده من الأعاجم وهو بذلك يرسم صورتين متناقضتين، الأولى: صورة الخادم والخائن من العرب، والثانية: صورة السيد المسامح من العجم.

((أنتم أرقّاؤنا وعَبَدَتُنَا، وعتقاؤنا، وحَفَدَتُنَا[١]، مَنَنَّا عليكم بالعِتْقِ، وأخْرَجناكم من ربقِ[٢] الرِّق، وألحقناكم بالأحرار، فغمطتم[٣] النّعمة، فصَنَعْناكم صَنْعاً، يُشَارِكُ سَفْعًا[٤]، اضطركم إلى سُكنى الحجاز، وألجاكم إلى ذاتِ المجازِ[٥]))[٦].

وترى ابن غرسيّة يُطنب بمدح قومه، وذكر صفاتهم التي تنمُّ عن ارتفاع شأنهم وعلوّ منزلتهم للتأكيد على ما ذكره سابقاً بأنّ هناك صورتين متناقضتين لا يمكن أن يتشابها، لأنّ قومه:

((يُصِرُ، صُبُر، تَزْدانُ بهم المحافل، والجَحَافل، قيولٌ[٧] على خيول، كأنها فيول، كَوَاكبُ المواكب، نجوم الرُّجوم[٨]، من العَجَم ضَرَاغمة الأجَم[٩]، بنو غاب[١٠]، المُنْتَقَونَ من كُلّ عاب، لم تَلِدْهم صواحبُ الرَّايات[١١]، بل تَبَجَّحَتْ عليهم سارَةُ الجمال رَبَّةُ الإباة، شُمْخ، بُذُخ[١٢]، بَرَرَةٌ

---

[١] الحَفَدَة: الأعوان والخَدمة، مفردها حافد (وسيط / حفد).

[٢] الرِّبْق: بالكسر، حَبْلٌ فيه عِدّة عُرى تُشَدُّ فيه البهم (لسان العرب / ربق).

[٣] الغمط: الاستهانة والاستحقار، وغمط النّعمة: لم يشكرها (لسان العرب / غمط).

[٤] سفعَ وجْهَه: لطمه (لسان العرب / سفع).

[٥] ذو المجاز: موضع بمنى كان فيه سوق في الجاهلية (لسان العرب)

[٦] نوادر المخطوطات جـ١/٢٧٣.

[٧] القَيل: الملك جمعها قُيول (لسان العرب / قيل).

[٨] الرُّجوم: النجوم التي يُرمى بها (لسان العرب / رَجم).

[٩] الأجم: موضع بالشّام قربَ الفراديس، والأجم: الغابة (لسان العرب / أجم).

[١٠] غاب: جمع غابة (لسان العرب / غيب).

[١١] كانت البغايا في الجاهلية يجعلن على بيوتهن رايات ليعرفنّ بها.

[١٢] البَذَخ: الفخر والتطاول (لسان العرب / بذخ).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أقيال، جَرَرَةُ أذيال. بخٍ[١] بخ، أحلَّتهم سيوفهم سِطةَ الأرضين، فما قَنِعُوا بذلكَ ولا رَضين، حتَّى دَوَّخوا المَشارِقَ والمَغارِب، واستوطنوا من المجدِ الذِّروةَ والغَارِب[٢]))[٣].

وتتضح معالم الصورتين بمقارنة يعقدها ابن غرسيّة بين ما يهمُّ العرب وما يهمّ الأعاجم، فالعرب مهتمون بالأمور الدنيئة الشهوانيّة ممّا يخرجهم عن مفهوم الإنسانيّة، ويربطهم بالجهل، ويقدّسُ من الشخصيّة الأعجميّة شجاعتها وحُسْنَ صفاتها.

((شَرِهوا ا برَنَّاتِ السيوف، لا بربَّات الشنوف[٤]، وبركوبِ السُّروج، عن الكلبِ والفَرُّوج[٥]، وبالنَّفير[٦] عن النقير[٧]، وبالجنائب[٨] عن الحبائب[٩]، وبالخَبَ[١٠] عن الخِبِ[١١]، وبالشليل[١٢] عن السليل[١٣]، وبالأمر والذِّمر[١٤]، عن مُعَاقَرةِ الخَمْرِ والزَّمر، وباللِّقيانِ عن العِقْيان[١٥]، وعن قُنيان[١٦] القِيان، طيَّاتُهم[١٧]، خَطِّياتُهم[١٨]، وغَلاَّتُهم، آلاتُهم، وحصونهم حُصنُهم. أقيال، أباؤهم من بينِ الأنام أقتال[١٩]))[٢٠].

---

[١] بخ: كلمة تُقال عند الرّضا والإعجاب بالشيء أو المرح أو الفخر (وسيط / بخ).

[٢] الغارب: وقيل غاربُ كلّ شيء أعلاه (لسان العرب / غرب).

[٣] نوادر المخطوطات جـ١/٢٧٣-٢٧٤.

[٤] الشنوف: الشَّنْف: الذي يُلبَسُ في أعلى الأذن (لسان العرب / شنف).

[٥] الفَرُّوج: الفَتِيُّ من ولدِ الدّجاج (لسان العرب / فرج).

[٦] النفير: النداء للقتال، (لسان العرب / نفر).

[٧] النقير: أصلُ خَشبةٍ يُنْقر فَيُنْتبذُ فيشتدُّ نبيذهُ، أو قد يكون القصد نَقْرُ الدّفوف (لسان العرب / نقر).

[٨] الجنائب: الخيل إذا كان سَلِسَ القياد (لسان العرب / جنب).

[٩] الحبائب: المقصود الحبيبة (وسيط / حبب).

[١٠] الخبُّ: ضَربٌ من العَدْوِ (لسان العرب / خبب).

[١١] الخِبّ: الخداع والغِش (لسان العرب / خبب)

[١٢] الشليل: ما يكون تحتَ الدّرع من ثوب أو غيره (لسان العرب / شلل).

[١٣] السليل: السّنام (لسان العرب / سَلَلَ)

[١٤] الذّمر: ذمّرَ حزبه: حَضَّهم وشَجَّعَهم (لسان العرب / ذمر)

[١٥] العِقْيان: الذّهب (لسان العرب / عقي).

[١٦] قُنيان: المقصود اقتناء.

[١٧] الطيّة: الوطن والمنزل (لسان العرب / طوي)

[١٨] الخطيّ: الرّمح (لسان العرب / خطي)

[١٩] أقتال مفردها قِتْل وهو الخبير بالشيء. (وسيط / قتل).

[٢٠] نوادر المخطوطات جـ١/٢٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويوضح ابن غرسيّة عن صورة العرب الجُهّال -برأيه- فهم لم يبرعوا بما أنتجته عقليّة الرّوم والفُرْس من علوم، ويستنطق بعض النماذج التاريخيّة للتدليل على جهل العرب وعدم مراعاتهم حتّى لحرمة مقدّساتهم، كما فعل أبو غُبْشان وأبو رُغال.

((حُلُم، علم، ذَوو الآراء الفلسفيّة الأرضيّة، والعلوم المنطقيّة الرياضيّة، كحملة الأسترلوميقي[١] والموسيقى والعَلَمة بالأرتماطيقى[٢]، والجومطريقى[٣]، والقَوَمة بالألوطيقى[٤] والبوطيقى[٥]، والنهضةِ بعلومِ الشرائع والطبائع، والمهرة في علومِ الأديان والأبْدَان .... فِعْلُهم لَيْسَ بالسفساف، كفعلِ نائلة وإساف[٦]، أصْغِر بشأنكم، إذ بزقّ خَمْرٍ باعَ الكعبةَ أبو غُبْشَانكم[٧] لاستئصالكم، غُضُّوا الأبصارَ، فهذا الذِّكرُ إلى الفُحشِ أصار))[٨].

ومهما يكن من أمرٍ فإنّ المُطالع لرسالة ابن غرسيّة، يجده لم يأتِ فيها بجديد بالنسبة لأفكار الشعوبيّة في المشرق، ويبدو أنّه استقى من تلك الأفكار أهم المسائل التي تطرّق إليها الشعوبيّون ضدّ العرب، فعلى الرّغم من أنّه لم يكن

---

[١] علم النجوم وفى مفتاح العلوم سمّاه "اصطرنوميا" واصطر، هو النجم، ونوميا، هو العلم، (الخوارزمي، مفاتيح العلوم/٢٣٥).

[٢] الأرتماطيقي: بالتاء، علم العدد (الخوارزمي، مفاتيح العلوم/٢٠٩).

[٣] جومطريا وهي صناعة المساحة (الخوارزمي، مفاتيح العلوم/٢٢٥).

[٤] أنولوطيفى: ومعناه العكس (الخوارزمي، مفاتيح العلوم/١٧١).

[٥] البيوطيقى: الشعر، يتكلّم فيه عن التخييل، (الخوارزمي، مفاتيح العلوم/١٧٨).

[٦] إساف: صنم من أصنام مكة مقروناً بـ "نائلة" وتقولُ الروايات إنّ رجلاً وامرأةً من جُرهم كانا يُعرفان بهذين الاسمين، فَجَرا في الكعبة، فَمُسِخا حجرين ووضعا على الصفا والمروة عبرة للنّاس، عبدتهما قريش فيما بعد بإرشاد عمرو بن لُحيّ (دائرة المعارف الإسلاميّة جـ٢/٧٦).

[٧] يُذكر أنّ أبا غُبْشان من خزاعة واسمه: سليم وكانت له ولاية الكعبة، باع مفاتيح الكعبة من قصى بن كلاب بزقّ خمر، فقيل أخزى من صفقة أبي غبشان، (السيرة النبوية جـ١/١١٠).

[٨] نوادر المخطوطات جـ١/٢٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فارسيّاً ولا علاقة له بعجم المشرق والأكاسرة والسّاسانيين، إلاّ أنّه يفخر بهم ويمجّدهم ويرفع من شأنهم مقابل التقليل من شأن العرب[١]، والرسالة تفصح عن الجرأة المتناهية التي هاجم بها ابن غرسيّة مبدأ السيادة العقليّة والسياسيّة للعرب، وهذا الأمر لا يمكن تفسيره إلاّ بازدياد نفوذ المولّدين وسيطرتهم في منطقة الساحل الشرقيّ للأندلس[٢]، وبما ناله ابن غرسيّة وغيره من حريّة للتعبير عن آرائهم التي أثارت العديد من الكتّاب فانبروا للردّ عليه، ممّا يعني أنّ حرباً أدبيّة قد اشتعلت نارها هناك، وسنحاول في الصفحات الآتية أن نثبت أجزاءً من هذه الردود والتعليق عليها.

الردّ الأوّل: لأبي الطيّب بن منّ الله القرويّ[٣]:

وهو الردّ الوحيد الذي وضّع له صاحبهُ عنواناً إذ يُسَمّيه ((حديقة البلاغة ودوحةُ البَرَاعة، المورقة أفنانُها، المثمرةِ أغْصَانها، بذكرِ المآثر العربيّة، ونشر المفاخر الإسلامية، والردّ على ابن غرسيّة فيما ادّعاهُ للأمَم الأعجميّة))[٤].

يظهر الكاتب من خلال العنوان -عصبيّة عرقيّة فهو سيذكرُ المآثر العربيّة، ودينيّة إذ سينشرُ المفاخر الإسلاميّة، وكأنّ الكاتب بهذه الرسالة يخرج ابن غرسيّة من الإسلام بل ويجعله معادياً له بدليل أنّه لم يُنهِ الرسالة بالسلام كما أنهاها ابنُ مَسْعَدَة

---

[١] عبدالواحد ذنّون طه، الدّسّ الشعوبيّ بالأندلس وموقف العرب في مجابهته، مجلة دراسات أندلسية، عدد٤، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ص١٥-١٦.

[٢] المرجع نفسه/١٨.

[٣] هو الفقيه الأديب أبو الطيب بن منّ الله الهوّاري القيرواني، كان أديباً شاعراً توفي سنة٤٩٣هـ. (ابن بشكوال، الصلة جـ٢/٣٩٢).

[٤] نوادر المخطوطات جـ١/٣٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيقول: ((كَمُل التقييد والحمدُ للهِ كثيراً))[١] وكأنّ أبا الطيب لا يشك بخروج ابن غرسية عن نهج الإسلام وطريقهِ لذا فإنّ رَدْعَه ومُعَاقبته واجبة على أولي الأمر إذ يراه منافقاً يظهر الإيمان ويخفي في نَفْسِه كفراً وحقداً على الإسلام. يقول[٢]: ((لقد أخْلَلْتَ بنَفْسِك، وزلّت قدمُك، وأحللتَ بعقدك، وقد حَلَّ دمُك، ولو صَحّ اعتقادك، لصحّ انتقادك، ولو خلص باطنُكَ لأقْصَرَ باطلكَ ....)).

وبيّن أن ثناءَه ومدحه للنبي ﷺ غطاء يخفي وراءَه حقده وأخطاءه.

((لا كثنائك الذي أسْرَرْتَ فيه حَسْواً في ارتغاء[٣]، ودفعاً في ابتغاء، وكَشَفْتَ فيه صَبَابَكَ، عند صِبَابك وهتكتك أستارك عن ابتسارك[٤]، وظننْتَ أن مَخَالِطَكَ، تُخْفِي مَعَاطِلكَ[٥]، وأنّ مَدْحَك يسترُ قَدْحك، حِيْنَ مَدَحْتَ مَدحاً بَجلِيّاً[٦] وأثنيتَ ثناءً دخَلِيّاً[٧] ، ولم يُمدح مَنْ ذُمَّتْ قبائله، ولم يثبتْ من جُدَّتْ حبائله، أجَعَلْتَ ويلك تِبرهُ في الرَّغام[٨]، بل الرَّغام لأنفك والرُّعام[٩] لوجهك، فأمّا إذ أغفَلَ ولاةُ الأمر تأديبك وتأديبَ الكافّة بك فأخَلُّوا تأنيبك، وتأنيبَ السفهاءِ مثلِك، فَتُبْ إلى الله توبةً تَهديك وتُنْجيك، على أنّك خَلَفٌ من ذلك السَّلف،

---

[١] نوادر المخطوطات جـ١/٣٥٩.

[٢] المصدر نفسه جـ١/٣٥٩.

[٣] يُسِرُّ حَسْواً في ارتغاء: مثل يُضرَب لمن يظهر أمراً ويريد غيره (لسان/حَسَو).

[٤] الابتسار: طلب الحاجة قبل أوانها (لسان/بَسَر).

[٥] العَلَطُ: أثرُ الوسم في جاني العُنق (وسيط/علط).

[٦] البجبل: الأمر المُنكر (وسيط/بجل).

[٧] الدَّخَل: الفسادُ العيب (وسيط/دخل).

[٨] الرُّغام: التراب (وسيط/رغم).

[٩] الرُّعام: مَرَضٌ معدٍ يصيب ذوات الحافر، وهو ينتقل إلى الإنسان فيكون قتّالا له، وقيل:داءٌ يأخذ في الأنف فيسيل المخاط (وسيط/رعم).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رأيك فيه رأي أهْلِك وفرعُك جارٍ على أصلِك، إلاّ أنّ السيفَ قهرك، والدين قسرك، وأخذك حكمُ الدّار وخوفُ البِدَار))[١].

يذكّر أبو الطيّب ابنَ غرسيّة في بداية الرسالة بيد الفضل للعرب على الأعاجم وعليه هو بالذات، إذ هذّبتْ شخصه ولسانه، وفكره وبيانه، وأبو الطيب يثبت بهذا ما عند الأعاجم من غدر ولؤم طبع، إذ هو يَرْسم في بداية رسالته طريقاً واضحاً يتخذه للرد على الأعاجم من جانب، والدفاع عن العرب ورفع مكانتهم وذكر مآثرهم من جانب آخر، فيقول[٢]:

((أيُّها الفَاخِرُ بزعميه، بل الفَاجِرُ برُغْمه، ما هذه البَسَالة، في الفَسَالة[٣]، ما هذه الجَسارة على الخسارة، لقد تجرأت، ومن الملّة تبرّأت، أبالعَرَب تمرّسْت[٤]، وفي مجدها تفرّست، وعلى شَرَفِها تمَطّيت، وعلى سودُدِها تخطّيت ... فأخبرني عنك، أما كانتْ للعرب يَدٌ تشكُرها، أو منّةٌ تذكرها، أما جَبَرت نقيصتَك، أما رَفَعت خسيستَك، أما استنهضتك من وَهْدَتِك[٥]، أما أيقظتك من غفلتِك، ورقّدتك، ألم تُربِّك فيها وليدا، ألم تتّخذْك لها تليدا[٦]، ألم تُعْنَ بتخريجك، وتدريجك، أما أنطقتك بَعْدَ العُجْمة، أما أسلقتك بَعْدَ اللُّكنة، حتّى إذا اشتدّ كاهلك، وعَلِمَ جَاهِلُك، وقويَ ساعدك، ورقِيَ صاعِدُك، كَفَرْتَ نِعْمَتَها لَديْكَ، ونثرت عِصْمَتَها من يَدِك، وأخذت تُطاولها بأرسانِها[٧]، وتقاوِلُها بلسانها، وتُناضلها بسهامها وتُهاظِلُها برهامِها[٨])).

---

[١] نوادر المخطوطات جـ١/٣٥٨-٣٥٩.

[٢] المصدر نفسه جـ١/٣٣٩.

[٣] الفسالة: الضعف وسوء الرأي (وسيط/فسل).

[٤] تمرس بالشيء: احتكّ به (وسيط/مرس).

[٥] الوهدة هي الأرض المنخفضة (وسيط/وهد).

[٦] التليد: ما وُلِدَ عند غيرك ثم اشتريته صغيراً فثبتّ (لسان/تلد).

[٧] الرسن: الحبل (لسان/رسن).

[٨] الرهمة: المَطْرَة الضعيفة الدائمة جمعها رِهَام (وسيط/رهم).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكما هي عادة مَن ردّ على ابن غرسيّة، ينفي أبو الطيّب النسب عن هذا الرّجُل، ويطعن في أصوله ((لَيْس للسّخاءِ بالرّوميّة اسم، ولا للوفاء في العجميّة رسم))[١].

ثم ينتقل أبو الطيب لزَبط العديد من الصفات الخسيسة بهذا النسب، وسأعرض لبعضِ هذه الردود والتي تذم نمط الحياة عند الأعاجم، والحياة الدينيّة والفكريّة عندهم ومن ذلك[٢]:

((الذي يَنْجون[٣] ولا يستنجون، ويتجنّبون ولا يتطيّبون، رُعاة الخنازير، وأكلَةُ السّنانير[٤]، أمّا رجالكم، فَقُلْف[٥] غُلْفَ[٦]، وأمّا نِساؤكم فَقُذرٌ بُظْر[٧]، لا يَعْرفون الخِفاضَ[٨] ولا الختان، ولا يألفون السِّنّان ولا العنان)).

ويقول في التقليل من شأنهم[٩] ((قلوبكم قَوَاء وأفئدتكم هَوَاء، وعقولكم سَوَاء، قد لانَتْ جلودُكم، ونَهَدَتْ نُهودُكم، واحمرّت خدودُكم، تحلِقون اللّحى والشوارب، وتتهادون القبل في المشارب، والعربُ تَذمّ بالدَّعَةِ، وتَهجو بالسَّعَةِ، وتفخر بالجلادة، وتتبجّح بالصّلادة[١٠] فإنْ فاخرتها فبغير الطعام والشراب ولكن بالطِّعان والضِّراب)).

ويصورهم الكاتب بصورة الخاضع للأقوام الأخرى، يُسَاقون كما تساق البهائم:

---

[١] نوادر المخطوطات جـ١/٣٤٠.

[٢] المصدر نفسه جـ١/٣٤١.

[٣] ينجون: الجلوس على الغائط (لسان/نجو).

[٤] السِّنّار: الهرّ (لسان/سنر).

[٥] قُلف: لم يُختَن (وسيط/قَلَف).

[٦] غلف: لم يختن (وسيط/غلف).

[٧] بظر: نتأ في وسط الشفة العليا (وسيط/بظر).

[٨] الخفاض: الختان للمرأة (لسان/خفظ).

[٩] نوادر المخطوطات جـ١/٣٤٢.

[١٠] الصلادة: الصلابة وقسوة القلب (وسيط/صلد).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((واستعبدوا أولادَكم، ثم إنّهم حينَ قَدِروا غَفروا، ووضعوا الإتاوة على جماجم الأعاجم والمرسوم في براجمِ السّلاجم، ولا يشهدون السوق إلا بالأطواق فإنْ دخلتم في الدّين قُطِعَتْ أستاهكم، وإنْ خرجتم منه أُخِذَتْ التي فيها شِفاهُكم، وكنتَ أنت من رزايا تلك السبايا))[١].

وتتضح صورتهم كخدم وعَبَدَة في قولِهِ[٢]: ((ولو كنتَ فَاخَرْتَ العرب بنَصْب الدّواليب[٣]، وعطْفِ الكلاليب[٤]، وغَرْس الأشجار في الأحجار، وعمل العلاة[٥] والسّنْدان[٦] رضينا وسَلَّمْنا)).

ويؤكد الكاتب أنّ حُبّ الخدمة أمرٌ مرتبط بنفس الأعاجم، وكأنها جُبلت وفُطرت على ذاك، استناداً إلى طبيعة العلوم التي تعلموها فيقول[٧]:

((وأمّا الأسترلوميقى الهندسيّة فَعِلْمٌ عَمَلي، مَبْنَيٌ على التقاسم والتّراسيم، وكلّهُ آلاتٌ للحالات، وأدواتٌ للذوات، ومساحاتٌ للساحات، وأمدادٌ للأعداد وفي أفانين القوانين، لَيْسَ فيها مَعْنى من تحصيل دقائق الفصول ولا تفصيلِ حقائقِ المحصولِ، فأهلُها عُمّالٌ مُمتَهَنون، وبأشكالها مُرْتَهَنون، والعربُ بعيدة منَ المهنَةِ، ونَافِرَة منَ الخدمة)).

ويتجاوز أبو الطيّب ذمّ الإنسان الأعجمي وعاداته إلى ذم المكان، ويظهر ذلك في قوله[٨]: ((حَتّى أحجروكم روميّة الدَّفْرَا[٩]، والقسطنطينيّة البَخْرَا[١٠] ونَازلوكم منها على ذراعين، وصَرَعوكم بين المِصْرَاعَيْن)).

---

[١] نوادر المخطوطات جـ١/٣٤٣.

[٢] المصدر نفسه جـ١/٣٤٧.

[٣] الدولاب: الآلة التي تديرها الدّابة ليُسقى بها (وسيط/دولب).

[٤] الكلاّب: المهماز، وهو الحديدة التي على خُفّ الرّائض يهمز بها جَنْبَ الفَرَس (وسيط/كلب).

[٥] العلاة: الصخرة يطبخ فيها الإقط (لسان العرب/علَوَ).

[٦] السّندان: قطعة يضرب عليها الحدّاد الحديد (وسيط/علو).

[٧] نوادر المخطوطات جـ١/٣٥٠.

[٨] المصدر نفسه جـ١/٣٤٢.

[٩] الدَّفِر: النتن خاصة (لسان/دفر).

[١٠] بَخِير الفم: أنتن ريحه (وسيط/بخر).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنّ مَدْحَ الأصول العربية، عمادٌ مهمّ من أعمدة الرسائل في الردّ على الشعوبيّة، وهذا هو الجانب الآخر الذي تمثله رسالة أبي الطيّب، إذ يشيد بهذا النسب وأصوله، ويردُّ على ابن غرسيّة طعوناته في أكثر من مَوْضع ومنه[١].

((ولا بأسَ عَلَيْكَ، فَقَبْلَكَ قَصَرَوا الأمم، وهصروا القِمم، وهُم أبكارُ الزمان، وأفكار الأوان، لهم العربُ العاربة ومنهم عادٌ الغالبة، ذات الأحلام السّدَاد، والأجسام الشداد، وإرمُ ذات العماد، التي لم يُخْلَق مثلها في البلاد، ومنهم لقمان، صاحبُ النّسور[٢] وباني القصور، ومنهم ثمود الذين جابوا الصخر بالواد، ونحتوا البيوت في الأطواد، والعمالقة[٣] أنتم لهم أكّارون[٤] وحَرَبةٌ عكّارون[٥]، والتبابعة، والمرَابعة، وذو القرنين صاحب السدّ[٦]، ولهم الملوك من حِمْيَر والمَقاولُ من كهلان[٧])).

ثمّ هو يربط هذا النسب بما امتاز به العرب عن غيرهم، من فطنة وحنكة، ويقول[٨]:

((هل كانت العَرَب إلاّ كَنْزَ عِزٍّ، وذُخْرَ فخرٍ وذخيرةً ذَخَرها اللهُ في الوقت المحتوم وأسْكَنَها أرْضاً يرغبُ عنها أولو البَطْنَة، ويَرْغَبُ فيها ذوو الفِطْنةِ، حَفِظَ فيها أحْسَابها، وطهّرَ بها أنسَابها، واختارَها ليختارَ مِنها صَفِيَّهُ ... ثمّ اختصّهَا بالأحلام الزكيّة، والأفهام الذكيّة، والأنفسِ

---

[١] نوادر المخطوطات جـ١/٣٤٤.

[٢] لقمان بن عاد بن ملطاط، معمَّر جاهلي، من ملوك حمير، زعم أصحاب الأساطير أنه عاش عمر سبعة نسور مبالغة في طول حياته (الزركلي، الأعلام جـ٥/٢٤٣).

[٣] العمالقة هم من عاد، جبابرة سكنوا الشام في عهد موسى عليه السلام (لسان/عملق).

[٤] أكارون: حرّاثون (وسيط/أكر).

[٥] العكار: الكرار إلى الحرب (لسان العرب/عكر).

[٦] قيل هو الاسكندر، كان بعد المسيح عليه السلام (المسعودي، مروج الذهب جـ١/٧٢).

[٧] كهلان: من ملوك اليمن، كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان (المسعودي، مروج الذهب جـ٢/١٧٩).

[٨] نوادر المخطوطات جـ١/٣٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأبيّة، إنْ جاورتَهم نَصَروك وإنْ حاورتَهم قصَروك، وإنْ فَاضلتَهم فَضَلوك، وإنْ ناضلْتَهم نَضلوك، وإنْ طاولتَهم طالُوك، وإنْ استَنَلْتَهم أنالوك)).

ويردّ أبو الطيّب ما ادّعاه ابنُ غرسيّة للأعاجم من عِلْم، بذكر ما أبدعه العرب من علوم، وما اخترعوه من فنون، ويربط أبو الطيّب فَضْلَ معرفة هذه العلوم بفضل العربِ، فهو يقول عن حساب الشهور[١]:

((وكذلك الدّرجة الأخرى، فالعَرب بها أحقُّ وأحْرَى، وهي مَعْرِفة الشهور والأيام، وحِسابُ الدّهور والأعوام، والأفلاك وأدراكِها، والأبراج وأدراجها والنيرانِ[٢] وتعاورها، والدّراري وتَعاورِها، عَرفوا السماء ومعائشها، والأرضَ وحشائِشَها ووصفوا الطوالعَ والغوارب)).

ويقول عن علم الطبّ وبراعة أهل العربيّة به[٣]: ((وأمّا الطبُّ فَجَمعته العَرَبُ في كلمتين معلومتين، ولفظتين محفوظتين، على رأيها في الاقتصار، ومذهبها في الاختصار، فقال: المعدة بَيْتُ الدّاء والحِميةُ رأسُ الدّواء)).

ويرتبط علم الموسيقى بلغة العرب وعباراتهم الرصينة، فيقول[٤]: ((والموسيقى علمُ اللُّحون فما بالعجمِ إليه حاجة مُجْحِفة، وضرورة مُعَجِّفة، لعجزِ طباعِهم عن الأوزان، وقلّة اتّساعهم في الميدان، لأنّ لغاتِهم قليلة، وقوافيهم كليلة، لا تَسْتَجيب إلاّ بوسائط، ولا تَسْتَقِلُّ إلاّ ببسائط، ليسَ عندهم شِعْرٌ موزون، ولا كَلامٌ مَرْصون، ولغةُ العربِ واسعةُ العِبارات، ناصِعةُ الإشارات، لها الشّعرُ الموزون، والنظمُ المكنون، والكلامُ المنثور، والسجعُ المأثور، والرجزُ المشطور)).

---

[١] نوادر المخطوطات جـ١/٣٥١.

[٢] النيران: الكواكب المضيئة (وسيط/نير).

[٣] نوادر المخطوطات جـ١/٣٥٢.

[٤] المصدر نفسه، جـ١/٣٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويزيدُ أبو الطيّب على ذلك، معرفتهم بالخيول الأصيلة، وتربيتها، وقدرتهم في الفروسيّة. وأبو الطيّب يُخاطب في رسالته كُلَّ العرب قديمهم وحديثهم، صغيرهم وكبيرهم، إمعاناً منه في الردّ، فتراه يقول عن العلوم العربيّة[١]: ((وليست هذه الأمور مما ينفردُ بها أفرادهم، ولا يُخَصُّ بها آحادهم بَلْ ينطقُ بها صغارهم وكبارهم، ويعْرفه نساؤهم، ويهتف به إماؤهم، وأشعارهم بذلك ناطقة، وأخبارُهم عنه صادقة، ما تَلَوا فيه متلوّا، ولا قَرَوا فيه مَقْرُوّا، لكنّها الطباع الصافية، والقرائحُ الكافية والغرائز السليمة)).

ويربط أبو الطيّب في رسالته بَيْن اختيارِ الله نبيَّه ﷺ والأنساب العربيّة، إذ هي مُقَدّمَة على بقيّة الأنساب والأعراق: ((وقيل لك: هذا سَيّدُ ولدِ آدم أوّلهم وآخرهم، خاتمُ الأنبياء، وقائدُ الأغبياء، أشْهَدُ أنّ اللهَ لم يَجْعَل محمداً هاشميّاً إلاّ وهاشمُ خيرُ قريش، ولا قرشيّاً إلاّ وهم خير مُضَر، ولا مُضَريّاً إلاّ وهم خيرُ العرب، ولا عربيّاً إلاّ وهم خيرُ الأمم))[٢]. بل إنّ عَرَاقة أنسابهم، هي التي دفعتهم للإيمان بهذا النبيّ العربيّ أوّل دَعْوته لهم، ((ولمّا دُعُوا دَخَلوا في الدّين أفْواجاً وأتَوه أزواجا))[٣].

الرّدّ الثاني: رَدُّ الأديب أبي جعفر بن الدودين البلنسيّ[٤]:

أكثرُ الردود منهجية وتنظيماً، يبدأهُ أبو جعفر بنقض دعامة أساسيّة لرسالة ابن غرسيّة وهي أن هذا الأعجميّ من أخسّ الناس وأوفرهم نصيباً في الجهل، وأبعدهم عن الكمال الفكري، يقرنه عند حديثه عنه بالذباب والرعاع ومن ذلك قوله[٥]:

---

[١] نوادر المخطوطات جـ١/٣٥٢.
[٢] المصدر نفسه، جـ١/٣٥٨.
[٣] المصدر نفسه، جـ١/٣٥٧.
[٤] كان في عصر ابن بسّام صاحب كتاب الذخيرة، يقول ابن بَسّام: ((هو أحَدّ من لاقيْتُه وشافَهْتُه، وأملى عليّ نظمه ونثره بأشبونة سنة سبع وسبعين، وأخبرني برسالته التي ردّ فيها على أبي عامر بن غرسيّة)) (انظر ابن بسام الذخيرة م٢/ق٣/٧٠٣).
[٥] نوادر المخطوطات جـ١/٣٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((اخْسَأ أيها الجهولُ المارقُ، والمرذولُ المنافقُ، أيْنَ أمّك ثَكلَتْكَ أُمُّك، أو ما علِمْتَ أنّكَ سُحِبْتَ من عِقالك لِعُقّالِك، وقَدَّمْتَ أوّل قَدَمك، لِسَفْك دَمِكَ، وبسطت مكفوفَ كَفّك، لسلطانِ حَتْفِك، وقلّمْت شبا[١] أقلامِكَ لاصطلامك، وحبَّرْتَ بِحِبرِك، لِذهابِ خُبْرِك[٢]، ومَشَقْتَ في قرطاسك، لِشقّ راسك، فما حقيقة جوابك، على خَطَلِ خطابك، إلاّ سَلْبُك عن إهابك، وصَلْبُكَ على بابك، ولو كانَ بالحضرة أقيال، وحَضَرَكَ رجال؟ لكنّك بين هَمَجٍ[٣] هامج[٤]، ورَعاع مائج فأقسمْ ببارىء النّسم، وناشِرِ الأُمم، من رُفاتِ الرِّمم، لأُصيِّرَنَّ عليكَ أيُّها السَّخيف، المضعوف على نذالتك وفسالتك، عَرْضَ البَسّاط[٥] أضيقَ من سَمّ الخياط)).

فإذا اتّضح للسّامع قلّة شأن ابن غرسيّة، بيّن له زيفَ ما ادّعاه وكذبه -كما يعتبر أبو جَعْفَر- وللتدليل على ذلك، يذكّر بأنّه ذمّي كما أشار السابقون، اتخذ الزّنار علامةً على ذلك: ((وتُحَلّقَ سَبْتاً[٦] لك -من قَفَاك- وتَحْتَزِمَ بزُنّارِك، وتلحق بأديارك))[٧].

بَعْدَ ذلك ينتقل أبو جعفر للردّ على ابن غرسيّة بما ادّعاه في رسالته، وتتضح المنهجيّة العلمية، والتي تنمّ عن نموّ في فكر أدباء الأندلس من العرب، بأن يأخذ أبو جعفر جُملاً وفقرات من رسالة ابن غرسيّة يفندها ويردّ عليها مناصراً العرق العربيّ، ومقللاً من شأن الأعاجم، إلى أن تصل رتبتهم لرتبة الدوابّ، ونذكر عدداً من الأمثلة على ردود أبي جعفر ومنهجيته:

---

(١) شباةُ الشيء: حدُّ طَرَفِه (وسيط/شبو).

(٢) الخُبْرة: النصيب يأخذه الإنسان من طعام. (وسيط/خبر).

(٣) الهَمَجُ: ذباب صغير يقع على وجوه الغنم (وسيط/همج).

(٤) الهامج: الشيء يترك لا نظام له (وسيط/همج).

(٥) البَسّاط: الأرض الواسعة (وسيط/بسط).

(٦) السبت: القطع (وسيط/سبت).

(٧) نوادر المخطوطات جـ١/٣٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((الوُضُح الرُّجُح، رُجُح الأكْفال[١]، وُضُح كذوات الأحجال، فللّهِ أبوك لقد أجدتَ في قومِكَ الوصف وبسطت لنا منهم النّصف، وأنا الآن أُنْصِف، وفقارك أُقْصِف))[٢].

((عُلْم حُلْم، عُلُمٌ بالتداوي من القَرَم[٣]، ومَنافعُ القَلَم، حُلْم عن كُلّ مجاوزِ الحُلْم))[٤].

((حَماةُ السّروج نُماةُ الصروح، النّصَفةَ يا كُشّاجم، لا الأنَفَة، غُضّ قليلاً من طَرْفِك، وأمسك عِنان طِرْفِك[٥]، ولْنَتَحاكم في ذلك إلى ظرفك، هل يَصحُّ في التّحصيل أو يجوز في العقول، أنْ يحمي قومك سروحَ شأنهم، وقد أباحوا فروجَ نسائهم، أليس هذا عينُ المحال، ومغالطة الجهّال، فهلاّ توهّمت يا فتى الجَوَاب، قبل الخطاب وأبصرتَ الوَرطة قبلَ السّقطة))[٦].

ويردّ أبو جعفر ما ادّعاه ابن غرسيّة لقومه، معتمداً في ردّه على المستند التاريخي، لإثبات خضوع العجم.

((مَلْسُ الأُدُم ما حاكوا قطُّ بُرودا ولا لاكوا عُرودا، هذا وأبيك من التعريض الرّقيق في مقالك، وآلِك، وذلك أنّك وصفْتهم بامّلاس الجلود، وقضيت بنفي لوك العرود، وإيجاب ذلك، لا يليق إلاّ ببالك، فهذا لعمرك من بديع التّحقيق، فافخَر فهاتان صفتان سلّمتا بكم، وأمّا لوك العُرود، فإنّ ذلك أوضحُ من السّراج الوهّاج، في اللّيل الدّاج، قد تحدّث أنّ ولدانكم عَطّلوا سوقَ نسائكم، فنمي

---

[١] الكفل: العجز للإنسان والدّابة (وسيط/كفل).

[٢] نوادر المخطوطات جـ١/٣٣٠.

[٣] القَرَم:شدّة الشهوةإلى اللحم (لسان العرب/قرم).

[٤] نوادرالمخطوطات جـ١/٣٣٠.

[٥] الطّرف: الذي ينتقلُ من مرعى إلى آخر ولا يثبت على مرعى واحد (وسيط/طرف).

[٦] نوادر المخطوطات جـ١/٣٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذلك إلى مليككم فحكم أن يبيح النِّسوان من أنفسهنّ ما أباح الولدان ... وأمّ حَوْك البرود، فناهيك من الغِفارة[١] الإفرنجية، إلى الديباجة الروميّة، والنِّسْبَتان، بذلك تشْهَدان[٢].

وبَعْدَ أنْ يُنْهِيَ أبو جَعْفر رَدّ ما ادّعاه ابن غرسيّة لقومه، يعطف للدفاع عن العرب بما اتُّهموا به، ومن ذلك[٣]: ((وعَيّرت العَرَبَ بالاغتذاء بالحيّات لتغذّيكم بالدّماء والميتَات، فيمتاز الضبّ، ويقَعُ الحَدّ، بَيْنَ من تناهت جُرْأته وماتت همّته، على أن لا افتخار في مشرب ولا مطعَم لعرب ولا لعجَم، كذلك ما عَيّرتَهم به من حرقِ الجلّة والبعر، غُروا بإضْرام النيران، لإكرام الضيفان، وإطعام المقرور[٤] الجَوْعان)).

إنّ منهجيّة أبي جعفر في هذا الردّ تكتمل عندما حدّدَ أساس المفاخرة بَيْن العرب والعجم، إذ ليس في الطعام والشراب افتخار.

ويلجأ إلى الاختصار في الردّ عمّا قاله ابن غرسيّة بشأن أبي رُغال وأبي عُبْشان ويربط ردّه هذا بالافتخار بالانساب العربيّة، مؤكداً بمنهجيته المنظمة أن أساس الافتخار بالنسب وما قدمه أهله من أعمالٍ جليلة فيقول[٥]: ((وما ذكرتَه في أبي رُغَال، فذلك جِدُّ مُحْتَال، إنّه غدا علماً منه باستنصالهم عن اختيارهم إلى بَوَارهم، وقضيّةُ أبي عُبْشان الذي عظّمت، ليسَ الأمرُ كما توهمت، لأنّ الكعبة بيت إلٰهٍ لا شريك له، وضَعَه تعالى للعباد، وسوّى بين العاكف فيه والباد، وأبو غبشان إنما باع خدْمتَه في البَيْت)).

---

[١] المِغْفَر: زردٌ يُنْسَج من الدروع على قدر الرّأس يُلْبَسُ تحت القلنسوة (وسيط/غفر).

[٢] نوادر المخطوطات جـ١/٣٣٢.

[٣] المصدر نفسه جـ١/٣٣٢.

[٤] رجل مقرور: أصابَهُ البرد (وسيط/قرر).

[٥] نوادر المخطوطات جـ١/٣٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويختم بذكر النسب العربي فيقول[١]: ((تلك صفاتُ قومِنَا العربِ ذوي الأنْسَاب، والأحْسَابِ والعلوم والحلوم، أولى اللَّسَن، والبيانِ واللَّحن، والإسهاب في الصواب، والحكمةِ وفَصل الخِطاب، فُرسان الإعراب، وأربابُ القِباب، ومُعلمي الصوارمِ والحراب)).

لقد سلكَ أبو جعفر مسلك الردّين السابقين في المحاماة والمدافعة عن النّسب العربيّ والإعلاء من شأنه والحطّ من شأن الأعاجم وأنسابهم دون أن ينفي الإسلام عن ابن غرسيّة، إذ هو منهجيّ في ردّه.

الردّ الثالث: من كتاب لابن عبّاس[٢]:

يبدأ الكاتب رسالته بإيضاح عن منزلة العبيد الوضيعة، وكيف تجرّأ ابن غرسيّة على سادته، والكاتب مع ذكر العبيد يُصرّح بما عُرِف عنهم من عادات تنمّ عن لا إنسانيّة، فيقول[٣]: ((يا ذا الوسَن لا اللَّسَن، واللّكَن لا الرَّكَن، وابنُ المَرَاغَةِ لا البلاغة، المزري بولاء مواليه ... المفاخِر بالعبيد على أملاكها الصّيد، مالَكَ لا أبَا لَك، تتهانفُ وتتهالك، أما هَالَكَ ما أضْنَاك، وأما لك عن اللّهج بآل ذي حَسَان، وحَلَلَةِ الماء مِن غسّان)).

ويصوّر ذلّه بصور معبّرة في قوله[٤]: ((وذللت ذُلَّ الحليلة للبعل، وزللت كما زَلّت زليلةُ النّعل، وأصبحت للسباءِ بعد الإباء كعادة أعلاجك مِنْ الأبناءِ والآباء)).

ويلحّ الكاتب على ربْط النسب العربيّ بمفاخر الأمور، فيبدأ بمدح هذا الأصل العريق: ((وموارد الشّرف الأعداد، السّامين على الأنداد، النّامين بالآباء والأجداد، من عدنان، وعادِ شدّاد، الضاربين الأرض بالأسداد))[٥].

---

[١] انوادر المخطوطات جـ١/٣٣٤.
[٢] لم يُعرّف صاحب الذخيرة بابن عبّاس هذا.
[٣] ابن بسّام، الذخيرة م٢/ق٣/٧٤٦-٧٤٧.
[٤] المصدر نفسه م٢/ق٣/٧٤٨.
[٥] المصدر نفسه، م٢/ق٣/٧٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول في فقرة أخرى مادحاً هذا النسب[١]: ((طالوا أمما، وأدركوا الطوائل أمماً، وفضلوا أحساباً وإمماً، وشرُفوا أنفساً وهِمَما)).

ينتقل الكاتب بعد ذلك في كتابه إلى شرح ما تميّز به العرب من شجاعة وإقدام، وعلم وفهْم، وهو يفصّل القول هنا، ونختار من قوله[٢]:

((بل يشدّون العمائم وينجعون الغمائم، ويرتدون الرُّدينيّات ويستجيدون اليزنيات ... ذوو الفطن والهمم والآراء والمجدِ والعلم بالأملاء، والرّصد في الأحلاك وأخْذِ الأهواء في الأنواء)).

ويركز الكاتب على قدرة العربيّ لتلقي العلم بفطرته السليمة النقيّة، فهم: ((ولا حسابٍ تلقّوه عمَّن درج، بل بإفهامِ أفهام، وإلهام أوهام، مع معرفتهم بالحشائش ولسانهم بكلها جانش))[٣].

اتّهم ابن غرسيّة العرب بالفاحشة والسعي لها، لذ لمْ تخلُ رسالة من الردّ على ما ادّعاه، وابن عبّاس في رسالته هذه يؤكد عزّة وشرف العربيّ: ((وعلى ذكر البغاء فأنتم له بُغَاء، نساؤكم عليه حبانس، وكوانسُ الكنائس يترافَعْنَ في الشّبْر والشكر، ولا ترون في ذلك من النُّكر، ونساؤنا للطرف قواصر، وعلى بنيّ العمّ قواصر، لم يحتضنَّ بغيةً، ولا حُصِنَّ قطُّ لِغيّة، ولا إقراف، بل عن أشراف فأشراف))[٤].

ويبدو أنّ كاتب الرسالة يرى كفرَ ابن غرسيّة وخروجه من الملّة، يتضح ذلك من السلامِ الذي ينهي به رسالته، إذ يقول[٥]: ((والسلام على مَنْ سَلِمَ من الهُجْرِ لسانُهُ، وسلم من الكفرِ قلْبُهُ وجَنانُهُ)).

ويؤكد ذلك من بداية الرسالة التي قال فيها[٦]: ((عليكَ السَّلامُ لا السَّلام))، والسَّلام هي الحجارة الصلبة، إذ يأبى الكاتب أن يطرحه السَّلام لشكّه بإيمانه وإسلامه.

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، م٢/ق٣/٧٤٩.

(٢) المصدر نفسه، م٢/ق٣/٧٥٠.

(٣) المصدر نفسه، م٢/ق٣/٧٥١.

(٤) المصدر نفسه، م٢/ق٣/٧٥٢.

(٥) المصدر نفسه، م٢/ق٣/٧٥٢.

(٦) المصدر نفسه، م٢/ق٣/٧٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنّ رسالة ابن غرسيّة دارت حول موضوع تمجيد غير العرب والتنويه بهم، وهو يركّز همّه على تصوير العربيّ بصورة الخسيس الجاهل لما يدور حولَه، وهو لا يطعن بالنمط الحضاريّ والثقافيّ الذي عاشه عربُ الأندلس بل يركّز في طعنه على الأصول العربيّة القديمة قاصداً بذلك التشكيك بمفهوم الزّعامة والرياسة العربيّة في الأندلس.

من هنا فقد عالجت الردود السابقة ما طعن به ابن غرسيّة العربَ، والقارىء لهذه الرسائل لا يلمحُ حديثاً عن أثر العرب في الإنجازات الحضاريّة في الأندلس. لأنّ ما هَدَفَ إليه الكتّاب هو مناصرة أساس البناء الحضاري العربيّ، لذا كان حديثهم عن النبيّ ﷺ يركّز على أنّه عربيّ أصيل للردّ على ما اتُّهم به العرب من جهلٍ وغباء، وأخيراً فإنّ هذه الرسائل توضح عن مفهوم الشعوبيّة ونموّ حركتها بالأندلس، وبخاصة في عصر ملوك الطوائف، وتوضح أيضاً عن نضوج الصنعة النّقديّة لدى كتّاب الأندلس وقوة مَلَكَتهم الثقافيّة والفكريّة. وبعد هذه الرسائل سنقف على نصّين ظَهَرت فيهما العصبيّة العِرقيّة، وهما يوضحان عن انتشار العصبيّة بعد انقسام الدولة العربيّة وبروز ممالك أندلسيّة تكاد تخصُّ بعض الأجناس غير العربيّة.

الرد الرّابع: صاحبه مجهول[1]:

ويُرَجّح الدكتور عبدالسلام هارون أن صاحبَ هذه الرسالة هو يحيى بن مَسْعَدَة كاتب الرسالة الأولى في الردّ على ابن غرسيّة، ويعلل ذلك للتشابه الموضوعي والأسلوبي بين الرسالتين، بعد أن يعقد مقارنة بينهما.

وحقيقة الأمر أنّ التشابه في الأسلوب والمنهج لم ينحصر بين هذين الردّين، بل إنّ القارىء للرسائل التي ردّ على ابن غرسيّة يكاد يجزم أنّها لمؤلف واحد، لقوة أسلوبها وجزالة ألفاظها،

---

[1] نوادر المخطوطات جـ١/٣٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإسهابها في التفصيل بنقائض الأعاجم وفضائل الأعراب، الأمر الذي يؤكد انّ اتجاهاً أدبياً في الردّ على الشعوبيّة قد ظهر في تلك الفترة واتخذ طابع الجزالة والفصاحة، ولعلّ القارىء يلمح ذلك عند استعراض هذه الردود.

يُوْضحُ مؤلّفُ الرد الثاني في بداية رسالته أنّ حربه مع ابن غرسيّة هي حربٌ عرقية، إذ إنّ نزعة ابن غرسيّة في الطعن بالعرب قائمة على شعوبيّة مقيتة، يقول[١]: ((لشدّ ما استهواك أيُها الشعوبيُّ شيطانك، والتفّتْ على نَزْعك أشْطَانك[٢]، أذريْتَ حينَ زريْت، أيَّ أديم فريت، وأيّ ظَهْرٍ للمكارم اعرروريت[٣]، رَميْتَ بكلّ أفْوقَ[٤] نَاصلٍ[٥] رَميّ وأوضَحْتَ غيرَ جَلَيّ)).

ويسمّى الأعاجم خُرساً، فهم لا يتقنون فنون العربيّة ولا يجارونَ أهْلَها، وهو بهذا يستنكرُ عليهم التجرؤ على أهل العربيّة أصحاب الأنساب العرقية الأصيلة.

((ورَاهنْتَ على الجحاشِ كُلَّ سَبَاقٍ أعْوجيّ، من الأدْم القُدم، ليسوا بصُهْبِ خُرْس، ولا بمجوسٍ فُرْس، أعِدْ نظراً ففي العاديّة والأجيالِ الجُرْهميّة، والجبابرة الطسميّة، والعماليق الغُلْب الإرَميّة، ما يروعك[٦])).

---

[١] نوادر المخطوطات جـ١/٣٢١.

[٢] الشَّطن: الحبل الطويل تُشدُّ به الدّابة (وسيط/شطن).

[٣] اعْرَوْرى: سَار في الأرضْ وَحْدَه (لسان/عرو).

[٤] سهمٌ أفوق: في أحد طرفيه مَيل أو انكسار (وسيط/فوق).

[٥] سَهْم ناصل: خَرج منه نَصْلُه (وسيط/نَصَل).

[٦] نوادر المخطوطات جـ١/٣٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولئن كان ابن غرسيّة طعن في نسب العرب، فإنّ الكاتب يعقد مقارنة يقدّم فيها رداً على ادّعاء الأعاجم بدناءَة الجنس العربي، وهو يربط في الوقت ذاته أجناس الأعاجم بما يحطّ من شأنهم، كما فعل يحيى بن مسعدة في الرسالة السابقة:

((اخْسَأ فلن تَعْدو الأصفريّة أقدارها، ولنْ تُعْدَمُ المجوسُ نارَها، أرومتُنا إسماعيلية نبويّة لا عيصَويّة أصفريّة[١] ... فما أنت والفخرَ بالقديم، إلا كَدابغة وقد حَلَم الأديم[٢]، مِنّا اللقّاح، أولو النّجدةِ والسّماح)).

ويقول: ((فحينَ سمّيتوهم الأساورة، رَموكم بِسَهمِ ما أخْطاكم، وأخذتُم من جذعِ ما أعطاكم، مَجْدٌ نَجد، إنْ نَازعتم فيدُنا الأقوى، أو فَاخَرتم فالكرم والتقوى، ما سُسْنَا خنزيرا، ولا عَبَدْنا ناراً، ولا عَقَدْنا على الذّلّ زنّارا[٣])).

وتتضح صورة الذلّ للأعاجم عندما وصفهم الكاتب وهم يلبسون زنّاراً تمييزاً لأسيادهم العرب عنهم، ولا شكّ أنّ هذا الزجّ لصور الذلّ للعرق الأعجمي، ينّم عن ثقافة موسوعيّة لَدَى كتاب الرسائل، استطاعوا من خلالها أن يعطوا مُناصرة فكرية علمية منهجيّة للعرق العربي، حيث يظهر انتصار الكاتب للعرب في أقواله:

((ذهبوا واللهِ من العارِ بثُمّهِ ورُمّه، وفَحْلُ السّوء يَبْدأ بأمّه، أفخراً بالحنيذ والنبيذ، هَلاّ بقرى الضيف والسّنون غبُر، وعِزّة الجار والأسنّةُ حُمر، وكرم الوفاء إذا استوثر بالغدر، وكتم السرّ حيْنَ تجيشُ مراجلُ الصّدْر[٤])).

---

[١] نسبة الروم إلى الأصفر بن النضر بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام (المسعودي، مروج الذهب جـ١/٣١٦).

[٢] حَلَم الأديم: أصابته الحَلَمة: وهي دودة تقع في الجلد فتأكله (لسان/حلم).

[٣] نوادر المخطوطات جـ١/٣٢٢.

[٤] المصدر نفسه جـ١/٣٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((رُجُح لا تطيشُ بهم الأحلام، ولا تُساجلهم الأيام، فمه أيها المتعاطي لما لا يُدرك، والمتشبّع بما لا يملك، والمتبجّح في دعواه، كالخصيّ يفخرُ بمتاع مولاه[١])).

وهم: ((وُضُح صُرح، لم تُغرِقْ فينا سُحْمَةُ الحُبْشان فجئنا صُفْر الألوان، ذوي نُطَف أمشاج[٢]، بين الزنوج والأعلاج[٣])).

ويُصرُّ كاتب الرسالة على اتّخاذ الإسلام منبراً ينافح فيه عن العرب وعرقهم، لأنّ الحضارة العربيّة كانت المهد الذي احتضنه، ونشرته إلى العالم بعد أن ثبتت أصوله على أرضهم، فمنها[٤]:

((فتَذَكّر قتلى باليرموك وجبتْ جنوبُها، وأُشلاءٌ بالقادسية عَصَفَ عليها من المنون هُبوبُها، تهافتوا عليها أمثالَ الدبَا[٥]، لم تُغْنِ عنهم الأسنّةُ ولا الظُّبَا، فتعلمَ أن البأسَ للعرب، وأنّ النَّبْعَ لَيْسَ من الغَرَب[٦])).

ويقول[٧]: ((عُتُقٌ صُدُق، جَعَلَ اللهُ الكعبةَ البَيْتَ الحرامَ قياماً، والحنيفيّة السمحةَ قواماً وإنّ بيتاً رفَعَ منه إبراهيمُ القواعدَ وإسماعيل، ونطقَ بفضله التنزيل، وسَفَر بين ساحته جبريل، لمَظِنّةُ خيرات، ومَصَبُّ بركات، ومنجم آياتٍ مُعْجزات، مشاعرُ معظّمة، ومناسك مكرّمة، وملتقى آدمَ وحوّاء، ومَهْبِط الوحي من السّماء، ذلك بَيْتُ اللهِ لا بيوتَ نيرانِكم، وشعارُه لا شعارُ صلبانكم، ومدارسُ الذّكر لا مدارس البُهْتان، ومَعَارج المَلَكِ لا مَدَارجُ الشيطان، إنّ القرآن ليس بديوانكم، ولا الكعبةَ من زخاريفِ إيوانكم ... بَيْتٌ في كسره اعتلجَ محمدٌ ﷺ ودرج وفيه دَبَّ إلى السماء

---

[١] نوادر المخطوطات جـ١/٣٢٤.

[٢] المشج: كلّ لونين اختلطا (وسيط/مَشَجَ).

[٣] المصدر نفسه جـ١/٣٢٥.

[٤] نوادر المخطوطات جـ١/٣٢٦.

[٥] الدبا: الجراد قبل أن يطير (لسان/دبي).

[٦] النبع: شجرٌ ينبتُ في قلة الجبل تتخذ منه القِسيّ والسهام (وسيط/نبع).

[٧] نوادر المخطوطات جـ١/٣٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعَرَج، ثمرةُ دوحةٍ زكت في مُضرَ منابتُها، ونما في النَّضر بن كنانة [1] نابتُها، وشجَتْ إلى إبراهيم ﷺ أعراقُها، وتولّفت من هاشمٍ أغصانُها وأوراقُها)).

والكاتب بعرضه السابق يبيّن أنّ النسب والعرق العربي، مؤيد من الله ومفضّلٌ على غيره من الأجناس، لذا فقد استحقّ كُلّ الأمور السابقة دون غيره.

الرّد الخامس: للشيخ المبارك الأفضل أبي يحيى بن مَسْعَدَة[2]:

أظهر ابن مَسْعَدَة في هذه الرسالة، أنّ رَدّه على ابن غرسيّة قائم على أساس العصبيّة العرقية، وأكدّ ذلك حين قسَّم فرقتيه في الرسالة إلى عربيّة يناصرها وينافِحُ عنها، وأعجميّة يُوْضِحُ عن عيوبها ونقصها ويطعن بأهلها وعادتها ومعتقداتها، وستقف في الصفحات القادمة مع لمحة تَعْرِض لأهم ما ورد في هذه الرسالة من مواضيع صبّت في بَوْتقةِ العصبيّة العرقيّة.

عَمد ابنُ مَسْعَدَة في بداية رسالته إلى الهجوم على ابن غرسيّة، لتجرئه على سَبِّ الأمّة العربيّة والطعن في أصولها، إذ هو ضَبْعٌ، ذمّي، ويُركّز ابن مَسْعَدَة في رسالته على إبراز صورة الذّمّي الأعجمي، للتأكيد على ذلّ ومهانة ابن غرسيّة والأعاجم. فيقول:

---

[1] النضر بن كنانة: حي من كنانة من العدنانية وهو قريش على المذهب المرجّح (عمر كحالة، معجم قبائل العرب جـ٣/١١٨٣).

[2] يبدو أنّه كان شيخاً جليلاً في حضرة ملوك المغرب، فهو بذكر الإمام المهديّ أبا عبدالله محمد بن عبدالله القرشي العلوي والذي كان قيامه بالملك سنة ٥١٥هـ ووفاته سنة ٥٥٨هـ، (الزركلي، الأعلام جـ٦/٢٢٨-٢٢٩)، مما يعني أنّ ابن مسعدة قد كتب ردّه في القرن السادس الهجري (عصر الموحدين). وقد آثرت الحديث عن رسالته لأنّها تبيّن المنهج الذي اتبعه الأدباء في مناصرة أصولهم والردّ على من طعن بأنسابهم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((إياك أعني أبا عامر، ولا أقولُ خَامِري أمّ عامر[١]، بل أُعْرِيكَ جَنَى غَرْسِيَه[٢] فالتقط يا لقيط غرسيّة .... شُرْبُك الحميم، وشعاري لك حاميم[٣]، فاخْلَع عَنْ مُقَلّدك البَرِيم[٤]، وذُقْ إنّك أنْتَ العزيزُ الكريم[٥])).

وابنُ مَسْعَدَة يشير إلى ما كان يضعه الموالي وأهل الذمّة في أيديهم من الأساور، تمييزاً لأسيادهم عنهم.

ويُصَوّر ابن مَسْعَدَة شَكَل الموالي الخدم تصويراً دقيقاً ينّم عن دُنوّ منزلتهم، وخبيث وسوء أفعالهم، وتظهر صورتهم كعبيد في قوله[٦]:

((كلاّ لو تَجْلُو مِعْيَارَك، وتَمْحُو طُومارَك[٧]، وتُقَلّمَ أظْفَارك، وتَنْزِعَ صلبانَك وزنّارَك، وتُعْفِي سِبَالك، وتَنْصِبَ قَذَالك[٨])).

وبعد أنْ بَيّن ابْن مَسْعَدَة هذه الصورة الدنيئة والوضيعة له، يَعْطفُ إلى بيان ارتفاع منزلة العرب، وعلوّ مكانتهم، لذا فإنّ ابن مَسْعَدَة يستنكر أنْ يطعن مثل ابن غرسيّة بالعرب ومنزلتهم، لأنّ العرب هم مواليه، وأسياده أصحاب الأنْسَاب الصميمة، فيقول[٩]:

---

[١] خامري أمّ عامر: أي استتري، وأم عامر: الضبع، يُشبّه بها الأحمق (الميداني، مجمعُ الأمثال جـ١/٣٠٧).

[٢] غَرْسِيَه: المقصود غرْسي، الشجر مثلا.

[٣] قيل إنّ السورة التي أولها "حاميم" لها شأن، وهي مما يُستظْهَرُ به على استنزال النّصر، وفي حديث الجهاد: ((إذا بُيّتُم فقولوا حاميم لايُنْصَرون)) (اللسان/حمم)

[٤] البريم: خيطانِ مختلفان أحمر وأصفَر (اللسان/برم).

[٥] نوادر المخطوطات جـ١/٢٨٣.

[٦] نوادر المخطوطات جـ١/٣١٧.

[٧] الطّومار: الصحيفة (لسان العرب/طَمَرَ)

[٨] القذال: جماع مؤخر الرأس من الإنسان (وسيط/قذل)

[٩] نوادر المخطوطات جـ١/٢٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((مِثْلكَ يا دَمِيٌّ[١] العَجْمِ[٢]، وذِمّي العُجْم، تَعْدَى للأعراب مواليه بسَفَه، أو تَصَدّى لمعارَضةِ فخارِها ببنتِ شفة؟ غرَّكَ أنْ تَوليتَها بِحُكْمِ المقاسم[٣])).

ويقول به في مَوْضعٍ آخر[٤]: ((مَالَكَ يا وَقّاح، ولهذا الحيِّ اللَّقَاح، تَفوّهْتَ بكلامهم، ونَفِهْتَ[٥] عن أفْهَامهم، وأهْلَلْتَ بشعَارِهم، وتمثّلْتَ بأشْعَارهم، وشَحَجْتَ[٦] في أعْيَارِهم، وما نارَكَ من نارِهم. هَلاّ رَتَقْتَ بفِطانَتِك ونطَقْتَ بعُجْمَتِك ورِطانتك، أظنُّك شاهَدْتَ بالجَمْع[٧] وقَعَدْتَ مِنْهم مَقَاعِدَ للسّمع)).

ويقلّل ابن مسعدة من شأنِ رِسَالة ابن غرسيّة، بأن هذا الرجل أعجمي، والعُجْمَة عارٌ عليه إذ هو يسبُّ العربَ بلغة العرب، وابنُ مَسْعَدَة يَسْعَى بهذا للتأكيد على ترفّع أهل العربيّة عن هذا الأعجمي فيقول[٨]:

((أمَا كانَ لك يا لئيمَ الجدودِ، ومَدْرَأَ الحدودِ، ولآبائك لَفْظٌ تحكيه، أو لِذَوي ولائكَ من العَجَمِ قبرٌ بِجِلّق[٩] تحكيه، أو نَحْوٌ بلسانِكَ نَضَعُهُ، أو لَحْنٌ في شَأنِكَ تَخْفِضُهُ وتَرْفَعه، فقاولتَ العرب بلسانِ هامان وناضَلْتَها بِطَمْطَمَةِ[١٠] بيحانيل وروما)).

---

[١] دَمِيّ: نسبة إلى دم (لسان/دَمي).

[٢] الأعجم: الأخرس (اللسان/عجم).

[٣] المقاسم: قسمة المغانم (الوسيط/قسم).

[٤] نوادر المخطوطات جـ١/٢٨٥.

[٥] نَفِه: ضَعُفَ (وسيط/نَفِه).

[٦] الشحيج: صوت البَغْل (لسان/شَحَجَ).

[٧] الجَمْع: المزدلفة، وسُميت بذلك لاجتماع الناس فيها (اللسان/جمع).

[٨] نوادر المخطوطات جـ١/٢٨٦.

[٩] جلق: دمشق (اللسان/جَلَق)

[١٠] الطَمْطَمة: العُجْمَة (اللسان/طمطم).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويؤكد على دنوّ منزلتهم عن العرب بقوله[١]: ((فما للرُّوم الخرس، أولي الأراكِنَةِ[٢] المُلْس والأعاريبِ الحُمْس)).

ويُلحُّ ابنُ مَسْعَدَة في رسالته على ذكر الأنساب العربيّة الصميمة، وهو يذكّر بذلك ابنَ غرسيّة بهذه الأصول، ويربط النسب بالملوك الأعارب، ممن كان لهم فِعْلٌ مَهمٌّ وأوّل ما يربطه الكاتب بهذا النسب العربي اتصافه بالشرف والعفة والبعد عمّا يُدنّس الأعراض، فيقول[٣]:

((وَسَلْ عَن سِبْط داودَ وسليمان، وبني عبد المطلب وخلائِفَ بني العبّاس، على أنّ العرب لا تترجَّحُ[٤] للأمّهات، ولا تتبجّحُ بذكر الحُرمات، ولا رَضِيَت الشِّغَار[٥]، كفعلكم بالبنات، بل وأدَتْهَا للحفيظة هَبْرًا[٦]، ووردتْ بها حياضَ الثُّكْلِ صَبْرا، واختارتْ لَهُنّ القبورَ صِهْرًا)).

ويقول مُوْضِحاً عن السيادة العربيّة القديمة على الأعاجم[٧]:

((جَدُّنا يَعْرُب هو الذي أرقاكُم ورفَعَكم، وصَقَعَ بالبجِّ[٨] من صَقَعكم، ووسمكم بسَوَاد جِلْدَتِهِ وسَفَعكم، وأجلاهُم عنكم إلى ريفِ عُمان .... فكلمّا غمطتُم نِعْمتَه وأمطتم إمّتَه، عَادَكم من عيدِه، وسابقةِ وعيدِه، ذو نواس[٩]، فناسَكم[١٠] وداسكم وخَرّب نواويسَكم[١١]، وبَهَرَ أنْفَاسكم)).

---

[١] نوادر المخطوطات جـ١/٣٠٤.

[٢] الأركون: رئيس القرية (وسيط/ركن).

[٣] نوادر المخطوطات جـ١/٢٩٢.

[٤] النسبة للأمهات.

[٥] الشِّغَار: أنْ يزوّجَ الرجلُ قريبتهُ آخر، على أنْ يزوّجَه الآخر قريبته بغير مهر (وسيط/شغر)

[٦] الهَبْر: ما انْخَفَضَ من الأرض (وسيط/هبر).

[٧] نوادر المخطوطات جـ١/٣٠١.

[٨] بَجَّهُ بَجّاً: شقَّهُ (وسيط/بجج)

[٩] ذو نواس: آخر ملوك حمير، وهو صاحب الأخدود، وتسمّى يوسف، فأقام في ملكه زمانا. (ابن هشام، السيرة النبويّة جـ١/٢٦)

[١٠] ناسَ: ساقَ (وسيط/نوس).

[١١] النّاووس: مقبرة النّصارى (وسيط/نوس).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويأبى الكاتب إلاّ أن يُفَصّل في نصرته للعادات العربيّة التي طعن بها ابن غرسيّة، لارتباط هذه العادات بالعرب فالوقوف بالأطلال هو وفاء من العربي لمحبوبته، ولديارها، نَصروا المظلوم واللهفان، أفنوا ما في بيوتهم من الحطب، ليوقدوا على النار كرماً منهم لضيوفهم، يقول[١]:

((لَهُم عُرِفَ النَّسيبُ والتشبيب، وعليهم وُقِفَ التَّسْهيدُ والتَّعْذيب، ولهم الجآذرُ في زيِّ الأعاريب، شُهروا بالحُبِّ والجوى، وَحُبروا بالتحرّق للتفرّق والنَّوى، وعَزّوا للموتِ كراماً، وذَلّوا للهوى، هم حَدَوا الرَّكْبَ بالحنين والإرزام[٢] وعَارضوا السُّحُبَ ... بكَوا الدّيار، ونَدبوا بصدقِ عهودهم الأطلال والآثارَ وحَموا الذِّمارَ، وردُّوا أيديهم عَنْ حُرْمةِ الجار .... ويقول[٣]:

((وحظُّهمُ من الفَلَكِ رأسُ المجرّة، أغناهم من الأعمال المَدَنية، والمَلكية البدنيّة، إيضاع الشَّدَنيّة[٤]، وإنْضاء الناقة الفَدَنيّة، طلباً للاعتزاز وضرباً في مجاهل الأرضِ للابتزاز)).

أمّا صورة الأعاجم فيصوّرها ابن مسعدة بالإنسان المقهور المغلوب على أمره، تحكمت بأعراضهم الأمم، وساقتهم سَوْق الدواب للهلاك وتكتمل صورة الذلّ بتصويرهم خدمة لبيوت النيران والمعابد، ساسوا الخنازير، وابن مسعدة يقرن بين الأعاجم والخنزير دلالة على النجاسة وعدم الطهر.

ومما لا شَكَّ فيه أنّ ملامح هذه الشخصيّة الأعجميّة، قد ارتسمت كاملة في ذهن السامع لدقة وبلاغة وصف ابن مَسْعَدَة صورة الذلّ وقلة الشأن التي وصلوا لها، فيقول[٥]:

---

[١] نوادر المخطوطات جـ١/٣٠٩-٣١٠.

[٢] الإرزام: صوت الناقة حنيناً على ولدها (وسيط/رزم).

[٣] نوادر المخطوطات جـ١/٣١٠.

[٤] شَدَن: فحل باليمن وإليه تنسب الإبل الشدنية (لسان/شَدَن).

[٥] نوادر المخطوطات جـ١/٢٩٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((فأيْنَ بُنَاةُ الصّروح، ونُمّاة السّروح، بل عَصَمَةُ السُّفوح، ولَعقة الدّم المسفوح، مَتَى مَلكوا الأرَضين، أو أُعطوا من جزيرة العربِ مارَضين، أبْعِدْ أن استباحتهم الحبشان وضُرِبَتْ عليهم الجزيةُ وكانتَ أوّلَ خَرَاجٍ بالزّمان.

فما زلتم تَشْغَلُونهم من أبنائكم بالأماثِل[١]، ويعملونَ لهم ما يشاؤونَ من محاريبَ وتماثيل، حتّى أخدموكم بيوتَ النيران، وقدّموكم للحرثِ مع الثّيران، فما أنِفَ ذو جاهكم ولا أنَفَرَ[٢] ولا أحْلَى، ولا أمَقَر[٣] كذلك الكلاب على البقر، أهذه النُّجد البُهَم، لا رُعَاة شياه ولا بَهَم، ومَنْ لرَعي الشُّويهاتِ يا كُشاجم[٤]، غير العُسَفاء[٥] والأعاجم، سوّاسُ الخنازير وحُرّاس المجازير[٦]، نَدحَة الأكَر[٧]، ولقَحةُ الشجر ولا العَكَرَ)).

وهُم عَبَدَةٌ مغلوبون على أمرهم لملوك الأرض، اتُّخذوا لقضاء الشهوة، وفي هذا إمعان من ابن مَسْعَدَة في تصوير حالة العبودية للأعاجم قوم ابن غرسيّة: ((وغَرسَ زيتون العِراق لسابور[٨]، إذ غَلَّ أيمانكم، وكَسَرَ صُلْبانكم، وقَسَرَ على الغِلْمَةِ لشفاءِ الغُلْمَة[٩] ولِدانكم، تَعبُّدهم، وسَوْرهم وخَلْدهم وطوقهم وقرطقَهم[١٠]، ومَاشهم[١١] وطَرْقهم[١٢] وبَعْدَ ذلك أخذ في جَذّكم ونقلكم))[١٣].

---

[١] أماثل القوم: خيارهم (وسيط/مَثَل)

[٢] أنْقَر: كَفَّ (وسيط/نقر).

[٣] أمْقَر الشيء: صار مُراً (وسيط/مَقَر).

[٤] كُشاجم: المهْمَل في الجماعة (تاج العروس/كَشَمَ).

[٥] العسيف: الأجير المُستَهان (وسيط/عَسَفَ).

[٦] المجازير: الموضع الذي تُنْحر فيه الإبل (لسان/جزر).

[٧] الأكر: حفرة تعمق ليجتمع الماء فيها رَشْحاً (وسيط/أكر).

[٨] سابور ذو الأكتاف ملك العراق، هزم جيش قيصر في العراق، وأخذه أسيراً، فغرس قيصرٌ بالعراق الزيتون بدلاً مما قطعه من النخل فيها. (المسعودي، مروج الذهب جـ١/٦٣-٢٦٦).

[٩] الغُلْمَة: شدة الشهوة للجماع (وسيط/غَلَم).

[١٠] قرّط الجارية: ألبسها القُرط (وسيط/قرَط).

[١١] ماش الشيء: خلطهُ.

[١٢] طرق الصوف: نفشه ونَدفه وقد يكون المقصود أكثر من عددهم. (وسيط/طرق).

[١٣] نوادر المخطوطات جـ١/٢٩٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويسفه ابنُ مَسْعَدَة من عادات ملوك الأعاجم، إذ لمّا كان هؤلاء يفخرون بالملبس والهيئة والقصور، ردّ عليهم ابنُ مَسْعَدَة بأنّهم بعيدون عن العفة والطهارة، أنجاس، عاداتهم تنمّ عن وساخة الأبدان والأرواح، ويبدو أن ابن مَسْعَدَة يريد إبطال ادّعاءات ابن غرسيّة بأنهم النُجد القيول، فيَعْرض لهذه الصفات الواحدة تلو الأخرى، ينقضها ويسفّه بها وبأصحابها، يقول[١]:

((من العُجم قُلْتَ القُدُم، نَعَم اللُكْن الفُدُم[٢]، الحُلم لكن عمّن بلغَ الحُلم بصْرٌ صُبرٌ، بُصرٌ بأوقات السَّمر وأفولِ القَمر، ودبيب الضّراء والخمر، صبر على الذّفر[٣] والقذر، وذَفَر الغَمَر[٤] ... جَرَرَةُ أذيال لكن على دَمَال[٥] وأبوال، ولا كجرّتا العوالي للإعوال، وإعلامِ الأشْبَالِ منّا للاحتيال، يريش الرّئال[٦])).

حاول ابنُ غرسيّة بشعوبيته أنْ ينالَ من مجد العرب وشَرَفهم، وصورةِ العربيّ الأبيّ -هذا ما تصوّره ابن مَسْعَدة- لذا فابن مَسْعَدَة يصوّر العربيّ سَيّداً، والعجم خدّاماً له، يعصرون الشراب لسيدهم ويسوقونه له، وهي فكرة تقارن بين صورتين: صورة الفارس الشجاع على فراشه الوثير يصبّ له خادمه شرابه. وصورة الخادم يحضّر ما يأمر به سيّده، وأمّا بنات الأعاجم فيشتركْنَ مع الرجال في خِدمة أسيادهن من العرب.

ومن غير شك أن ابنَ مَسْعَدَة يكثر من الحديث عن ذلّ نساء العجم لأسيادهن للإشارة إلى أنّ هؤلاء الأعاجم مخروقو المروءة لا يدفعون شَرّ عدوّهم حتى عن نسائهم فيقول[٧]:

---

[١] نوادر المخطوطات جـ١/٣٠٨.

[٢] الفَدِم: الغليظ السمين الأحمق الجافي (لسان/فدم).

[٣] رجلٌ أذفر: به صُنان (وسيط/ذفر).

[٤] الغمر: ريح اللحم وما يعلق باليد من دَسمه (لسان/غمر).

[٥] الدمال: التمر المتعفن (وسيط/دمل).

[٦] الرّال: فرخ النّعام (وسيط/رأل).

[٧] نوادر المخطوطات جـ١/٣٠٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((ومنكم غارسُ حَبْلها[١] وآبِرُها[٢]، ومُنَقِّحُها وزابرها[٣]، وسالفُ سليلها وعاصرها، ومنا أبو عذرها وفاطِرها، ومُديرها بحديث الرّكبان ومُعَاقِرها، تدوسونها لنا بالأرجل، وتقتلونها قبلَ حلولِ الأجل، ثمّ تجلبونها من جُواثا والرّسّ[٤]، وتسبونها من قُطْرُبُلّ[٥] وبيت رأس[٦]، وتجهّزون بها بناتكم بأكواب الساج[٧]، ومدارعِ الديباج، فيرشفنّها بالشّفاه قبلَ الزجاج، وبهذا توفرتْ على ضغنها بالمزاج، وأخذتْ من رؤوسنا ثأرها عند أرجلِ الأعلاج فَلَنا الحَلبُ وعليكم الجَلَبُ، ومنّا الأجرُ، وإليكم التّجر، ومن بضائعِ القهْر، ثمن البُضع[٨] والشّكر[٩] وكالىء المَهْر[١٠])).

والعرب متوحّدون في أصولهم أمام أعدائهم، فيقول: ((وتداعينا بمضَرِ الحمراء ونزارها، وبالهمم الحميريّة، والعصائب اليمنيّة والمضريّة))[١١]. ويشيد مرة أخرى بهذا النسب الرفيع ذاكراً أسماء ملوك العرب الأوائل، ويكني عنهم بـ ((الكواكب الطالعة)) إشارة منه إلى بقاء الفخار بهم وبنسبهم على الرّغم من وفاتهم، ويقول[١٢]:

---

[١] الحُبَل: الكَرْم (وسيط/حبل)

[٢] أبرَ النَّخْلَ: نَقَّحهُ (وسيط/أبر).

[٣] زبَرَه: رماه بالحجارة.

[٤] جُواثا:موضع بالبحر (الحموي،معجم البلدان جـ٢/١٧٤).

[٥] قُطْربل: قرية قرب بغداد، ينسب إليها الخمر. (الحموي، معجم البلدان جـ٤/٣٧١).

[٦] بَيت رأس: اسم لقريتين، فيهما كروم كثيرة، ينسب إليهما الخمر، إحداهما بالبيت المقدس والأخرى من نواحي حلب. (الحموي، معجم البلدان جـ١/٥٢٠).

[٧] أكواب الساج: إناء مصنوعٌ من خشب الساج (لسان العرب/سيج).

[٨] البُضع: الفرج (وسيط/بضع).

[٩] الشكر: اللبن، الحليب (لسان العرب/شكر).

[١٠] كالىء: مؤخر (وسيط/كلأ).

[١١] نور المخطوطات جـ١/٣٠٥.

[١٢] المصدر نفسه، جـ١/٣١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((هذاالمجدُ السَريُّ، والفخرُ الحَرِيّ[١]، والنَسب الحُرِّيّ، لا ما تَقَوّلته لحاك الله[٢]، ولحا أباك، وحَيّا من أباك، من فَخْرنا بالقديم، المُفْري للأديم، أعفيت فانتبه ... أمَا لك فيهم بَعْدَ الملوك العاربة، والكواكبِ الطالعة الغاربة، من الثَموديّة[٣] والعاديّة[٤]، والطسميّة[٥] والجديسيّة[٦] والوَباريّة[٧]، والأميميّة[٨]، ما يقْرَعُ صفاك، وينقع بماء الملامِ صفاك، إلى خالفةٍ من المتعرّبةِ خَلَفَتْ خلافَها، وارتَضَعَتْ في البأسِ والجودِ أخْلافَها، وإنْ كانت من جمعكم كالبعرةِ في البيداء، والشعرة البيضاء في اللّمةِ السوداء، حَطّتْ ذُراكم في اليفاع[٩] ، وخَطّتْ في صُدوركم بخطى الخَطّي لا باليراع)).

أمعن ابن غرسيّة في ذكر مثالبِ العرب، ونَاصبهم العَداء، وشَهّر بهم من هذا الباب، فقد جاء ردّ ابن مَسْعَدَة طويلاً شاملاً، أحسن -أدبياً- في صياغة الرسالة وفي تسلسلها البنائي.

تسلسل في ذكر مفاخر العرب ومثالب الأعاجم، فيذكر الجانب الدينيّ وفساد المعتقد عندهم، ويردّ على من اتهم العربَ في خبرِ أبي رغال وأبي غبشان ويمتد في حديثه التاريخي إلى معارك العرب مع الأعاجم في الجاهلية، وأخبار الملوك العرب، إذ يضربُ بهم المثل بالشجاعة والعزة والأنفة.

---

[١] الحريّ: الكريم (وسيط/حرّ).

[٢] لحى الله فلاناً: لعنه (وسيط/لحي).

[٣] نسبة إلى ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، ملكَ ما بين الشام والحجاز إلى ساحل البحر الحبشي (المسعودي، مروج الذهب جـ٢/٤٥).

[٤] نسبة إلى عاد أول من ملكَ الأرض بعد أن أهلك الله الكفّار من قوم نوح، وهم أشد النّاس بطشاً، وأقوى عقولاً وأكثر أحلاماً (المسعودي، مروج الذهب جـ٢/٤٢).

[٥] طسم بن لاوذ بن نوح، كان ينزل اليمامة والبحرين (المسعودي، مروج الذهب جـ٢/٤٨)

[٦] نسبة إلى جديس بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، ملك اليمامة (المسعودي، مروج الذهب جـ٢/٥٦).

[٧] نسبة إلى وبار بن أميم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح (المسعودي، مروج الذهب جـ٢/١٥٠).

[٨] أميم من إخوان عملاق بن لاوذ، وكانت ديارهم فيما يقال أرض فارس (تاريخ ابن خلدون م٢/٥١).

[٩] اليفاع: المرتفع من كل شيء (وسيط/يفع).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنّ شدة العصبيّة للعرب، جَعَلت ابنَ مَسْعَدَة يذكّرُ بانتصارات المسلمين على الفرس والروم، ويعيب على ابن غرسيّة انهزامهم في تلك الوقائع، مع أن ابن غرسيّة كان مسلماً، فيقول[١]:

((ولله أيّامٌ بالقادسية واليرموك، وعُتاةٍ منهم مواليكَ وأبوك وحموك، يا هبيد البيد وعبيد العبيد

لو كُنْت من نخبة الموالي إذاً لم تَنْثُ سُوءٌ في نخبة العرب

إذ جئتموها أعقاد الرّمل، وأعدادَ النّمل، قد اعتقدوا، واحتدموا واحتقدوا، فمن دمائهم ما خاضوا، ولصيلائهم ما أوقدوا)).

ويركّز حديثه ابن مسعدة على النسب العربي للنبي محمد ﷺ إذ يفاخر الأعاجم به لأنّه عربي الأصل والحسب، فيقول[٢]:

((بهذا النبيّ الأميّ، السيد العربيّ، نفاخر، ونكاثر المطرَ ونناظر الشمّس والقمر صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وأصهاره وصحبه وأنصاره، وحزبه، ومن مات على حُبّه)).

ويشير الى فضلهم في فقرة أخرى، متجاوزاً التاريخ العربي القديم، إلى الفترة الإسلامية، وتركيز الفكرة على أنّ النبي ﷺ وأصحابه من العرب قد انتصروا على قوم ابن غرسيّة الكفار، لذا فهو يخاطبه في نهاية الرسالة بـ ((والسلامُ على من رضيَ الإسلام[٣])) وهي تحية توحي بانسلاخ ابن غرسيّة عن الإسلام والدين.

وفي نهاية القول، نشير إلى أنّ رسالة ابن مَسْعَدَة قد أماطت اللثام عن مفهوم الحركة الشعوبيّة في الأندلس، وكيف نقم بعض المتحاملين على العرب بالطعن في صفاتهم ومثالبهم.

---

[١] نوادر المخطوطات جـ١/٣٠٦.

[٢] المصدر نفسه جـ١/٣١٧.

[٣] المصدر نفسه جـ١/٣١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو من خلال الرسالة أنّ للشعوبية في الأندلس تياراً قائماً لا نستطيع إنكاره، إذ يثبت ابن مَسْعَدَة أن ابن سيدة -والذي سيرد الحديث عنه- كان من القائمين على مناصرة ابن غرسيّة والشدّ على يده، لما عُرِف عنه من عصبيّة ضد العرب يقول ابن مسعدة في رسالته[١]:

((وأفْضَح في الحَقِين عِذْرَةَ أديبك، مُنَاقِلُكَ في الأرَاجيز، ونَاقِلُكَ إلى مَعْرِض التّعجير، شيخ الاعتزال، وصَرِيعُ أهل السنّة إذا تداعَوْا نزال، الأعمى البَصَيْرَة، وشُعُوبي الجزيرة.

عُمْيٌ حَذَوْكَ الغَيَّ أيُّ عَجِيبَةٍ أعمى دليلُ هُدَىً أو أخرسُ ينطِقُ

لشدَّ ما سَمَّع بِك في الأمْلاء، وسَرَّك بالإجراءِ في الخلاء، وأرسلكَ سائماً ورتَع في خَلاء، ... مُمَاتِحك في الدِّلي[٢] والدَّوِيّ[٣]، ومُطَارِحُكَ السَّلامَ على ذي الرويّ المرويّ، لقد أعلّكَ بواضِحَها وأبَلّ[٤]، وأغَلّك[٥] من فَاضِحَها ما أسَلّ[٦]، ورماك يا رجيمُ بدائه وانْسَلّ[٧]، فتَصَنَّعْتَ بمُعَارِ حُلاه، وتنطقتَ بما تلاه، وتشبّعتَ بالعار الذي تولاّه، كالخصي يفْخَرُ بمتاعِ مولاهُ)).

---

[١] نوادر المخطوطات جـ١/٢٨٤،٢٨٥.

[٢] الدِّليّ: جمع دلو (لسان/دلو).

[٣] الدويّ: الفلاة الواسعة (لسان/دوي).

[٤] أبَلّ: نجا (لسان/بلل).

[٥] غَلّ: خان (لسان/غلل).

[٦] سَلّ: سرَق.

[٧] في المثل ((رَمَتْني بدائها وانْسَلّت)) (لسان/سلل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

• كتاب سليمان المستعين إلى جماعة العبيد:

اعتمَدَ سليمان في تدبيره بعض أمور دولته على مجموعة من الموالي، فتقدّم شأنُهم عندَه، وقرّبهُم إليه وهو يصرّح بثقته بهم في قوله[1]:

((ولم تَزَل الأئمة منّا مُقْبِلَةً على مَوَاليها، مختصّةً لعبيدها، تقدّمهم في الثقة وتقرّبهم بالمودّة، وتُعِدّهم لحوادثِ الأمور، وتقذف بهم في معضلاتِ الخطوبِ، فيتولّون من اجتهادِهم لهم ما أوْجَبَتْ لهم منهم المحبّة الخالصة حَتّى شَرُفَ القَوْم، ونَبُلوا، وسَما ذكرهم، ونُسبوا إلى مشهور أنسابهم ومذكور بيوتاتهم .... وقد أفْضَى الأمرُ إليكم معْشَرَ الموالي، فهذا اسمكم إذ قَد رَفَعَ اللهُ عنكم العبوديّة به، وأخْرجكم من رِقّ المَلَكة، وصيّرَكم منّا وخلطَكم بنا، وأفْضَى بأنسابكم إلينا، والوَلاء لُحْمة، فمولى القوم منهم وملعونٌ من انتمى إلى غير أبيه وادّعى إلى غير مواليه)).

هذاهو حكم سليمان المستعين بالموالي، وهو حكم عادلٌ، ينمّ عن حكمة في التعامل مع الأجناس الأخرى.

إلاّ أنّ الأمرَ لا يثبتُ على حاله، إذ حرّض بعض رؤساء الموالي هؤلاء للقيام على سليمان وفضّ أمره وعصيان أمره، مما دعى سليمان أن يوجّه كتاباً إليهم، حملَ في مضامينه عصبيّة عرقيّة ضدّ هؤلاء الموالي غَرضه أنْ يعيدهم إلى صوابهم وأنْ ينبههم إلى مكانتهم الوضيعة التي كانوا عليها، ونحن لا نتهم المستعينَ بأنّه صاحبُ عصبيّة، لولا أنّ أمرَ هؤلاء الموالي قد اشتدّ، وأصبحوا يهددون الدولة تعصباً لجنسهم، والمستعين يؤكد أنّهم من بدأ بالعصيان وإثارة

---

[1] ابن بسام، الذخيرة، م١/ق١/١١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العصبيّة ضدّ الدولة، فيقول[١]: ((زعمَ كاتبُ صحيفتكم أنّه ما دامتْ خلافةُ سلفنا إلاّ بطبقتكم، ولا عَزَّتْ إلاّ بدعوتِكم، وهذا قولُ مَنْ لا عِلْم له، فلمْ تَظْهَر طبقتكم إلاّ حديثا، ولا كَثُرَ عددكم إلاّ قريبا، ولمْ تزلْ الخلافةُ عزيزةً والسلطان قائماً بأولياء الحقّ وأنصارِ الدّين العارفين بفضل الطاعة)).

ويقول ذاكراً حالهم الذي كانوا عليه: ((والمِنّةُ عليكم لمن عَرّفكم -مَعْشَر العبِدَى- بالله وأدْخلكم في دينه واستنقذكم من الضلالة، وأخْرجكم من الكفر، ثم اصطنعكم ونَوّهَ بكم بالتصرّف في الخدمة، فنلتم بذلك البُغية، وهيهاتَ أنْ تقضوا الحقّ كلّه، فأقصروا عن شأوكم فذلك أولى بكم)).

ويذهب المستعين لتصوير هؤلاء الموالي بالخدم والأتباع، وهم بعيدون عن الفِطْنة لإدارة شؤون البلاد السياسيّة، بلْ هم عبيد ولا بُدَّ أنْ يلزموا مولاهم، وهو يؤكد أنّ عصبيّتَهُم لجنسهم قد دعتهم أنْ يُوَلُّوا أمرهم واحداً منهم، إذ هُم أولى بالسياسة، فيقول[٢]:

((وأقْسَمتُم على أنّ مَن حَسَبْنَاهُ من رؤسائكم كانَ أولى بالسياسة، فأنّى لكم ذلك وما أنتم منه؟ وإنّما أنتم مُدَبَّرون مَسُوسون، أتباعٌ مَرْبُوبون، وسِرّ التدبير نازحٌ عنكم، والسياسة القويمة محجوبةٌ دونكم، ومتى بلغكم قطّ عن عَبْدٍ تَرَبَّ على مولاه فأفْلَح، أو سمعتم بجندٍ شَغَب على مُدَبّرِه فنجح؟ والحق لا يَضُرّهُ قِلّةُ أهلِهِ والباطِلُ لا ينفَعُه كثرةُ جَمْعِهِ فإنّ العاقبةَ للمتّقين)).

ويتخذ سليمان لسان التهديد تخويفاً لهؤلاء الموالي ليعودوا إلى حَضْرتِه وتستقيم الأمورُ ولا تنشقّ عصا الأمّة، فيندموا لخروجهم على الخليفة، فيقول[٣]: ((أمّا إنْ غرّكم الشيطان، وأسلمكم الخِذلان، لتقرعُنّ من النّدمِ الأسنان، بحيث لا ينفعكم أسفٌ، ولا يُجدي عليكم لَهَفٌ، والله تعالى

---

[١] ابن بسّام، الذخيرة م١/ق١/١١٢.

[٢] المصدر نفسه م١/ق١/١١٣

[٣] المصدر نفسه م١/ق١/١١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ودينه وخلافته في غنىً عمَّن عَنَدَ عليه وحادَّه ... وشقَّ عصا الأمّة واستخفَّ بحقوق الأئمة، ونازَعَ الأمرَ أهلَهُ، واعترضَ من الرأي فيما ليس من شأنِهِ)).

إنّ المستعين قد أدرك بفِطْنتِه ما تَجُرُّه العصبيّة من ويلات ودمار على الأمّة، فهو ينبّه الموالي إلى هذا الخطر، ويدعوهم إلى التوحّد في إطار الجماعة، لذا يقول لهم في نهاية كتابه: ((فاقبلوا أدَبَهُ، وانتفعوا بموعظتِه))[١].

• ردُّ أبي الأصبغ بن الأرْقم[٢] على ابن سيدة[٣]:

انْتُقِدَ ابن سيدة بأنه كانَ شعوبيّاً يفضّل العجم على العرب، ويتّهم العرب في نسبهم، ويبدو أن ابنَ سيدة قد أخذ حريته في التعبير على شعوبيته في دولة مجاهد العامري وابنه إقبال الدولة، كما حصل مع ابن غرسيّة.

فكان منه أنْ طعنَ في كتابات أبي الأصبغ ونقدها، وردها على صاحبها، فأخذ يتلقّط هناته وسقطاتِه في ألفاظِه وكلماتِه، الأمر الذي دفع ابن الأرقم للردّ عليه وعلى مأخذه على رسالة كان قد وجهها أبو الأصبغ إلى مِصْر.

---

[١] ابن بسّام، الذخيرة م١/ق١/١١٣.

[٢] عبدالعزيز بن محمد بن أرقم النميري، من رجال المعتصم بن صَمَادح، وكان قبله عند علي بن مجاهد في دانية، هو أحدّ كتاب الجزيرة المهرة، والنقدة الشعرة، جَرَتْ بينه وبين طائفة من أهل زمانه هنات، فانتقدوا عليه كلماته واستعاراته وأسند هذا النقد إلى ابن سيدة. أرسله المعتصم بن صمادح إلى المعتمد بن عبّاد، فأعجب بإخلاصه لسيده. (انظر ابن بسام، الذخيرة م١/ق٣/٣٨٦ وابن خاقان، قلائد العقيان م١-٢ ص٦١،٣٦٧).

[٣] أبو الحسن علي بن إسماعيل المُرْسي الضرير، ذكر من كُتُبه كتاب ((المُحْكَم)) في لسان العرب، وأحد من يضرب بذكائه المثل. كان حجة في نقل اللغة له كتاب ((العالم في اللغة)) نحو مئة سفر، بدأ بالفَلَك وختم بالذّرة وذُكِر له ((شواذ اللغة)) خمسة أسفار، كان منقطعاً إلى الأمير مجاهد العامري، توفي سنة ٤٥٨هـ. يُعاب عليه أنه كان شعوبياً يفضل العَجَم على العرب. انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء جـ١٨ (١٤٤-١٤٦) وابن حجر العسقلاني في لسان الميزان جـ٤/٢٠٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتظهر العصبيّة العرقية في بعض جوانب هذا الرّد والتي سنحاول أن نقف على بعضها، إذ يبدأ ابنُ الأرقم في هذا الرّد بإظهار الشفقة والحزن والاستنكار على عكوف ابن سيدة على علوم اليونان وغيرهم من الأمم وقيامه على هذه العلوم بالحفظ والعناية، في الوقت الذي نسي فيه علوم القرآن والحديث والتاريخ، بالقرقعات بسينات قاطوغورياس، فيقول ساخراً منه مستهزئاً بعلمه[1]: ((ولَم تَزَل تَتَلَقّاهُ كابراً عن كابر، وتَتَرَقّاهُ باهراً عن باهر، لَسْت ابن سمعكَ ولا عَبْدَ طَبْعِكَ تُقَلِّدُ كاتباً ساذِجاً، وتعتَقِدُ قارئاً هازِجاً، وتُقبِلُ البَصَر بلا بَصيرة، وتقفو الأثر على غير وتيرة، تُراعي الحُروب، وتتلو الصُحُف، ولا عليكَ من التَصْحيف، ولم تَقتَصر على حِفْظ سُطور من كتابِ سيبويه وشرحِ الفصيح لابن درستويه، واستظهار أوراقٍ من الغريب، والتَحفظ مع الشُروق ما تَنساهُ مع الغروب، ولم تَشُدْ إلى المخرقةِ بغرفوريوس، ولا الغطرسة بأرسطاطاليس وباري أرمينياس، وضيّعتَ علومَ القرآن، والتفننَ في حديثه -عليه السلام- وصحابته، وتفهم أعراضهِ ولغاتهِ، واجتناء زَهْرِهِ وثمراتهِ، وأغفَلتَ الكامل، والبيان وتواريخ الأزمان، ونوادر البلغاء، أهلِ اللُسنِ والبيان، وأهملتَ أشْعَارَ العرب والمحدثين)).

والكلمات التي يستخدمها الكاتب ((المخرقة، الغطرسة، الفرقعة، الصغير)) تدل على إحباطه لشأنِ ما سَعَى إليه ابن سيدة.

ويظهر أنّ ما أثار هذه الحميّة العرقيّة هو ذَهابُ ابن سيدة للاستشهاد بعلماء اليونان تأييداً لرأيه، وتركه آراء العرب ورأي القرآن وحديث الرسول ﷺ، بل هو يقدّم تلك الآراء اليونانيّة على آراء العرب والدّين وإن عارضتهما، ومن ذلك: ((ذَكَر الخِضاب فَعابَه -أي ابن سيدة-

---

[1] ابن بسام، الذخيرة م١/ق٣/٣٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذكر من خَضَّبَ فَسَفَّهَهُ وجانَبَهُ وقال: هذا خطيب اليونانيّة غليانش، وهو الذي يوثق بكلامه ويُستانَسُ، قد قال: إنّ التّسويد من الزّينة الأنيثة، فلا يستعمله من الأنام إلاّ الطينة الخبيثة))[١].

إنّ افتخار ابن سيدة بآراء علماء اليونان والاستشهاد بها قبل كلام العرب دليل على ما ذُكِر عنه من تفضيله للعجم على العرب، لذا فقد ردّ عليه العلماء وسَمّوه بـ "شعوبيّ الجزيرة".

العصبيّة الدينيّة:

أشَرنا في فَصْل الشعر أنّ المسلمين من أهلَ الأندلس لم يعرفوا التعصّب الدينيّ ضد الآخرين، إذ أعطوا أهل الديانتين من اليهود والنصارى الحريّة الدينيّة.

ولم تكن الحميّة الدينيّة تعصف في البلاد إلاّ في الوقت الذي سَعَى فيه أهل الذمّة للطعن بالإسلام والتشكيك فيه.

ولعلّ أبرز أثر ديني نثريّ يعكسُ لَنَا الحريّة الدينيّة في الأندلس، تلك الرسالة التي وجهها راهب فرنسا إلى المقتدر صاحب سرقسطة[٢]، يدعوه فيها إلى النصرانيّة، إذ يقول فيها:

((إلى الصديق الحبيب الذي نُؤمّله أنْ يكون خليلاً مدانياً، المقتدر بالله على دولة هذه الدنيا، الملك الشريف من الرّاهب أحقر الرّهبان، الراغب في الإنابة والإيمان بالمسيح يسوع ابن الله سيّدنا .... لمّا انتهى إلينا -أيّها الأمير العزيز- أمرك الرّفيع في الدّنيا وبصيرتك في تبيّن أحوالها المتغيّرة، رأينا أن نراسلك وندْعوك لتؤثر المُلْك الدائم على المُلْك الزائف الفانى))[٣].

---

[١] ابن بسّام، الذخيرة م١/ق٣/٣٨٩.

[٢] المقتدر أحمد بن سليمان بن محمد بن هود الملقب "بالمقتدر بالله"، من ملوك الطوائف بالأندلس، أعطاه والده سَرَقسطة، وبويع عليها سنة ٤٣٨هـ، وعظُمت مملكته بعد أن احتال على إخوته. (ابن سعيد، المغرب جـ٢/٤٣٦-٤٣٧، المقري، نفح الطيب جـ٣/٤٠١-٤٠٢، ابن بسّام، الذخيرة م١/ق٣/٤٢٣).

[٣] رسالة راهب/٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وممّا يؤكد هذه الحريّة الدينيّة في الدّعوة أن رسائلَ الرّاهب كانت متكررة للمقتدر، ويظهر ذلك في قوله: ((ولمّا تكررتْ علينا رسائلك ووسائلك، وتَعَيَّنَتْ علينا مفاوضتك فيما رضيناه من مسألتك ومُعارضتك فيما إختَرناه في النُّصحِ الذي يجري إليه أهْلُ الفضل وأمنا اللهُ به على ألْسنة الرُّسل))[١].

وترى أبا الوليد الباجي[٢] يردّ على الرّاهب ردّ العلماء، فلا يلجأ إلى الطّعن بشخصه ولا إلى القَدْح والسبّ، الأمر الذي يعكس لنا الثقافة الدينيّة الواسعة عند علماء الأندلس بعقائد الديانات الأخرى، ويعكس طبيعة الجدل الدّيني المتبادل بين المسلمين والنصارى في الأندلس، وهو حوار ديني يعتمد على الأدلة والبراهين والمنطق، فترى أبا الوليد يخاطب الراهب:

((وانحرفْنا عن ذلك إلى أنْ نحذّرك وننذرك، ونعذرك فيما لم يَبْلُغْكَ علمه، ولم يَتَحقّق لديكَ حكمُه، ونبالغُ في الرّفق بك، والتبيّن لك على منهج الخطبِ والرّسائل، لا عن طريق البراهين والدّلائل، مساعدة لك على مذهبك في كتابك وموافقةً لك في مقصدك، فَعَسَى أنْ يكون أقرب إلى استمالتك وأبلغ في معارضتك ومعالجتك))[٣].

ويقول في موضع آخر: ((ويَلْزَمنا الاجتهاد في النُّصح لك، والرّفق بك والحرص على أنْ تكون في جملة الأمّة المُكرّمة، ومن أهل هذه الملّة المُعظّمة الناسخة لجميع الملّل والحاكمة على سائر الفِرق، فتفوز برضى ربِّ العالمين، وتنجو من سخطه وتنال ثوابه يوم الدّين))[٤].

---

[١] رسالة راهب/٦٥.

[٢] أبو الوليد سليمان بن خلف التجيبي الباجي، ولد سنة ٤٠٣هـ بمدينة بطليموس، أديب شاعر، سمع بالعراق ودرّس وصنّف، وكان ارتحاله إلى المشرق سنة ٤٣٦هـ. وذكر من كتبه "التعديل والتجرح"، "شرح الموطأ"، "التفسير"، "اختلاف الموطأ"، "المعاني في شرح الموطأ"، توفي في المرية سنة ٤٧٤هـ. (انظر المقري، نفح الطيب جـ٢/٦٧-٦٩).

[٣] رسالة راهب/٦٥.

[٤] المصدر نفسه/٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنّ خطابَ أبي الوليد للرّاهب يدلُّ على طبيعة الحوار القائم على الخطاب العقلي المُهَذّب، البعيد عن السبّ والطعن، بل أنّ أبا الوليد يتخذ من رسالته خِطاباً دَعوياً بدعوة الرّاهب إلى الإسلام.

ومما يخرج به الباحث من هذه الرّسالة، تأكيد فكرة أنّ الإسلام لم يدعُ للعصبيّة ضدّ أصحاب الدّيانات الأخرى، بل احترمهم ودينهم. ولم تظهر الحميّة الدينيّة إلاّ عندما سَعَى حاقِد أو كافِر للطّعن بالإسلام ومحاربته كما في المثالين الآتيين:

أولاً: كتاب النّاصر لدين الله إلى الآفاق بفتح قلعة بُبَشْتَر[١]:

كانت الحرب بَيْن الناصر وابن حفصون قائمةً على أساسٍ عقائدي، بَعْدَ أنْ ثبت تاريخيّاً اعتناق ابنْ حفصون للنصرانيّة، ففي سنة ٢٨٦هـ، أظهَرَ ابنُ حفصون النصرانيّة، وكان قبلَ ذلك يُسِرّها، وانعقد عن أهل الإسلام ونابزَهم، فتبرّأ منه خلقٌ كثير[٢]. أمّا عند موته فقد تولّى ابنه جعفر دفنه مع القسيسين، فدفنوه على سُنّة دينهم، وزعموا أنّه شَهِرَ دين النصارى[٣].

ومن الأدلّة على أنّ هذه الفتنة كانت قائمة على أساس عقائدي أنّ معظم أصحاب ابن حفصون كانوا من النصارى[٤]، بل إن كتب التاريخ تجلّى الأمر أكثر بوصفها انحياز المسلمين إلى النّاصر، وأمّا أتباع ابن حفصون فهم من الكفّار والمنافقين. فرأى أكثر المسلمين حربَه جهاداً في سبيل الله[٥].

---

[١] ابن حيّان، المقتبس جـ٥/٢٢٦. وبُبَشتر: مدينة عظيمة في شرقي الأندلس كانت قاعدة العجم كثيرة الديارات والكنائس والدواميس، وصفها الكتّاب بأنها قاعدة الضلال والعناد، (انظر ابن عذاري، البيان المغرب جـ٢/١٥٠، ياقوت الحموي، معجم البلدان جـ١/٣٧٠، الحميري، الروض المعطار/٧٩).

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب جـ٢/١٣٩.

[٣] لسان الدين الخطيب، أعمال الأعلام/٣١.

[٤] ابن حيّان، المقتبس جـ٥/١١٣.

[٥] ابن حيان، المقتبس جـ٥/٢٠٢، ابن عذاري، البيان المغرب جـ٢/١٣٩-١٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويؤكد ابن حيّان خبر نصرانيّة ابـن حفصـون بعد أن حُفِر قَبْرُه وصُلِب علـى بـاب السدّة بقرطبة حيث يقول: ((إذ لاحت جليّةُ أمْرِهِ عَن ارتداده عن الإسـلام الـذي وَلِدَ عليـه، واعتقـادُهُ النصرانيّة وأبانتْ عن سوء نيّة))[١].

أمّا أولاده جعفر وسليمان وحفص، فقد ساروا على نهج ابيهم في المعاندة والكفـر والخـروج على الخلافة الإسلاميّة[٢].

إذن، فابن حفصون وصَحْبُه كانت حربهم قائمة على أساس ديني عندما سَعَوا للقضـاء علـى الإسلام وأهلِهِ.

ويبرز النّاصر في كتابه[٣] الحميّة الدينيّة، وإعزاز الله للإسلام في حربه مـع أهل الضـلال والعناد، حيث يقول[٤]:

((الحمدُ لله الذي علا فَقَهَر، ومَلَكَ فَقَدَر، وأحْكَمَ ما دَبَّر، وأعَزَّ الإسـلام ونَصَر، وأذَلَّ الكُفْرَ ودَمَّر، باعِثِ الرُّسُل ومُنْزِل الكُتُب، الذي اختصّ محمداً ﷺ بالنبوّة وشَرَّفَه بالرّسالة ... الحمدُ للهِ الذي جَعَلَ الإسلامَ نجاةَ مَنْ تمسّكَ به ومُؤدياً له إلى رحمته وجَعَلَ الشّرْكَ بـهِ خزيـةً لمـن تقلـده، وسـائقاً إلـى عذابـه، ومُسْتوجباً عليـه عقابـه، وجَعَلَ جهـادَ أهلِـه مـن فرائضـه العظمـى، وجَعَـلَ للمجاهدين لهم اليد العليا، ووعدَهم الزُّلفى في الآخرة والأولى)).

ويؤكد النّاصر في كتابه على أنّ الحـرب بيـن إسـلام وكُفْـر، وأنّ اللـه هيّأ الجيـش للإسـلام لجهاد المنافقين والمشركين السّاعين للقضاء على الدين، إذ يقول:

---

[١] ابن حيّان، المقتبس جـ٥/٢١٦.

[٢] ابن حيّان، المقتبـس جـ٥/١٥٩. ابن عـذاري، البيـان المغرب جـ٢/١٩١. لسـان الدين الخطيـب، الإحاطـة جـ٤/٣٩.

[٣] كُتِبَ هذا الكتاب سنة ٣١٥هـ، بعد فتح المسلمين لحصن بُبَشْتَر.

[٤] ابن حيّان، المقتبس جـ٥/٢٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((ثمّ إنّا لم نَزَلْ، مُذْ شرّفنا اللهُ بخلافته، واختصّنا بإمامةِ عباده، نبتغي الغاية القصوى في جهاد أعدائه، ونَدْأبُ في نَصْرِ أوْليائه، لا تلفتنا عن ذلك لفتةٌ سَآمة، ولا يُلهينا عَنْهُ تَملّي دَعَة حيث امتلأت الأرض كُفْرا وفاضت شركا، وتوطّد النّفاق، واستعجل الشّقاق))[١].

ثمّ هو يؤكد على أنّ بُنَشْتَر قد صارت مكان عزّ النصرانيّة وأهلِ الشرك، الطاعنين بالإسلام، فيقول:

((وكانَتْ مدينة بُنَشْتَر قاعدةُ الشّرك، ودارَ الكُفْر والإفك، ومكانَ عِزّ النصرانيّة وموئلها، ومَفْزَعُها وقرارتُها، وبيضَتُها المُنْتَجِعَة من أقطارِها وحَرَمها، الذي مَنْ صارَ فيه اعتصم، ومَنْ عاذَ بها سَلِم، قد امتدّت بِها المُدّة، وتداركتْ عليها النّعمة ... قَدْ عَمّت بِضرّها كُلّ بلدة، ووصلَ شَرُّها إلى كُلّ كُورة، وأقْفَرَت كُلُّ مدينة، وسَلَبَتْ كُلّ بهجة، واحتوَت على كُلّ فائدة))[٢].

ومن ثمّ تظهر صورة اندحار أهل الضلال والشّرك أمام الجيوش الإسلاميّة، ويصوّر الكتاب لنا مكان المخالفين مهزوماً مدحوراً خلا من أهل الكفار، فيقول:

((فأصبَحَتْ مدينتُه بُقْعَةُ الضّلالة، ومنبرُ الخلاف ومَعْدِنُ الغواية، بما أحاطَ بها من أسوارها وأبنيتها وقصابها، وداخِلِها من جَنّاتها ومصانعها، مَقْوِيةً مِنْ قطينها، خاوية على عروشها، كأن لم يَغْنَ بها ساكن، واستوطنها قاطن، قد أتاهم اللهُ من حيث لم يحتسبوا وقذفَ في قلوبهم الرعب[٣] بما اقترفوا، وصَارَ جميعُ ما كانوا فيه من ظِلّ العافية، وأنَقِ النعمة ثبوراً، وكلّ ما منّاهم الشيطانُ ثبورا))[٤].

---

[١] ابن حيان، المقتبس جـ٥/٢٢٦.

[٢] المصدر نفسه جـ٥/٢٢٧.

[٣] اقتباس من الآية {فأتاهم اللهُ من حيثُ لم يحتسبوا وقَذَفَ في قلوبهم الرعب} سورة الحشر، آية ٢.

[٤] ابن حيّان، المقتبس جـ٥/٢٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول عن زوال الشرك: ((... مَحْواً لمحلّة الكَفَرة الظالمين، وكسْفاً لِقَرارَةِ المشركين المعتدين، وطَمْساً على دارِ الشِّرك، وقطعاً لآثار الأفك))[١].

وتتجلى معاني الانتصار الديني بآثار هذا الفتح على جموع المسلمين، وهو يذكرهم بهذه النعمة، إذ يقول: ((ليحمدوا الله عزّ وجلّ، على عظيم ما اصطنعهُ إليهم ووهبَه لهم وليُحْدِثوا من شكره تعالى على ما درأ عنهم))[٢].

وتتضح معالم الحربِ العقائديّة بين النّاصر وابن حفصون مع أولاده، بذكر سَعْي هؤلاء النفر للقضاء على الإسلام وطمس آثاره والاستيلاء على البلاد. والناصر يظهر اعتصامه بالله وتوكلّه عليه بألفاظه التي يستخدمها في كتابه، من مثل: ((حتى يسّر الله بقدرته))، و((بفضل عون الله لنا وتأييده لنا))، و((الحمد لله)).

ثانياً: رسالةُ ابن حزم في الردّ على ابن النغريلة اليهوديّ:

يُبيّن ابن حزم في رسالته هذه سَبَب تأليفه لها، إذ عَمِد ابن النغريلة هذا إلى الطعن بالإسلام وأهله، وتأليف كتابٍ يُظهر -بزعمه- تناقض كلام الله. وبهذا يتضح للقارىء أن أهل الإسلام تعصّبوا لدينهم دفاعاً عنه.بعد أنْ تجرأ عليه أهل الديانات الأخرى. يقول ابن حزم: ((وأطْغى تَوافرُ الذّهب والفضّة عندَه همّتَهُ الحقيرة، فألّفَ كتاباً قَصَدَ فيه بزعمه إلى إبانة تناقض كلام الله -عزّ وجلّ- في القرآن اغتراراً بالله تعالى أوّلاً، ثم بملكٍ ضَعفَةٍ ثانياً، واستخفافاً بأهل الدّين بَدْءاً، ثم بأهل الرّياسة في مَجّانَةٍ عَوْداً))[٣].

ويؤكد ابن حزم على أنّ انشغال أهل الممالك من المسلمين بدنياهم، قد أنْسَاهم فعل هؤلاء الكفرة والمشركين، ويُظْهر ابن حزم ألماً وحسرة لما حلّ بالإسلام من معاداة، بقوله:

---

[١] ابن حيّان، المقتبس جـ٥/٢٣٠.
[٢] المصدر نفسه جـ٥/٢٣٠.
[٣] من رسائل ابن حزم في الرد على ابن النغريلة/٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((اللهمّ إنّا نشكو إليكَ تشاغلَ أهل الممالك من أهلِ ملّتنا بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصورٍ بتركونها عمّا قريب عن عمارةِ شَريعتهم، اللازمة لهم في مَعادهم ودار قرارهم، وبجمع أموال ربّما كانتْ سبباً إلى انقراض أعمارِهم وعوناً لأعدائهم عليهم عَن حياطة مِلّتهم التي بها عُزّوا في عاجلتهم وبها يرجون الفوْز في آجلتهم، حتى استشرفَ لذلك أهلُ القُلّةِ والذمّة، وانطلقت ألْسنةُ الكفر والشّرك، بما لو حَقّقَ النظرَ أرْبابُ الدُّنيا لاهتموا بذلك ضيعْفَ هَمّنا))[1].

ويرسم ابن حزم معالم هذا الصراع الدينيّ، إذ هو مُناصرٌ لدين الله، باحثٌ عن الحقّ، في وجه ((زنديق، دَهْريّ، خسيس))، ويختم هذه الصفات بذكر ملّته ((يهودي)) وابنُ حزم يرى بوجوب سَفْك دمِهِ لتجرّئه على الطعن بالدّين، فيقول: ((فلمّا اتّصل بي أمرُ هذا اللّعين لم أزَل باحثاً عن ذلك الكتابِ الخسيس لأقوم فيه بما أقْدَرَني اللهُ -عزّ وجلّ- عليه من نَصْرِ دينه بلساني وفهمي، والذّبّ عن ملّته ببياني وعلمي، إذ قَد عَدِمَها، المَشكى إلى الله -عزّ وجلّ- ووجود الأعوان والأنصارِ على توفية هذا الخسيس الزنديق، المستبطنِ في مذْهب الدّهْريّة باطنه، المتكفّن بثابوت اليهوديّة في ظاهِره حَقّهُ الواجب في سَفْكِ الدّماء، واستيفاء مالِهِ، وسَبْي نِسائه وولده، لِتَقَدُّمِهِ طورَهُ، وخَلْعِهِ الصَّغار من عنقِهِ وبراءَتِهِ من الذمّةِ الحاقنةِ دَمَهُ، المانعة من ماله وأهله، وحسبنا الله ونعم الوكيل))[2].

وبَعْدَ أنْ بيّن ابنُ حزم حكم الشرع فيهم، وكَشَفَ عن كفرهم، يعكفُ إلى نقض معتقداتهم وبيان فسادها، وابن حزم في عَرْضه هذا، يأتي بعبارات تدلّ على كذبهم وزورهم ... وفي الوقت نفسه يستخدم ابنُ حزم البرهان العقلي لبيان كذبهم وسُخْفِ معتقداتهم، فيقول: ((اعلموا أيّها النّاس، علّمنا اللهُ وإيّاكم ما يقرّبنا منْه، ويزلفُ حَظْوَتَنا لديه أنّ اليهودَ أبْهتُ الأمم وأشدّهم

---

[1] من رسائل ابن حزم في الرد على ابن النغريلة/٤٦.

[2] المصدر نفسه/٤٦-٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استسهالاً للكذب، فما لقيتُ منهم أحداً قطُّ مجانباً للكذب القبيح على كثرة من لقينا منهم ... إلى أن ظفرتُ بسرِّهم وضعفِ عقولِهم أن الملائكة الذين يُحصون أعمال العباد لا يفقهون العربيّة، ولا يُحسنون من اللغاتِ شيئاً إلاّ العبرانيّة، فلا يُكتبُ عليهم كُلُّ ما كذبوا فيه بغير العبرانيّة، فحسبكم بهذا المقدار من الجهلِ العظيم والحمق التامّ))[١].

لَقَد أدرَك ابنُ حزمٍ أنّ ظهور اليهود على المسلمين كان بتغافل الحكام المسلمين عنهم، بل وبتقريبهم ورفع منزلتهم في الدولة بَعْدَ أن اتخذ منهم الوزراء والكتّاب، لذا فإن ابن حزم يُذكّر بعداوة اليهود للمسلمين، وعصبيتهم ضدّ الدّين الحنيف، مُستشهداً على ذلك بآيات قرآنية من مثل قوله تعالى: ﴿يا أيّها اللذين آمنوا لا تتخذوا اليهودَ والنّصارى أولياء﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة﴾[٣].

وبهذا يؤكد ابنُ حزم أن مفهوم العصبيّة الدّينيّة هو حرص أهل الذمّة على الانتقاص من الإسلام ودفاع أهله عنه في وجههم.

العصبيّة الإقليميّة ((الجغرافيّة)):

ظهرت النزعة الدفاعيّة عن الأندلس وأدبها، في الوقت الذي ازدهرت العلوم، ونما الأدب الأندلسيّ نموّاً راقياً، جارى الأدب المشرقيّ، وتفنن أهل الأندلس في اختراع العلوم، ومع هذا كُلّه فإنّ العِلْم الأندلسي بقي مظلوماً، من أهله أولاً، إذ انشغلوا عن تدوينه والاعتناء به بالعلم والأدب المشرقي، ومن أهل المشرق ثانياً إذ نظروا إلى الأندلسيين نظرة دونيّة وبخاصّة في الأدب، إذ هم مجاورون للأعاجم، وهذا أمرٌ يعيب الأدب إذ لا يجعله عربيّاً صافياً.

---

[١] من رسائل ابن حزم في الرد على ابن النغريلة/٤٦-٤٧.

[٢] سورة المائدة، آية/٥١.

[٣] سورة الممتحنة، آية/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يُضاف إلى الأمر السابق، أنّ الأندلسيين أنفسهم، كانوا يحسّون إحساساً عميقاً بالنقص إزاء المشرق، على الرغم مما تميّزوا به من ذكاء وفطنة وترف[١].

إنّ هذا الإحساس بالظلم للآداب والعلوم الأندلسية قد ولّد اتجاهاً أدبياً ونقدياً، موضوعه الدفاع عن الأندلس، والتعصّب لعلومها، والجد في تدوينها وإبرازها بالصورة التي تستحقها إزاء علم المشارقة.

وأول ما يستوقف الباحث هو مقدّمة أبي الوليد الحميري (ت ٤٤٠هـ) لكتابه ((البديع في وصف الرّبيع))، إذ يُصرّح فيها أبو الوليد، أنّه سيقصر كتابه هذا على ذكر أشعار الأندلسيين، معللاً رأيه بأن أوصاف الأندلسيين لم تكثر في الأسماع، ولم يملّها النّاس، ويبدي الكاتب حزنه وألمه على إغفال أهل بلده لتدوين أدبهم، إنكاراً لفضلها، فيقول[٢]: ((ولَسْتُ أودعه إلاّ ما أذكر لأهل الأندلس خاصةً في هذا المعنى، فتردها شيّقة، وتزودها تيّقة وإنّما ذلك لتضييع أهل بلدهم لأكثرها وغفلتهم عن جُلّها إنكاراً لفضلها مدّةَ بقاءِ أهلها، فإذا انقرضوا تأسّفوا بقدر ما كانوا تَتَسَّفوا وحينئذٍ لا يجدونَ إلاّ قليلاً يغيبُ في كثيرها، وثماداً يفيضُ عند بحورها)).

ويعلّلُ أبو الوليد سببَ ابتعاده عن الشّعر المشرقيّ بأنّ النّفوس قد ملّتْ كثرة تكراره، في الوقت الذي يؤكد أنّ للأندلسيين أدباً مستجاداً، تميّز عن الشّعر المشرقيّ بجدّته وتعلّق النفوس به، وأبو الوليد -هنا- يجعل للأندلسيين أدباً يخصّهم ويعبّر عن أحاسيسهم ومشاعرهم، وهو أدبٌ راقٍ تستعذبه النفس: ((وأمّا أشعار أهل المشرق، فقد كَثُرَ الوقوفُ عليها والنظر إليها حتّى ما تميل نحوها النفوس، ولا يروقها منها العِلْقُ النّفيس، مع أنّي استغني عنها، ولا أحْوَجُ إليها

---

[١] جودت الرّكالي، في الأدب الأندلسي/٤٠.

[٢] أبو الوليد الحميرى، البديع في وصف الرّبيع/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بما أذكره للأندلسيين من النثر المبتدع والنظم المخترع، وأكثر ذلك لأهل عصري إذ لم تَغبْ نوادرهم عن ذكري))[١].

وبالرّغم من تميّز أهل المشرق بالشّعر وتدوينه، إلاّ أنّ أهل الأندلس أكثر براعة وقدرة على نظم التشبيهات والوصف، ((لكن أهل المشرق على تأليفهم لأشعارهم، وتثقيفهم لأخبارهم مُذْ تكلّمت العربُ بكلامها، وشُغلتْ بنثرها ونظامها إلى هلّم جرّا، لا يجدونَ لأنفسهم من التشبيهات في هذه الموصوفات ما وَجَدْتُه لأهلِ بلدي على كثرةِ ما سقط منها عن يدي بالغفْلة التي ذكرتُها عنها .... وهو البابُ الذي تضمّنَهُ هذا الكتاب، فلهم فيه من الاختراع والابتداع الرّائق، وحُسْنِ التّمثيل والتّشبيه ما لا يقوم أولئك مقامهم فيه))[٢].

إذن فكتاب ((البديع في وصف الربيع)) قَد جاء دليلاً على تفوّق الأندلسيين على المشارقة في التشبيهات، وإنصاف شِعرهم.

ويُوضّح أنّ الكاتب من المفكرين الأندلسيين الذين تميّزوا بالوقوف بجرأة في وجه منْ يتعصّب للمشرق، فلم يقتصر على التحسّر والشكوى من إهمال الإبداع الأندلسي، وإنما انتصَرَ لأدبه على نحو فعلي حين صنّف كتابه[٣].

أمّا ابن بَسّام (ت ٥٤٢هـ) فيوضح في مقدمة كتابه ((الذخيرة)) أنّه قد وضعَ مؤلّفه هذا بدَافِعِ الغيرة على بلاده، وأنّه غير راضٍ لما يلاقيه أدباء الأندلس من انصراف أبناء وطنهم عنهم، وعدم اكتراثهم بما ينظمونه من شعر أو يكتبونه من نثر، للتعلّق الشديد بكلّ ما هُو آتٍ من المشرق، فيصف حال هذا الابتعاد عن أدبِ بلاده: ((إلاّ أنّ أَهْلَ الأفق، أبَوْا إلا مُتابعة أهل المشرقِ، يَرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوعَ الحديث إلى قتادة، حتّى لو نَعَقَ بتلك الآفاق

---

[١] أبو الوليد الحميري، البديع في وصف الربيع/٤.
[٢] المصدر نفسه/٤.
[٣] جمانة باشا، الأندلسية وأثرها في أدب الأندلس ص/٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غراب، أو طَنَّ بأقصى الشام والعراق ذباب، لَجَثوا على هذا صَنَماً، وتَلَوا ذلك كتاباً محكماً، وأخبارهم الباهرة وأشعارهم السائر مَرْمى القصيّة[١])).

ويلوم ابنُ بَسّام النّاسِ لعزوفهم عن أدب الأندلس، إذ يرى من الأدباء من أبدع في النثر والشعر، وكثر إبداعهم، وهو يقرن حديثه، بأسماء مشرقيّة، لو سمعت هذا الادبَ، لا نكبّت عليه تجلّه وتقدّره: ((وما زال في أُفقِنَا هذا الأندلسي القصيّ إلى وقتنا هذا من فُرسانِ الفَنَّين،وأئمة النّوعين، قومٌ هم ما هم، طيبَ مكاسير، وصفاءَ جَواهر، وعذوبةَ المؤرَّق لَعِبوا بأطرافِ الكلامِ المُشَقَّق، وحَذَوا بفنون السِّحر المُنَمّق، حُذَاءَ الأعشى ببناتِ المحلّق، فَصَبّوا على قوالب النّجوم، غرائبَ المنثور والمنظوم، نَثْرٌ لو رآهُ البديعُ لنسيَ اسمَه، أو اجتلاه ابنُ هلالٍ لولاهُ حُكمَه، ونظْمٌ لو سمعه كثيّرٌ ما نَسَبَ ولا مَدَح[٢])).

وتبرز مَعاني العصبيّة والغيرة، عندما يعبّر ابن بَسّام عن خوفه من اضمحلال الأدب الأندلسي، لانشغال أهله عنه، الأمرُ الذي دفعه لوضع مصنّفة العظيم هذا.

ويتساءل ابن بَسّام إنْ كانَ العلم قد خُصَّ بأهل المشرق دون غيرهم: ((فَغَاظني منْهُم ذلك، وأنِفْتُ مما هنالك، وأخَذْتُ نفسي بجمع ما وجدت من حَسَناتِ دهْري، وتتبُّع محاسن أهل بلدي وعَصري، غيرةً لهذا الأفُقِ الغريب أنْ تعودَ بدورهُ أهِلَّه، وتصبَحَ بحارُهُ ثماداً مضمحلّة، مع كثرةِ أدبائه، ووفور علمائه، وقديماً ضيّعوا العلْم وأهلَهُ، ويا رُبَّ محسنٍ ماتَ إحسَانه قبلَهُ، وليْتَ شعْري مَنْ قَصَرَ العِلمَ على بعضِ الزّمان، وخَصَّ أهل المشرقِ بالإحسان[٣])).

---

[١] ابن بسام، الذخيرة م١/ق١/١٢.

[٢] المصدر نفسه م١/ق١/١٢.

[٣] المصدر نفسه م١/ق١/١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإنصافاً لأهل الأندلس، وإبرازاً لأدبهم أمام المشارقة، يتمنّى ابنُ بسّام أنْ يكونَ ما جمعه من أدبٍ يزيد على ما عند أهل المشرق: ((حَتّى ضَمَّنتُ كتابي هذا من أخبارِ هذا الأفق، ما لعلي سَأُربي به على أهل المشرق[١])).

ويدلل على صدق ما ذهب إلى من تَميّز أهْلِ الأندلس، برأي أبي عليّ القالي فيهم، وهو استدلالٌ له دلالته إذ أخذ بعين الاعتبار أنّ أبا عليّ القالي عالم مشرقيّ وفد على الأندلس.

يقول ابن بَسّام: ((فبلغني أنّه كانَ يَصِلُ كلامَهُ هذا بالتعجّب من أهل هذا الأُفق في ذكائهم، ويتغطى عنهم عند المباحثة والمفاتشة[٢])). وممّا لا شكّ فيه أن كلمة القالي قد أمَدّتْ بالغذاء بَعْضَ عواطفِ الأعلام الذين جَمَحَتْ بهم الحميّة لبلادهم والعصبيّة لرجالهم[٣].

إنّ عصبيّة ابن بسّام للأندلس نَابعةٌ من خوفه على علومها وآدابها من الاندثار لإهمال أهلها، إذ هم منشغلون عنها بكل ما هو مشرقي، ونابعة من حرصه على نشر أدب الأندلس بين النّاس ليتسنّى لهم إعادة النظر في أحكامهم بأنّ الأندلس أقل علماً ودراية وقدرة.

إنّ أسلوب ابن بسام في حديثه عن الأندلس وعلومها، يُشْعرُ القارئ بنزعة الكاتب القَويّة للدّفاع عن بَلده وأدبائها، فتراه يقول عند التّعريف بابن زيدون: ((كانَ أبو الوليد صاحبَ منثور ومنظوم، وخاتمة شعراء مَخْزوم، أحدُ مَنْ جَرّ الأيّام جَرا، وفات الأنَام طُرّاً، وصَرَفَ السلطانَ نفعاً وضَرّاً، ووسّعَ البيان نظماً ونثراً، إلى أدب ليس للبحر تدفقهُ، ولا للبدر تألقهُ، وشعر لَيْسَ للسحرِ بيانه، ولا للنجومِ الزهرِ اقترانه وخطٌ من النثر غريب المباني، شعري الألفاظ والمعاني[٤])).

---

[١] ابن بسّام، الذخيرة م١/ق١/١٦.

[٢] المصدر نفسه م١/ق١/١٥.

[٣] عبدالرحمن الفاسي، محاولة للدّفاع عن نَرّ العُدْوَة، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد ١٧، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.

[٤] ابن بسام، الذخيرة م١/ق١/٣٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول عن قرطبة: ((هي كانتْ مُنْتَهَى الغَايَة، ومَرْكز الرّاية، وأُمّ القرى، وقرارة أهلِ الفضلِ والتُقَى، ووطن أولي العِلمِ والنُهَى، وقلْبَ الإقليم، وينبوعَ مُنَفَجَرِ العلوم، وقبّة الإسلام، وحضرةَ الإمام، ودارَ صَوْبِ العقول، وبستان ثمرة الخواطر، وبحرَ دُرَرِ القرائح، ومن أُفقها طلعتْ نجومُ الأرض، وأعلامُ العَصْر، وفرسَانُ النّظم والنثر، وبها انتشأتْ التآليفات الرّائقة، وصُنّفتْ التصنيفات الفائقة[١])).

ويبدو أنّ العصبيّة للأدب الأندلسي -المظلوم- قد دفعت ابن خاقان لتأليف ديوانه: ((ليُعْلَم أنّ بالأندلس أدباً أحَالتْ دونه العوائق ولفّعَتْهُ[٢])). لذا فإنّ ابن خاقان، قد سَلَك مَسلك ابن بَسّام في التعريف بأدباء عصره، إذ يمجّدهم ويرفع من شأنهم وأدبهم.

إنّ مقدمتي ((أبي الوليد الحميري، وابن بسام)) من النماذج النثرية، التي صوّرت لَنَا حرص أدباء الأندلس على الدفاع عن إقليمهم وإبرازه بأحسن صوره، إزاء الأدب المشرقي.

وتكتمل صورة العصبيّة للأندلس برسالتين نثريتين سنقف معهما، لإبراز معنى الحرص على الدفاع عن الأندلس والانتصار لها ولأدبائها.

أولاً: رسالة أبي المغيرة عبدالوهاب بن حزم[٣]:

كان السبب في كتابة أبي المغيرة رسالته أنّ أبا علي بن الربيب القروي[٤]، كتب إليه رسالةً، يذكر فيها تقصير أهل الأندلس في التأليف في محاسن علمائهم وفضائل بلدهم، وتاريخهم.

---

[١] ابن بسّام، الذخيرة م١/ق١/٣٣.

[٢] ابن خاقان، قلائد العقيان م١-٢/٤٤.

[٣] عبدالوهاب بن أحمد بن عبدالرحمن بن سعيد بن حزم، من أهل قرطبة، يكنّى أبا المغيرة، كان من المقدّمين في الآداب والشعر والبلاغة، وهو ابن عم العالم أبي محمد بن حزم. قال ابن حيان توفي سنة ٤٣٨هـ، وقال الضبي والحميدي مات قريباً من من عام ٤٢٠هـ. (ابن بسام الذخيرة م١/ق١/١٣٢، الضبيّ بغية الملتمس جـ٢/٥١١، الحميدي جذوة المقتبس جـ٢/٤٦١، ابن بشكوال الصلة ق٢/٣٨٠-٣٨١).

[٤] ابن بسّام الذخيرة م١/ق١/١٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتعجّب القروي من أمر أهل الأندلس، فعلى الرغم مما عُرف عَن الاندلس وأهلها من فضل، وما عُرف عنها من الأدب والعلم، ومحبّة أهلها لهما، إلاّ أنّهم قد قصّروا في تخليد هذه المآثر، وأعرضوا عن وضع المصنفات التي تحيي ذكر علمائهم يقول عن فضل الأندلس وأهلها:

((إنّي فكّرت في بَلَدكم أهلَ الأَندلس، إذ كانَ قَرارَة كُلّ فَضْل ومقصدَ كُلّ طرفة، ومورِدَ كُلّ تحفة، إنْ بارتْ تجارة أو صناعة فإليكم تجلب، وإنْ كَسَدَت بضاعَة فعندكم تنفقُ، مع كثرةِ علمائه، ووفور أدبائه، وجلالَةِ ملوكِهِ، ومَحَبَّتهم للعلم وأهله، ورَفْعهم مَن رَفَعَهُ أدَبُهُ، وكذلك سيرتُهم في رجال الحرب يُقَدّمونَ مَن قَدَّمَتْهُ شجاعَتُهُ، وعَظُمتْ في الحروب نكايتُهُ، فَشَجْعَ عِنْدَكم الجبان، وأَقْدَمَ الهيبان، ونَبُهَ الخَامِلُ، وعَلُمَ الجاهلُ، ونطق العَيِيّ، وشعر البكيّ، واستَنْسَرَ البغاث، وتشعْبَنَ الخفّاث، وتنافسَ النّاس في العلوم[1])).

وبعد هذا الإطراء لما وَصَلَ إليه أهل الأندلس من علم، يعطف القروي لذكر مجالات التقصير عندهم حيث يقول:

((ثُمّ هم مع ذلك في غاية التقصير ونهاية التفريط من أجل أنّ علماء دَوّنوا فضائلَ أعيانهم وقَلّدوا الكتبَ مآثِرَ أقطارهم، وأخبارَ الملوك والأمراء، والكتابِ والوزراء، والقضاة والعلماء، فأبقَوا لهم ذِكْراً في الغابرين، ولسانَ صِدْقٍ في الآخرين، وعلماؤكم مع استظهاركم على العلوم، كُلُّ امرىء منهم قائمٌ في ظلّه لا يَبْرَح، وثابتٌ على كَعْبَةٍ لا يتزحزح، يخافُ إن صنّفَ أن يَعنّف، أو تخطّفهُ الطيرُ أو تهوي به الريحُ في مكانٍ سحيق، لم يُتْعِبْ نَفْساً أحدٌ منهم في مفاخر بلده، ولم يستعملْ نقْشا في فضائل ملوكه ولا بَلّ قلماً بمناقب كتّابه ووزرائه، ولا سَوّد قرطاساً بمحاسن قضاتِهِ وعلمائه[2])).

---

[1] ابن بسّام، الذخيرة م١/ق١/١٣٤.

[2] المصدر نفسه م١/ق١/١٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعلل القروي التقصير هذا، في سَعْي علماء الأندلس إلى تقليد مَن سبقهم من العلماء وانشغالهم عن علمهم. ((ولكنّ هَمَّ كُلّ أحدٍ منهم أنْ يطلبَ شأوَ مَن تقدمَه من رؤساء العلماء[١])).

أُوضَحَ ابن بَسّام أنّ رَدّ أبي المغيرة قد خرج إلى حَدّ الإطالة في الانتصار للأندلس، وذكر مصنفات أهل الأندلس، ترك ابن بسّام ذكرَها لشهرتها في الآفاق، يقول أبن بسام: ((وخَرجَ أبو المغيرة في رسالته هذه إلى التطويل، وبالغَ في الاجتجاج بفصول، هي عادلةٌ عن هذه السبيل، وختَمَها بذكر جُمْلَةٍ من تواليف أهلِ الأندلسِ أضربْتُ عن تسميتها لشُهْرتها[٢])).

أطرى أبو المغيرة في رسالته على مدح القروي لأهل الأندلس، واشتهارهم بالعلم، إلاّ أنّ القروي قد ظلم هؤلاء العلماء باتّهامهم أنهم مقصّرون في تدوين أخبارهم: ((وهؤلاء الذينَ أنْضَيْتَ في وَصْفِهم جيادَ مَدْحِك، وهتكْتَ ظلامَهُم بغُرّةِ صُبْحِك، على غير هذا الرأي مقيمون، وبخلافِ هذا المذهبِ قائلون، فَولّيْتَ في حَيْزٍ وعَزَلْت، وارتَفَعْتَ في حالٍ ونَزلْت، وأتيْتَ بغايةِ المُحال، وهو إثباتُ الضدّين في حال[٣])).

وتظهر لهجة الحسرة والإحساس بالغُبْنِ في حديث أبي المغيرة عن إجحاف الأندلسيين، وإهمال النّاس لذكر أدبهم والتشهير بهِ، على الرغم من رقيّ هذا الأدب وعلو منزلته وشأنه، يقول: ((ما أَشْبَهَنَا بالغريبة التي خيرُها يُدْفَن، وشَرُّها يُعْلَن، يُتْعِبُ أحَدُنا نَفْسَه، ويُرْهِفُ حِسَّه، ويعارضُ السّيف بفهمه، والبحرَ بعلمهِ، والنّار بذكائه،والزّمان بمضائه، ونتائجُ فكره محجوبةٌ وبناتُ صدره غيرُ مخطوبة .... وإن كُنْتَ جَاهَرْتَنا -وحقكَ- بالظّلْمِ مجاهَرَةً أنا أعجبُ كيفَ

---

(١) ابن بسّام، الذخيرة م١/ق١/١٣٤.

(٢) المصدر نفسه م١/ق١/١٣٩.

(٣) المصدر نفسه م١/ق١/١٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انقادَ كريمُ طبعكَ لها، وأعجَبُ أيضاً من بُخوعي لك، ووقوفي عن الانتصاف منك، وأنا أعلَمُ أنّ عندكم لنا تواليفَ تطيرون بها))[١].

إذنْ فأبو المغيرة يردّ على المقري ما اتّهم به علماء الأندلس برسالة عَرَضها بيانُ كتابات أهل الأندلس كما في جملته: ((وأنا أعلم أنّ عنكم لنا تواليف تطيرون بها)).

وعلى الرّغم من قلّة ما وصل إلينا من هذه الرسالة، إلا أنّها أوْضَحت عن إحساس الأندلسيين بذاتهم، بعدما أدركوا قيمة وطنهم وبلدهم، فتعلقوا بهذا الوطن وأصروا على نشر علمه، والدفاع عنه أو حتى التعصب له في وجه مَنْ طعن بإنجازاته الحضاريّة العلميّة.

ثانياً: رسالة ابن حزم في فضل الأندلس وذكر رجالها:

وقفَ ابن حزم على رسالة ابن الربيب في الأخذ على أهل الأندلس تقصيرهم في تدوين فضائل بلدهم عند أحد أصدقائه.

ويلفت نظر ابن حزمٍ من ذلك الكتاب إشارةُ أبي الربيب: ((أنّ علماءَ بلدنا في الأندلس، وإنْ كانوا في الذروة العليا من التمكن بأفانين العلوم وفي الغاية القصوى من التحكم على وجوه المعارف، فإنّ هِمَمُهُم قد قَصَّرت عن تخليد مآثر بلدهم، ومكارم ملوكهم، ثم تَعَدَّى ذلك إلى أنْ أخْلى أربابَ العلوم منّا من أنْ يكون لهم تأليف يحيي ذكرهم، ويبقى علمهم، بل قطع على أنْ كُلَّ واحد منهم قد مات فدُفِن علمه معه، وحقق ظنّه في ذلك، واستدلّ على صحته عند نفسه، بأنّ شيئاً لو كان موجوداً لكان إليهم منقولاً، وعندهم ظاهراً، لِقُرب المزار، وكثرة السُّفّار، وتردُّدنا إليهم، وتكرُّرهم علينا[٢])).

---

[١] ابن بسّام، الذخيرة م١/ق١/١٣٩.

[٢] المقري، نفح الطيب جـ٣/١٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذن، فالرسالة ردّ على ما اتّهم به أبو الربيب، أهلَ الأندلس من التقصير في إثبات فضائل بلدهم. وهو يؤكد أنّ كتابه هذا لتخليد مآثر ومؤلفات الأندلس، إضافة لذلك فهو يذكّر مَنْ غاب عنه فضلُ الأندلس وأهلها، فيقول: ((وفي وصول كتابي على هذه الهيئة حيثما وصل، كفاية لمن غاب من أخبار تأليف بلدنا[١])).

ومهما يكن من أمر، فإنّ الحميّة والنزعة الدفاعية عن الأندلس هما اللتان وجّهتا ابن حزم لوضع رسالته، ويبدو أنّ من نتاج هذه الحميّة أنّ ابن حزم في دفاعه عن الأندلس يخاطبها بـ((أندلسنا، بلدنا)) واضعاً من نفسه محامياً ومدافعاً عما اختُصّ به أهل بلدهم.

يذهب ابن حزم في بداية رسالته إلى التأكيد على فضيلة الأندلس بالاستشهاد بحديث عن النبيّ ﷺ أخبر فيه أنّ أناساً من أمته يركبون البحر، بصفات الملوك على الأسرّة. إذ يؤكد ابن حزم أنّ في هذا الدين إخبارٌ عن الأندلس وأهلها، فيقول: ((لو لم يكن لأندلسنا إلا ما رسول الله ﷺ بَشّر به ووصف أسلافنا المجاهدين فيه بصفات الملوك على الأسرّة في الحديث الذي رويناه من طريق أبي حمزة أنس بن مالك .... لكفى شَرَفاً بذلك يَسُرُّ عاجلَهُ ويغيظ آجلَهُ[٢])).

ويسهب ابن حزم، مستخدماً قدرته البلاغية، في إثبات أنّ المقصود في الحديث الشريف هم أهل الأندلس: ((فإنْ قال قائل ... وما الدليل على ما ادّعيته من أنّه ﷺ عَنى الأندلس حتماً، ومثلُ هذا من التأويل لا يتساهلُ فيه ذو ورع دون بُرهان واضح وبيان لائح، لا يحتمل التوجيه، ولا يقبل التّجريح، فالجواب، وبالله التوفيق، أنّه ﷺ قد أُوتي جَوامعَ الكَلِم، وفَصْلَ الخِطاب، وأُمِرَ بالبيان لما أوحي إليه، وقد أخبر في ذلك الحديث المتصل سنده بالعدولِ عن العدول، بطائفتين من أمّتِهِ يركبونَ ثبجَ البحر غزاةً واحدة بعد واحدة، فسألته أُمُّ حرام أن يدعُوَ ربَّه أنْ يجعلها منهم،

---

[١] المقري، نفح الطيب جـ٣/١٦٠.

[٢] المصدر نفسه جـ٣/١٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأخبرها ﷺ .... ولا سبيل أنْ يُظَنّ به وقد أوتي ما أوتي من البلاغة والبيان، أنّه يذكرْ طائفتين قد سمّى إحداهما أولى إلا والتالية لها ثانية ....[١])).

لقد كان الغرضُ من استدلال ابن حزم بهذا الحديث الشريف، إثباتُ عظيم مكانة الأندلس عن المسلمين، إذ بَشّر الرسول ﷺ بفتحها، وأبان عن صفات مَنْ يفتحها بانهم ((الملوك على الأسرّة)).

ويبدو أنّ الاستدلال بالأحاديث النبويّة الشريفة لبيان فضل الأندلس أمرٌ قد شاع بين علمائها وأدبائها، وذلك لعلمهم ما للحديث النبوي من أثر في النفوس، وحجيّة في البيان، فالضبيّ في كتابه بغية الملتمس يستعين بالحديث النبويّ لإبراز الصورة البهيّة للأندلس، وأنّ النبي ﷺ قد خَصّ ساكنيها بأنّهم أهلُ الحقّ في قوله: ((لا يزالُ أهلُ الغرب ظاهرين على الحقّ حتّى تقومَ الساعة)) لأنّ هذا النصّ وإنْ كانَ عامّاً لما يقعْ عليه، فللأندلسِ منهُ حظٌّ وافرٌ لدخولها في العموم ومزيةٌ لتحقُّقِها بالغربِ، وأنّها آخرُ المعمور فيه[٢].

ثُمّ ينتقلُ ابن حزم لمدحِ قرطبة مكان ولادتِهِ،ويبدو أنّ كتّابَ الأدب في تلك الفترة قد عنوا في عصبيتهم بالحديث عنِ المكان وربطه بالإنسان، فالقروي في رده على ابن غرسيّة قد ذمّ ((القسطنطينية ورومية)) أمّا ابن حزم فيجدُ أنّ من قبيل الانتصار للأندلس ولمدنها أنْ يشيد بقرطبة وربط ذلك بما اتّصفَ به أهلها من ذكاء وفهم وفطنة: ((وأمّا في قسم الأقاليم فإنّ قرطبة، مسقطُ رؤوسنا، ومَعَقُّ تمائنا، مع سِرِّ مَنْ رأى في إقليم واحد، فلنا من الفهمِ والذّكاء ما اقتضاه إقليمنا .... فلها من ذلك على كلّ حال، حظٌّ يفوقُ أكثر البلاد، بارتفاع أحد النيرين بها تسعين دَرَجة، وذلك من أدلّة التمكُّن في العلوم والنّفاذ فيها عند مَنْ ذكرنا، وقد صدق ذلك الخبر،

---

[١] المقري، نفح الطيب جـ٣/١٦١.

[٢] الضبيّ، بغية الملتمس جـ١/٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأبانتْهُ التجربة، فكانَ أهلها من التمكّن في علوم القراءات والروايات، وحفظ كثير من الفقه والبصر بالنحو والشعر، واللغة والخبر والطبّ والحساب والنجوم بمكان رَحبٍ واسع العطنِ، متنائي الأقطار، فسيح المجال[١])).

وابن حزم في رسالته ينطلق وفق قواعد منهجيّة علميّة منظّمة، لذا لم يترك الأمور تذهبُ اشتاتاً دون أنْ يدرك القارئ مرمى كلامِهِ، ويبدأ ابنُ حزم أولى منهجيّاته العلميّة هذه، بتحديد من هو الأندلسي استناداً إلى مكان الهجرة: ((وذلك أنّ جميعَ المؤرخين من أئمتنا السالفين والباقين، دون محاشاة أحدٍ، بل قد تيقّنا إجماعهم على ذلك، متّفقون أنْ ينسبوا الرجلَ إلى مكان هجرتهِ التي استقرّ بها، لم يَرْحل عنها رَحيلَ تَرْك لسكناها إلى أنْ مات[٢])).

وهو بهذا يجعل زرياباً وأبا عليٍّ القالي -على سبيل المثال- من الاندلسيين على الرّغم من أنهما مشرقيّان، لانّ العبرة في المكان الذي اتّخذه الرجل للاستقرار فيه، وهما فيمن هاجرَ إلينا فنحنُ أحقُّ به، ويؤكد أنّ: ((مَنْ هاجرَ منّا إلى غيرنا فلاحَظٌ لنا فيه، والمكان الذي اختاره أسعد به[٣])).

ولا شك أنّ هذا تمام المنهجية العلميّة، والإنصاف الأدبي، كما أوضح ابن حزم: ((والعدلُ أولى ما حُرِصَ، والنَّصَفُ افضَلُ ما دُعيَ إليه[٤])).

يبدأ ابن حزم دفاعَه عما اتُّهِم به الأندلسيون، ببيان ظلم هذا الادّعاء، والظّلم الذي وقع على علماء الأندلس، وهو يردّ على ابي الربيب أنّ الأندلسيين إنْ كانوا قد قصّروا في التأليف بما

---

[١] المقري، نفح الطيب جـ٣/١٦٣.

[٢] المصدر نفسه جـ٣/١٦٤.

[٣] المصدر نفسه جـ٣/١٦٤.

[٤] المصدر نفسه جـ٣/١٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يخصُّ بلدهم، فإنّ هذا التقصير قد شَمِل بلد الكاتب نفسه ((القيروان)) وبغداد وغيرها ... وابنُ حزم ينفي التهمة عن بلده، ويمهّد للحديث عن فضلها في العلم:

((وهذه بغداد حاضرةُ الدُّنيا ومَعْدِنُ كُلّ فضيلة، والمحلّة التي سبق أهلُها إلى حَمْل ألوية المعارف والتدقيق في تصريف العلوم ورقّة الأخلاق والنباهة والذكاء وحدّة الأفكار ونفاذ الخواطر، وهذه البصرة وهي عين المعمور في كُلّ ما ذكرنا، وما أعلمُ في أخبار بغداد تأليفاً غير كتاب أحمد بن أبي طاهر، وأما سائر التواريخ التي ألّفها أهلُها فلم يخصّوا بلدَهم بها دونَ سائر البلاد ....

وأمّا الجبال وخراسان وطبرستان، وجُرْجان، وكِرْمان، وسجستان، والريّ، والسِّنْد، وأرمينيّة وأذربيجان، وتلك الممالك الكثيرة الضخمة فلا أعلم في شيءٍ منها تأليفاً قُصِدَ به أخبارُ ملوك تلك النواحي وعلمائها وشعرائها وأطبائها))[1].

إذن، فالتقصير ليس خاصّاً بالاندلس، ولا بعلمائها، حتّى تكالَ عليهم التُّهمُ والادعاءات.

لقد أدرك ابنُ حزم أنّ العلم في الاندلس بلغ أوجَهُ،والتأليف في ذكر موطنه وتاريخه وذكر فضائله وعلمائه قد عَمّ وأزدهر، وهو يدرك أنّ التقصير -إن وُجِد- كامنٌ في نشر هذه العلوم، فقد ذهب أهل موطنه إلى التقليل من شأن ما ألّف الأندلسيون والتمسّك بكل ما هو مَشْرقيّ، مهملين علم بلدهم: ((أمّا جهتنا فالحكم في ذلك ما جَرَى في المثل السائر: ((أزهَدُ النّاسِ في عالم أهْلُهُ)) وقرأتُ في الإنجيل أنّ عيسى -عليه السلام- قال: ((لا يفقدُ النبيُّ حُرْمَتَه إلاّ في بلده)) وقد تيقنّا ذلك بما لقي النبيّ ﷺ من قريش وهم أوفرُ الناسِ أحلاماً وأصحُّهم عقولاً وأشدّهم تثبُّتاً، مع ما خصُّوا به من سكناهم أفضلَ البقاع ...))[2].

---

[1] المقري، نفح الطيب جـ٣/١٦٥.

[2] المصدر نفسه جـ٣/١٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتظهرُ مشاعر الألم والحسرة، عندما يعبّر ابنُ حزم عمّا جَرَى في الأندلس من التقليل بشأن العلماء، وانتقادهم، والحطّ من إبداعاتهم، والتسفيه بعقولهم وفطنتهم: ((ولا سيّما أندلسنا فإنّها خُصَّت من حَسَدِ أهلها للعالم الظاهرِ فيهم الماهر منهم واستقلالهم كثير ما يأتي به، واستهجانهم حسناتهِ، وتتبعهم سقطاته وعثراته وأكثرُ ذلك مُدّةَ حياتِهِ بأضْعَاف ما في سائر البلاد، إنْ أجادَ قالوا: سارق مُغِير، ومُنْتَحِلٌ مُدّعٍ، وإنْ توسّطَ قالوا: غثٌّ باردٌ وضعيفٌ ساقِط، وإنْ باكرَ الحيازة لقصبِ السبق، قالوا: متى كان هذا؟ ومتى تعلّم؟ وفي أيِّ زمانٍ قرأ؟ ولأمّهِ الهَبَل ... وصارَ غَرَضاً للأقوال، وهدَفاً للمطالب، ونَصْبَاً للتسبّب إليه، ونهباً للألسنة وعُرْضَةً للتطرّق إلى عرضِهِ، وربّما نُحِلَ ما لم يَقُل، وطُوِّقَ ما لم يتقلّد، وأُلحِقَ به ما لم يَفُه به ولا اعتقده قلبُه، وبالحَرَى هو السابق المبرّز، وإنْ لم يتعلّق بالسلطان بحظّ أن يسلمَ من المتالف، وينجوَ من المخالف[1])).

إذن، هذا هو حال العلماء، أمّا المؤلفات، فقد تعرّضَتْ للطّعْنِ والغمز، والتقليل مما حَوته من علوم: ((فإن تعرّضَ لتأليف غُمِزَ ولمز، وتعرّضَ وهمز، واشتطَّ عليه ...، وذهبتْ محاسنه، وسُتِرتْ فضائله، وهُتِفَ ونُودِي بما أغْفَل، فتنكسُ همته، وتكِلُّ نفسُهُ، وتبردُ حميّتُهُ، وهكذا عندنا نصيبُ من ابتدأ يحوكُ شعْراً، أو يعمل رسالة، فإنّه لا يُفْلِتُ من هذه الحبائل[2])).

أدرك ابنُ حزم أنّ التقصير ليس من العلماء، وإنما من النقّاد الجهّال، الذين كانوا حجر عثرة في وجه من حاول الإبداع والابتكار.

والقارئ لما قاله ابنُ حزم يدرك مدى الألم والحسرة على ما يعايشه العلماء، وبخاصّة أنّه من العلماء الذين عاشوا مرارة الظّلْمِ من الآخرين، والاستهزاء بما حاولَ الإتيان به من تجديد.

---

[1] المقري، نفح الطيب جـ٣/١٦٦-١٦٧.

[2] المصدر نفسه جـ٣/١٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى الرّغم مما تعرّض له هؤلاء المؤلفون من غمز ولمز، فقد أبْدعوا في التأليف في شتّى أنواع العلوم والفنون، ويسردُ ابن حزم هُنَا العديدَ من أسماء الكتب في تفسير القرآن، وشرح الحديث، والفقه، وأحكام القرآن، والنحو، والشعر والتاريخ، وأخبار البلاد، والفلسفة والطبّ، والهندسة، وعلم الكلام.

الأمرُ الذي يجعلُ من رسالةِ ابن حزم سجلاً تاريخياً، يدوّن ما أبدعه الأندلسيون بطريقة منهجيّة، غرضها دَفْع التهمةِ عن الاندلسيين بأنهم مقصرون وابنُ حزمٍ قلمّا يذكرُ أثراً، دون أن يزكيه بمثل هذه العبارات: ((أربى مؤلفه على كُلِّ مَنْ تقدّمَهُ، أو لم يُؤلّف مثلَه في الإسلام، أو ما صُنّفَ أحْسَنَ منه ولا أجمع، أو أنّه جمعَ زبدَ الأوّلين والآخرين، حتى إذا اعتدل ابنُ حزم قال: إنّه من أجلّ الكتبِ في هذا المعنى أو هو الكتابُ المعتمدُ عليه)).

وممّا لا شكّ فيه أنّها عبارات تنمّ عن مدى انفعال ابن حزم في الدفاع عن علماء الأندلس، والمحاماةِ عنهم، في وجه مَن ادّعى تقصيرهم. ومن أمثلةِ ما أورده ابن حزم من المؤلفات:

((وفي تفسير القرآن كتاب أبي عبدالرحمن بقيّ بن مخلد، فهو الكتابُ الذي أُقْطعُ قطعاً لا أستثني فيه، أنّه لم يؤلّف في الإسلام تفسيرٌ مثله ولا تفسير محمد بن جرير الطّبري ولا غيره .... ومنها في الحديث مصنّفُهُ الكبير الذي رتّبهُ على أسماءِ الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- فروى فيه عن ألفٍ وثلاثمائة صاحبٍ ونيّف، ثُمّ رتّبَ حديثَ كُلِّ صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام، فهو مُصنّف ومُسْنَد، وما أعلم هذه الرتبةَ لأحدٍ قبلَهُ، مع ثقتهِ، وضبطهِ وإتقانِهِ، واحتفالِهِ في الحديث وجودةِ شيوخِهِ[1])).

ويزيد ابن حزم أنّ منهج بقي بن مخلد كان ((متخيّراً لا يقلّد أحداً[2])), وفي هذا إثبات على القدرة المنهجية عند علماء الأندلس.

---

[1] المقري، نفح الطيب جـ٣/١٦٨.

[2] المصدر نفسه جـ٣/١٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول عن أسبقية أهل الأندلس في التأليف: ((ومنها تاريخ أحمد بن سعيد، ما وَضَعَ في الرّجال أحدٌ مثلَه إلا ما بلغنا من تاريخ محمد بن موسى العقيليّ ولم أرَهُ، وأحمد بن سعيد المتقدّمُ إلى التأليف القائم في ذلك[١])).

والأندلسيون لهم الجدّة في كثير من المواضيع ((ومنها في اللغة الكتاب البارع الذي ألّفَهُ إسماعيل بن القاسم، يحتوي على لغة العرب، وكتابه في المقصور والممدود والمهموز، لم يُؤلّف مثله في بابه[٢])).

وتراه يشيد بكتاب الحدائق: ((وكتاب الحدائق لأبي عمر أحمد بن فَرج ... وأبو عمر أوردَ مائتي باب في كلّ باب مائة بَيْت ليس منها باب تكرّرَ اسمه لأبي بكر، ولم يُورد فيه لغير أندلسي شيئاً، وأحسنَ الاختيار ما شاء وأجاد، فبلغَ الغايةَ، وأتى الكتابُ فرداً في معناه[٣])).

ويلحظ القارئ في الفقرة السابقة، تلميح ابن حزم إلى كثرة أدباء الأندلس، إذ ذكر ابنَ فرج الكثير منهم. وهو يشيد بمنهجية ابن فرج في تقسيمه لكتابه، حتى تميّز هذا الكتاب عن أمثاله.

وعلى الرغم من كثرة هذه المؤلفات الأندلسية التي يذكرها ابن حزم، إلا أنّه استوضح عن تركه وتجنبه ذكر كثير من الكتب، لأنّها قصّرَت عن مقاييس ابن حزم في اختيار الكتب المذكورة: ((وإنّما ذكر التآليف المستحقة للذكر ... وهي إمّا شيءٌ لم يُسبق إليه، يخترعُه، أو شيء ناقصٌ يتمّه، أو شيء مستغلَقٌ يشرَحهُ، أو شيء طويل يختصرهُ دونَ أن يخلّ بشيءٍ من معانيه ... وأمّا التواليف المقصّرة عن مراتبِ غيرها فلم نلتفتْ إلى ذكرها، وهي عندنا من تأليف أهل بلدنا أكثر من أن نحيط بعلمها[٤])).

---

[١] المقري، نفح الطيب جـ٣/١٧٠.

[٢] المصدر نفسه جـ٣/١٧١.

[٣] المصدر نفسه جـ٣/١٧٣.

[٤] المصدر نفسه جـ٣/١٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يعقد ابن حزم في نهاية رسالته مقارنة بين علماء مشرقيين وأندلسيين، لإثبات أنّ علماء الأندلس وأدبائها قد جاروا علماء المشرق، بل وتفوّقوا عليهم في بعض الفترات.

وتطالعنا في مفاخرته هذه روح الثقة العميقة بالشخصيّة الأندلسيّة[١]، ويرى أحد الباحثين أنّ هذه المقارنة تنمّ عن حميّة طاغية عند ابن حزم لعلماء بلده[٢].

يقول ابن حزم في هذه المقارنة: ((ونحنُ إذا ذكرنا أبا الأجربِ جعونة بن الصمّة الكلابي لم نباهِ به إلا جريراً والفرزدق لكونهِ في عصرهما، ولو أُنصِفَ لاستشْهد بشعره، فهو جار على مذهب الأوائل، لا على طريقة المحدثين[٣])).

فابن حزم يرى أن أدباء الأندلس لم ينصفوا، كما حدث مع أبي الأجرب، إذ لم يستشهد بشعره، ويقول ابن حزم في مقارنته: ((وإذا سمّينا بقيّ بن مخلد لم نسابق به إلا محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري وسليمان بن الأشعث السجستاني، وأحمد بن شعيب النَّسَائي ... ولو لم يكن لنا من فحول الشعراءِ إلا أحمد بن محمد بن درّاج لما تأخر عن شأو بشار بن برد وحبيب والمتنبي ... ولنا من البلغاء أحمد بن عبدالملك بن شُهيد صديقِنا وصاحبِنا ... وله من التصرّف في وجوه البلاغة وشِعابِها مقدار يكاد ينطق فيه بلسان مركبة من لساني عمرو وسهل ...[٤])).

لقد ختم ابن حزم رسالته بالانتصار لعلماء بلده، أمام علماء المشرق، بمقارنة تدل على العصبيّة الفكرية للاندلس.

---

[١] جمانة باشا، الأندلسية وأثرها في أدب الأندلس ص/١٣٢.

[١] عبدالرحمن الفاسي، محاولة الدّفاع عن بر العدوة، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد ١٧ (١٣٨٨-١٩٦٩).

[٣] المقري، نفح الطيب جـ٣/١٧٧.

[٤] المصدر نفسه جـ٣/١٧٧-١٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

الخصائص الفنيّة والأسلوبيّة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخصائص الفنيّة والأسلوبيّة

اللّفظ والمعنى:

أشار كثير من الدّارسين إلى ارتباط الألفاظ بأغراضها ومعانيها، فالألفاظ تختلف باختلاف معانيها، ولكل غرض أسلوبه.

فألفاظ الفخر تختلف عن ألفاظ الغزل، والغزل يختلف عن ألفاظ المدح. لذا كان على الشاعر والكاتب أن يأتي بالألفاظ الموفية للغرض ويحاولَ أن يلائم بينهما وبين المعاني المطلوبة.

يقول الجرجاني ((بل أرى لك أن نَقْسِم الألفاظَ على رتبِ المعاني فلا يكون غزلُكَ كافتخارك، بل ترتب الكلام كُلاًّ مرتبته، فتلطفَ إذا تغزّلتْ وتفخّمَ إذا افتخرتْ، وتتصرفَ للمديحِ تصرّف مواقعه، فإن المديح بالشجاعة والبأسِ يتميّز عن المديح باللباقةِ والظّرف، ووصفُ الحربِ والسلاح ليس كوصف المجلسِ والمدام، فلكلٍّ واحدٍ من الأمرين نهج))[١].

ويصوّر ابن طباطبا اللفظ بالجسم وروحه المعنى ((وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوّته))[٢] لذا كان من الواجب أن تتلاءم ألفاظ الكتّاب والشعراء في الأندلس مع أغراضهم، فإذا تتبّعنا الأشعار ذات الطابع الدينيّ وجدنا ألفاظها تميل الى السهولة ذلك أنها لا تخصّ فرداً بعينه في المجتمع الأندلس، بل هي رسالة شاملة لأفراد المجتمع.

---

[١] القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه ص٢٣.

[٢] ابن طباطبا: عيار الشعر ص١٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فإذا كانت معاني الأديب واضحة استطاع أن يصل بها إلى المتلقّى ويحدث فيه الأثر المطلوب، أما التعقيد والغموض فهو ما ينقص من قيمة الأدب والشعر ويحطّ من شأنه[١].

فالألفاظ في قصيدة الإلبيري والتي ذمّ فيها اليهود، وأنكر جهرهم بكفرهم، ابتعد فيها الشاعر عن الوحشيّ والتكلّف والتعقيد والأمر راجع إلى موضوع القصيدة، فهي رسالة شعريّة إلى الشّعبِ المسلم في غرناطة، وذلك في قوله[٢]:

لقد زلّ سيِّدُكم زلـــــــةً تَقَرُّ بها أعين الشّامتيـــــن
تخيَّر كـاتبهم كافـــــراً ولو شاء كان من المسلمين
فعزَّ اليهود بـه وانتخَـــوا وتاهوا وكـانوا من الأرذلين
فكم مسلمٍ فاضلٍ قانـــتٍ لأرذل قردٍ من المشركيـــن
وما كان ذلك من سعيهـــم ولكنَّ منَّا يقوم المعيـــــن

ويقول في أبيات أخرى[٣]:

وإنّي احتُللت بغرناطـــــةٍ فكنت أراهُم بها عابثيـــن
وقد قسَّموها وأعمالهـــــا فمنهم بكل مكان لَعِيـــن

فالشاعر قد اختار لأبياته قافية موسيقية سهلةً وهي قافية النون بالإضافة إلى ذلك فقد اتّسم شعره باللين والسّهولة ليلائم بين ألفاظه ومعنى القصيدة، فهو يعبر عمّا أحدثه اليهود من أمورٍ لا يرضاها المسلمون.

وتتسم الأبيات التي نظمها ابن عبدربه بأسلوب اللين والسهولة، لأن الشاعر يعبر فيها عن فرحة المسلمين بانتصارهم على ابن حفصون وكيف عمَّ السرور البلاد فيقول[٤]:

فتمَّ صُنع الله للإســـــلام وعمَّنـا ســرور ذاك العـــــامِ

---

[١] شريف علاونة: قضايا النقد الأدبي والبلاغة ص٢٤٦.
[١] الإلبيري: ديوانه/٨٩.
[٣] المصدر نفسه/٩٠.
[٤] ابن عبدربه، ديوانه/٢٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وخيرُ ما فيه من السـرور موت ابن حفصونَ بهِ الخنـزير
فاتّصل الفتح بفتح ثـانٍ والنصرُ بالنصر من الرحمـن

ومِثْلُ ذلك أبيات ابن حزم التي يشرح فيها مذهبه الظاهريّ، فالموضوع هو نشر المذهب للنَّاس كافَّة، وهو بطبيعة الحال موضوع دينيٌّ لا تلائمه الألفاظ الصعبة، حيث يقول[١]:

أُشْـهِدُ اللـه والملائكَ أنّـي لا أرى الرَّأيَ والمقاييسَ دينـا
حَاشَ لله أنْ أقـولَ سِوى مـا جاءَ فـي النَّصِّ والهُدى مُسْتَبِينا
كَيْفَ يَخْفَى على البصائـرِ هـذا وهو كالشّمسِ شهرةً ويقينـا

ولعل ما انطبق على الأبيات السابقة ينطبق على أبيات ابن حمديس التي نظمها وعبّر فيها عن ألمه وحزنه على تبدل حال المسلمين، وجرأة أهل الكفر والضلال على الإسلام، فالشاعر لم يكن مشغوفاً بتعقيد ألفاظه، لأن التعقيد قد يُتْعب القارئ ثم لا يجدي[٢]، يقول ابن حمديس[٣]:

أرى بلدي قد سامه الروم ذلـةً وكـان بقومـي عـزّه متقاعسـا
وكانت بلاد الكفرِ تَلْبَسُ خَوْفَـه فأضحى لذاك الخوف منهنَّ لابسا

ويعبر ابن خفاجة عن انهزام الروم وانتصار المسلمين بألفاظٍ سهلةٍ واضحةٍ ابتعد فيها الشاعر عن التعقيد؛ لأن الموقف ينفر من ذلك، حيث يقول[٤]:

صابرٍ في الله محتسـب واثـقٍ فـي اللـه معتصـمِ
فتكةٌ في الروم قاسمـةٌ ظَهْرَ عزِّ الرّومِ والصّنَـمِ

وابتعد الشعراء عن الوحشي الغريب والعامي المبتذَل في القصائد التي مدحوا بها قادتهم العرب في الثورة على المولّدين، لأن تلك الثوراتِ قد شملت جميع فئات الشعب، لذا فإن الموضوع لا يتناسب مع التعقيد والغرابة في الألفاظ، يقول ابن جودي[٥]:

---

[١] الذهبي، سير أعلام النبلاء جـ١٨/٢٠٥.
[٢] محمد رشيد رضا، أسرار البلاغة في علم اللسان ص٣.
[٣] ابن حمديس، ديوانه ص٢٧٥.
[٤] ابن خفاجة، ديوانه ص١١٠.
[٥] ابن الأبّار، الحلة جـ١/١٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حـاكمٌ مـاجدٌ يقـود اليكُـــــمْ فئـةٌ سـادةٌ كمثـلِ الأســـــودِ
يطلـب الثـأرَ بـابن قـومٍ كـــرامٍ أخذوا بالعهودِ قبل المهـــودِ
فاستباحَ الحمراءَ لم يبقِ منهـــم غيرَ عانٍ في قُدّهِ مصفـــودِ
قد قتلنا منكُم ألوفاً فمـــــا يَعْـــ ـدلُ قتلَ الكريم قتلُ العبيـــدِ
لـم يصيبوا الرشاد فيما أتـــوه لا ولا كان جَدُّهم بســـــعودِ

ويلحظ القارىء جزالة الألفاظ في الأبيات السابقة لأنّ الشاعرَ بمدحُ القائد العربيّ ويعبّرُ عن نقمة العرب على المولّدين وهو يلائم بين الألفاظ والمعـاني إذ اختـار الشـاعر الألفـاظ التـي تـدل على واقع الحرب بين العرب والمولّدين مثل ((استباح)) ((عانٍ)) ((مصفود)) ((قتلته))، وتظهر الجزالة في استخدام الألفاظ في موقف آخر يعبر فيه شاعر العرب عن حبّه وحرصه على وحدتهم، فيقول[1]:

يا أيّها العربُ النـائي محلّهُـــــمْ أنتم نيامٌ ومـن يَشْنَأكُمْ سَهَـــرُ
ما عيشُ عدنانَ دونَ الحي من يمنٍ أو عيشُ ذي يمنٍ قد خانها مُضرُ
إن السهامَ إذا ما فُرّقت كُسِـــرت وإن تجمّعت تبقى ليس تنكســرُ

ولعل القارئ يلحظ الفرق في جزالة الألفاظ وقوتها بين الأشعار ذات الطابع الحربي والأشعار ذات الطابع الديني؛ لأن شعر الحرب يعبّر عن القوة وإلهاب المشاعر والحماسة والألفاظ كما أسلفنا مرتبطة بموضوعها- ويستطيع الباحث أن يتمثل على جزالة الألفاظ وقوتها وارتباطها بموضوعها بالأبيات التي عبّرت عن العصبية القبلية؛ لأن الموقف موقف قوة، ويحتاج إلى قوة في التعبير كما في قول أبي الخطّار يخاطب هشام بن عبد الملك، فيقول[2]:

أفأنتمْ بني مروانَ قيساً دماءَنـــا وفي الله -إن لم تنصفوا- حَكَمٌ عـدلُ
كأنكمُ لـم تشـهدوا مـرج راهـطٍ ولم تعلموا من كـان ثَمَّ لـه الفضـــلُ
وقينـاكمُ حرَّ القنـا بنحورنـــــا وليس لكم خيلٌ سوانا ولا رجـــلُ

---

[1] عبداللطيف محمود، شعر الحرب في الأندلس/٣٤، عن المقتبس (انطونيا) ص٦٤.

[2] ابن الأبار، الحلة جـ١/ص٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلما بلغتُم نيلَ ما قد أردتُـــمُ وطاب لكم منـا المشاربُ والأكلُ
تعاميتمُ عنا بعينٍ جليّـــــــةٍ وأنتم كذا ما قد عَلِمْنا لها فعـــــلُ

تباينت الألفاظ في النثر الأندلسي المعبّر عن العصبية بين السهولة والتعقيد والغرابة والوضوح تبعاً للموضوع، للارتباط الوثيق بين الألفاظ وموضوعها حسب ما أشرنا. فالنثر ذا الطابع الديني امتاز بسهولة ألفاظه ووضوحها بالإضافة إلى جزالتها، ويظهر جلياً في كتاب الناصر لدين الله الذي وجهه إلى الآفاق بفتح قلعة ((بُبَشتر)) حيث يقول[١]:

((والحمد لله الذي جعل الإسلام نجاة من تمسّك به، ومؤدّياً له إلى رحمته، وجعل الشرك به خزيةً لمن تقلّده وسائقاً له إلى عذابه، ومستوجباً عليه عقابه، وجعل جهاد أهله من فرائضه العظمى وجعل للمجاهدين اليدَ العليا ووعدَهم الزلفى في الآخرة والأولى، ثم إنّا لم نَزَل مذ شرّفنا الله بخلافته، واختصنا بإمامة عباده، نبتغي الغاية القصوى في جهاد أعدائه، وندأبُ في نصر أوليائه)).

ويقول في الكتابِ نفسه[٢]: ((وكانت ((بُبَشتر)) قاعدةَ الشرك ودارَ الكفر والإفك ومكان عزّ النصرانية وموئلها وقرارتها وبيضتها المنتجعَة من أقطارها وحرمها الذي من سار فيها اعتصم، ومن عاذ بها سلم)).

إذ تظهر الألفاظ في الكتاب السابق سهلةً واضحة، وهي بالإضافة إلى ذلك جزلة قوية؛ لان كتاب الناصر يعبر عن فرحة المسلمين بانتصارهم على اعدائهم وهو لا يخص جماعة من أفراد المجتمع بل هو رسالة إلى الناس كافة.

ويعبر ابن حزم في ردّه على ابن النغريلة اليهوديّ عن ألمه وحسرته لانشغال أهل الممالك من المسلمين بدنياهم عن إقامة دينهم ورد ألسنة الكفر والشرك[٣]:

---

[١] ابن حيان، المقتبس جـ٥/٢٢٦-٢٢٧.
[٢] المصدر نفسه جـ٥ ص٢٢٨.
[٣] ابن حزم، من رسائل ابن حزم في الرد على ابن النغريلة/٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((اللهمّ إنّا نشكو تشاغل أهل الممالك من أهل ملّتنا بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصور يتركونها عمّا قريب عن عمارة شريعتهم اللاّزمة لهم في معادهم ودار قرارهم، وبجمع أموال ربّما كانت سبباً إلى انقراض أعمارهم وعوناً لأعدائهم عليهم .... حتى استشرف لذلك أهل القِلّة والذمّة وانطلقت ألسنة أهل الكفر والشّرك بما لو حقّق النظر أرباب الدنيا لاهتموا بذلك ضعف همّتنا، لأنّهم مشاركونا لنا فيما يلزم الجميع من الامتعاض للديانة الزهراء، والحمية للملّة الغرّاء)).

لقد جاءت ألفاظ ابن حزم سهلةً منسجمةً مع موضوعه، لأنه يعبر عن ((الحميّة للملة الغرّاء)) ويستنهض همم النّاس لردع هذا اليهوديّ، بالإضافة إلى ذلك فقد كانت ألفاظه منسجمةً مع أسلوبه السهل الذي ابتعد فيه عن الإطناب والتطويل ومبالغة الحديث.

وأما الرسائل التي عبرت عن العصبيّة العرقيّة فقد جاء أسلوبها جزلاً قوياً، متين الألفاظ، لا يستطيع القارئ أن يفهم هذه الألفاظ إلا باستخدام مراجع اللغة في أكثر الأحيان، وإعمال الذهن فيها، ويظهر التباين واضحاً بين هذه الرسائل والنثر الذي عبر عن الحمية الدينية من حيث الألفاظ، ولعل سبب ذلك يعود إلى طبيعة الموضوع الذي هو أقرب إلى التقليد[١]، فالكتّاب ينافحون عن العربيّة وعاداتها وعن العرب وتقاليدهم ودينهم لذا كان لا بدّ أن يأتي أسلوب هذه الرسالة قويّاً وألفاظها متينة جزلة.

أضف إلى ذلك أن ((ابن غرسيّة)) قد استخدم الأساليب الجزلة والألفاظ القوية في طعنه العرب، فكان لا بد من الردّ عليه بالأساليب نفسها، وبألفاظ تحاكي ألفاظه بالقوة والمتانة، فمن ذلك قول ابن غرسيّة[٢]: ((شرهوا برنّاتِ السيوف، لا بربّات الشّنوف، وبركوب السّروج عن الكلب والفرّوج، وبالنّفير عن النّقير، وبالجنائبِ عن الحَبَائب، وبالخَبِّ عن الخِبّ، وبالشّليل عن

---

[١] عصام المطري، الحركة الشعرية في ظل المنصور بن أبي عامر ص ١٠٩.
[٢] نوادر المخطوطات جـ١ ص٢٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السّليل، وبالأمر والذّمر عن معاقرة الخمر والزّمر، وباللُّقيان عن العِقيان، وعن قَنْيان القِيان، طيّاتهم خطيّاتهم، وغلاّتهم آلاتهم، وحُصونهم حُصُنُهم، أقيال، آباؤهم من بني الأنام أقتال)).

فيردّ عليه ابن مسعدة تُهَمَهُ مستخدماً الأسلوب نفسه حيث يقول[١]: ((وأمّا القِيان والقَنْيان، والمعاقرة والدّنان فنحن اخترنا صِرْفها، واختبرنا صفوها وعفوها، وأخذنا في الجاهلية وَصْفها، وأهدينا أنفاس النّسيم شَذَاها وعَرْفها، ومنكم غارس حَبَلِها وآبِرها، ومُنَقّحها وزابرها، وسالف سليلها وعاصرُها)).

ويقول ابن غرسيّة في فقرة أخرى مادحاً قومه[٢]: ((ولا منهم من احْتَشى بمذموم الكَشَى، ولا في سائر الأحفاش من وليد وناش، من اغْتَذى بالأحناش، فلا يُقَعْقَع لهم بالشّنان ولا يُوَعْوَعُ لهم بالشّنان، فَكُفَّ أيها الشان فلهم عظيم الشان)).

ولا شك أن القارئ يدرك ما في ألفاظ القطعة السابقة من غرابةٍ وتقعُّر، تُخْوِجُ القارئ إلى إعمال ذهنه فيها. وهذا هو النهج الذي سارت عليه رسالة ابن غرسيّة والرسائل التي ردت عليه.

ونختار من رسالة ابن مَنّ الله القروي حيث يقول[٣]: ((فما تَعَرُّضُكَ لقوم سلكوا بلادكم واستَعْبَدوا أولادكم، ثمّ إنّهم حين قَدِروا غفَروا ووضَعوا الإتاوة على جماجم الأعاجم والمرسوم في براجِم[٤] السلاجم[٥] فلا يحضرون العشّار إلاّ بالعِثار .... وكنت أنت من رزايا تلكَ السبايا، ومن عبايا تلك الخبايا، ومن خطايا تلك العَطّايا)).

---

[١] نوادر المخطوطات جـ١ ص٣٠٩.

[٢] المصدر نفسه جـ١ ص٢٧٥.

[٣] المصدر نفسه جـ١/٣٤٣، ٣٤٤.

[٤] البُرجُمة: مفصل الاصبع (وسيط/برْجمة).

[٥] السلاجم: الطويل من الرجال (وسيط/سلجم).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبَرَزَت آثار ثقافة الكتّاب والشعراء الموسوعيّة في أدبهم، ويتضح ذلك بصورة جليّة في الألفاظ التي استخدمها الأدباء في أدبهم، ومن ذلك استخدام ألفاظ وتعبيرات شاعَ استخدامها في النصرانيّة وبخاصّة في الرسائل التي ردّوا فيها على ابن غرسيّة مثل: (رهبان، أقانيم، سنودسات)[١]، و(النَسْطُوريّة، والصَفوريّة)[٢]، وهما فرقتان من النَصارى.

وكذلك استخدامهم لكثير من أسماء الخيل عند العرب، مثل: ((آل الوجيه، وبنات العسجداء، وآل ذي العُقال، وداحس والغبراء، والحنفاء، والنّعامة، والشّماء، وحافل والشقراء ...))[٣].

وكذلك استخدام ألفاظ ومسميات موسيقيّة مثل: ((الأرْغَن، والسّلمان، والصَنْج، والكَعْكَلة، والفَنْدورة، والقيثارة))[٤].

وألفاظ تدل على عادات العرب في التنبُّؤ، مثل[٥]: ((العِيافة[٦]، الزَّجر، القِيافة[٧]، السّوانح، البَوَارِح، القواعد[٨]، النّواطح[٩]، الأيامن، الأشائِم، الأواقي[١٠]، الحواتم[١١]، التمائم، والرتائم[١٢])). ومنها ألفاظ تدل على النبات،مثل: ((كالغَرب، والنَبع، والعَثَم، والعلْجان، والبان))[١٣].

---

[١] نوادر المخطوطات جـ١/٢٨٧.

[٢] المصدر نفسه، جـ١/٣٠١.

[٣] المصدر نفسه جـ١/٣٤٧.

[٤] المصدر نفسه، جـ١/٣٥٣.

[٥] المصدر نفسه، جـ١/٣٥١.

[٦] العيافة: زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها (وسيط/عَيَف)

[٧] القيافة: القائف الذي يعرف الآثار ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه (لسان العرب/قَوَف).

[٨] القواعد: القعيد ما أتاك من ظبي أو طائر يُتَطَيّر منه (لسان العرب/قَعَد)

[٩] النواطح: النّطيح، ما يستقبلك ويأتيك من أمامك من الطير والظباء (لسان العرب/نَطَح)

[١٠] الأواقي: الواقية، ما وقيتَ به شيئاً (وسيط/وقي).

[١١] الحواتم: الحاتم، الغُراب لزعمهم أنّه يقضي بالفراق إذا نَعَب (وسيط/حَتَم).

[١٢] الرتمة: خيط يُشَدّ في الاصبع أو الخاتم للعلامة أو التّذكر (لسان العرب/رَتَم).

[١٣] نوادر المخطوطات جـ١/٣٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أثر القرآن الكريم:

لقد كانَ القرآن الكريم المنهل العذب الذي استقَى منه الأدباء ألفاظهم ومعانيهم لتقوية كلامهم، ولاسيّما في بعض السياقات ذات الدلالة الدينيّة. ويدلّ ذلك على اتصال الأدباء بالقرآن الكريم واستيعابهم العميق له ولمعانيه، لذا فقد وظّفوا ألفاظه توظيفاً ينسجم مع سياقاتهم الأدبيّة، ومن ذلك قول الشاعر سعيد الشنتريني في ذم الصقالبة[١]:

فمن رأينا مِنْهُمُ قـــــــالَ لا مِساسَ فِعْلَ النّاسِ بالسامـــــــرِ

فالشاعر يتأثر بقوله تعالى في الإخبار عن السامريّ: ﴿قال فاذهبْ فإنّ لكَ في الحياةِ أنْ تقولَ لا مساس﴾[٢].

والشاعر الإلبيري في قوله[٣]:

ويضحـك منّا ومن ديننـــــــا فإنّا إلى ربّنا راجعـــــــون

يتطلع إلى قوله تعالى: ﴿الذين إذا أصابَتْهُم مصيبةٌ قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾[٤]. ولا شكّ أن الشاعر قد أحسَنَ توظيف هذا المعنى القرآني للتعبير عن مصاب النّاس بسيطرة اليهود على شؤون بلدهم، فهو يُفوّض أمره إلى الله.

ويظهر التأثّر بالمعنى القرآني في قول أحمد الرازي معبّراً عن انتهاء فتنة ابن حفصون التي كانت قائمة على أساس دينيّ، فيقول[٥]:

تَبدّى لرأي العيْن مرءًا مجسّمـــاً وقام من الأجداث خلْفاً متمّمـــاً

---

[١] ابن عذاري: البيان المغرب جـ٢/٢٦٤.

[٢] سورة طه، آية/٩٧.

[٣] الإلبيري، ديوانه/٩١.

[٤] سورة البقرة، آية/١٥٧.

[٥] ابن حيّان، المقتبس جـ٥/٢٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فنراه يتأثر بالشطر الأول بقوله تعالى: ﴿يرونهم مثليهمْ رأيَ العين﴾[١]، وفى الشطر الثاني بقوله تعالى: ﴿ونُفِخَ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربّهم يَنْسِلون﴾[٢].

تأثّر الكتّاب بالألفاظ القرآنية، كما تأثّر بها الشّعراء، لذا فقد حرصوا على استخدام هذه الألفاظ في رسائلهم وكتاباتهم، تبْعاً للموضوع الذي تناولوه، ومن ذلك قول ابن مسعدة في رسالته عن العرب: ((والعِترة الهاشميّة أولى الرحلتين والإيلاف))[٣].

فهو يستمد هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصّيف﴾[٤].

كما يظهر تأثّره بالقرآن الكريم في قوله: ((وذلك كلُّه والنبوّة غضة بملئها وعصا المسيح بقرْفها[٦] ولحائها، والوحي من ورائها، والملَكُ على أرجائها))[٥].

إذ يستمدّ هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿والملَكُ على أرجائها ويحمل عَرْشَ ربّكَ فوْقهمْ يَوْمَئذٍ ثمانية﴾[٧].

ويقول ابن مسعدة في وصف الأعاجم[٨]: ((صُبْرٌ على الذّفر والقذر، وذَفر الغمر ... وبُجْر[٩] سُرَر[١٠]، ترمي بشرر كالقَصْر)).

---

[١] سورة آل عمران، آية/١٣.

[٢] سورة يس، آية/٥١.

[٣] نوادر المخطوطات جـ٣/٢٩٧.

[٤] سورة قريش، آية/١، ٢.

[٦] القِرْف من كل شيء قِشْرُه.

[٥] نوادر المخطوطات جـ٣/٢٩٨.

[٧] سورة الحاقة آية ١٧.

[٨] نوادر المخطوطات جـ١/٣٠٨.

[٩] بُجْر: بَجِرَ: عَظُمَ بطنه (وسيط/بحر).

[١٠] سُرَر: جمع سرة، الوقبة وسط البطن (وسيط/سرر).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو يستهزئ منهم ومن شكلهم فاستخدم ألفاظاً تعظّم من هذه السخرية وبخاصة أن هذه الألفاظ وردت في القرآن الكريم وصفاً لجهنم قال تعالى: ﴿إنّها ترمي بِشَررٍ كالقَصْر﴾[١].

كما تأثر أبو الطيب القروي بالألفاظ القرآنية في رسالته ومن ذلك قوله يخاطب ابن غرسيّة[٢]: ((ألم تُرَبّكَ فيها وليداً، ألم تَتّخِذْك لها تليداً)) فهو يستمد هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿ألم نُرَبّك فينا وليدا، ولَبِثْتَ فينا من عمرك سنين﴾[٣]. ويَذُمّ الأعاجم فيقول[٤]: ((قلوبُكم قواء وأفئدتكم هَوَاءٌ)).

فألفاظه مستمدة من الآية التي يصف الله بها حال المشركين يوم القيامة، وما بهم من خزي وهَوَان فيقول عز وجل: ﴿مُهطعين مُقنِعي رؤوسِهم لا يرتدُّ إليهم طَرْفُهم وأفئِدتهم هواء﴾[٥].

ومن تأثّر أبي الطيّب بالقرآن في قوله: ((فقلت قضيّةٌ كريمة، ونعمة عميمة، وسورٌ له بابٌ باطنه فيه الرحمةُ وظاهرهُ من قِبله العذاب))[٦]، فهو يستوحي ذلك من قوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿فَضُرب بينهم بِسورٍ له باب، باطِنُه فيه الرحمة، وظاهرهُ من قِبَلِه العذاب﴾[٧].

وتظهر صورة العرب -في الرسالة مجهولة الصاحب في الردّ على ابن غرسيّة- بصورة الشجرة ثابتة الأصول مرتفعة الأغصان، فيقول: ((أصلُها ثابت وفرعها في السّماء))[٨]، وهو

---

[١] سورة المرسلات آية ٣٢.

[٢] نوادر المخطوطات جـ١/٣٣٩.

[٣] سورة الشعراء آية ١٨.

[٤] نوادر المخطوطات جـ١/٣٤٢.

[٥] سورة إبراهيم، آية/٤٣.

[٦] نوادر المخطوطات جـ١/٣٣٥

[٧] سورة الحديد، آية/١٣.

[٨] نوادر المخطوطات جـ١/٣٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تأثر بقوله تعالى: ﴿ألمْ ترَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلُها ثابت وفَرْعها في السماء﴾[١].

لقَد تأثر الكاتب الذي كَتَب كتاب النّاصِر لدين الله إلى الآفاق بفتح ((بَيْشتر)) بالقرآن الكريم لأنّه يعبّر عن فَرْحة المسلمين بانتصار الدّين الحقّ على الكفر، فيقول[٢]: ((حَتّى أذَلَّ اللهُ عزّتهم وسَكّن ثورتهم، وأوهَنَ كيدهم))، وهذا المعنى واضح في قوله تعالى: ﴿ذلكم وأنّ الله موهِنُ كيدِ الكافرين﴾[٣].

ويبدو التأثر واضحاً بالقرآن الكريم في الكتابات النثرية، من خلال تضمين النّثر الفنّي لآيات قرآنيّة، تأتي منسجمة مع النصّ بطريقتين:

الأولى: أن يمهّد الكاتب لاستخدام الآية القرآنيّة دون إشارته إلى إيراد نص قرآني، بل إنّ السبيل النثري يفضي إليه، بصفة آلية[٤]، فتأتي الآية القرآنية منسجمة مع النص.

ويتضح ذلك في الرسالة الثانيّة في الردّ على ابن غرسيّة، إذ يصف فيها الكاتب الصحابة رضوان الله عليهم، فيقول: ((رُجوم العِدا، الرُكّع السجود، القوّام الهجود، أصحاب الغُرّر والتحجّيل، وحمَلةُ التنزيل، والعلَمةُ بالتأويل، "ذلك مَثَلُهُم في التّوراة والإنجيل"[٥] إليك فقد تبيّن الصّبحُ لذي عينين))[٦].

---

[١] سورة إبراهيم، آية/٢٤.

[٢] ابن حيان، المقتبس جـ٥/٢٢٧.

[٣] سورة الأنفال، آية/١٨.

[٤] علي بن محمد: النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس، جـ٢/٦٧٩.

[٥] نوادر المخطوطات جـ١/٣٢٥.

[٦] سورة الفتح، آية/٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالكاتب لم يُصرّح بأنه سَيَسْتَشهد على ما يقول بآية قرآنيّة، بل جاءت الآية منسجمة مع النص دون إشعار القاريء بأنّه يهيّيء لاستخدام آية قرآنيّة.

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً، قول أبي الطيّب في رسالته عن الأنساب العربيّة[١]: ((وهم أبكارُ الزّمان، وأفكارُ الأوان، لهم العربُ العاربة، ومنهم عادٌ الغالبة، ذات الأحلام السّداد، والأجسامِ الشّداد، وإرمُ ذات العماد "التي لم يُخلق مثلها فى البلاد"[٢])).

ويستخدم أبو جعفر بن الدودين الآية القرآنية استخداماً يُشعر القاريء بانسجام هذه الآية مع كلامِه، فيقول مخاطباً ابن غرسيّة[٣]: ((لكنّك بين هَمَجٍ وهامِج ورعاعٍ مائج "مُذَبْذَبينَ بَيْنَ ذلكَ لا إلى هؤلاءِ ولا إلى هؤلاءِ"[٤])).

الثانية: أن يورد الكاتب الآية القرآنية استدلالاً على فكرة طرحها من قبل، فتراه يقول قبل ذِكْر الآية (كما في قوله تعالى، جاء في التنزيل) إلى غير ذلك من العبارات التي تُشعر السامع بالنزوع إلى الاستدلال بالنص القرآني، ومن أمثلة ذلك قول ابن حزم في رسالته[٥]: ((إن أملي لقويّ، وإنّ رجائي مستحكمٌ في أن يكون الله تعالى يسلّط على من قرّب اليهود وأدناهم، وجعلهم بطانةً وخاصّة، ما سلّط على اليهود، وهو يسمع كلام الله تعالى ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تتّخذوا اليهودَ والنّصارى أولياءَ بَعْضُهُم أولياءُ بعض، ومَنْ يَتَوَلّهم مِنكم فإنّه منهم، إنّ الله لا يهدي القومَ الظالمين﴾[٦] وقوله تعالى ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تتّخذوا بطانةً من دونكم لا يألونكم خَبالاً

---

[١] نوادر المخطوطات جـ١/٣٤٤.

[١] سورة الفجر، آية/٨.

[٣] نوادر المخطوطات جـ١/٣٢٩.

[٤] سورة النساء، آية/١٤٣.

[٥] من رسائل ابن حزم في الردّ على ابن النغريلة اليهودي/٧٨.

[٦] سورة المائدة آية ٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ودُّوا مَا عَنِتُّم قد بَدَتِ البغضاءُ من أفواهِهم وما تُخفي صدورهُم أكبرُ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تتَّخذوا عدوِّي وعدوَّكم أولياء تُلقونَ إليهم بالمودّة﴾))[٢].

ومن الامثلة على هذه الطريقة الثانية استدلال أبي الطيّب القروي في رسالته على معرفة العرب لله في جاهليتهم فيقول[٣]: ((فإنْ قُلْتَ: فإنَّ العربَ أيضاً كانت تعبد الأصنام؟ فنحن ما أحمدنا لك دينها، ولا رضينا يَقِينَها، بل نعلمُ أنّ من مَال منها بالإشراك فقد قصَّر في الإدراك، وهي على كل حال تذكر الله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّه﴾))[٤].

ومهما يكن من أمرٍ فإنَّ أدباء الأندلس قد تأثروا بالنزعة الدينية تأثراً دفعهم لمعايشة مصدرَيْ الثقافة الإسلامية بما حوياه من أساليب بارعة وألفاظ عذبة.

السجع:

أظهر ابن الأثير قيمة السجع في الكلام إذ لا يرى وجها لذمّه إلاّ لِعجزٍ عن الإتيان به قال: ((فلو كان مذموماً لما ورد في القرآن الكريم، فإنّه قد أتى منه الكثيرُ حتى إنّه ليُؤتى بالسورة جميعها مسجوعةً، كسورة "الرحمن" وسورة "القمر" وغيرهما، وبالجملة فلم تخلُ منه سورة من السور))[٥].

---

[١] سورة آل عمران آية ١١٨.

[٢] سورة الممتحنة آية ١.

[٣] نوادر المخطوطات جـ١/٣٥٦.

[٤] سورة الزخرف آية ٨٧.

[٥] ابن الأثير: المثل السائر جـ١/٢٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد ورد على هذا الأسلوب من كلام النبي ﷺ شيء كثير، فمن ذلك قوله: ((ولكنّ الاستحياءَ أنْ تحفظَ الرأسَ وما وعى والبطنَ ما حَوَى، وتذكرَ المَوتَ والبِلَى، ومَنْ أراد الآخرة ترك زينةَ الحياة الدنيا))[١] . ويُستنتج من ذلك أن السجع غيرَ المتكلَّفِ غيرُ مكروه ولا منبوذٍ.

وأما عن السجع في الأندلس فيبدو أنه قد بدأ بداية متواضعة إذ لم يُعْنَ به الكتّاب في بداية الدولة الأندلسية، لانشغالها بتثبيت أركان الدولة فلم يكن كتّاب الديوان يولون هذه الزخارف عناية كبيرة.

ومع تقدم الزمن في الدولة الأندلسية، واستقرار أمرِ أدبائها، نضجت الصنعة البديعية عندهم، وآتت أُكُلها في النتاج الأدبي الأندلسي، ويبدو أن النثر المتأخر كان أكثر حظاً بالسجع من النّثر المكتوب في بداية الدولة الأندلسية، أما عن السجع في النثر الذي عبّر عن الحميّة الدينيّة فقد جاء عفوَ الخاطر جميلاً في موضعه، لأن الكاتب قد انشغلَ بالموضوع أكثر من انشغاله بالصنعة البديعية، ومن ذلك قول ابن حزم[٢]: ((أشْهِدُ الله تعالى خالقي وباعثي بعد الموت والأنبياء والمرسلين، والناس أجمعين، والجنّ والشياطين، أنّي كافرٌ بربٍّ يكون بين الخِرَب، ويطلب البركة من كلب من كلاب اليهود)).

ويقول في فقرة أخرى ((وانطلقت ألسنة أهلِ الكفرِ والشّرك بما لو حقّق النّظرَ أربابُ الدّنيا لاهتموا بذلك ضيعفَ همّنا، لأنّهم مُشاركون لنا فيما يلزم الجميع من الامتعاض للدّيانة الزهراء، والملّة الغرّاء، ثم هم بعدُ متردّون بما يؤول إليه إهمالُ هذا الحال من فساد سياستهم والفرحِ في رياستهم، فللأسباب أسباب، وللمداخل إلى البلاءِ أبواب، واللهُ أعلم بالصواب))[٣].

---

[١] فضل عباس، البلاغة فنونها وأفنانها جـ٢/٣٠٥.

[٢] من رسائل ابن حزم/٧٥.

[٣] المصدر نفسه/٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبوّع ابن حزم في رسالته ""في فضل الأندلس وذكر رجالها" بين استخدام السجع وعدمه، ويبدو أنّ ابن حزم لا يريد أن يُدخل الملل إلى نفس القارئ بالصنعة المتكلّفة، أضف إلى ذلك أنّه قد نَحى مَنْحىً تاريخياً علمياً في بعض جوانب دفاعه عن الأندلس، ويبدو أن التاريخ لا يلائمه السجع.

فيظهر السجع في بداية رسالته إذ يقول[١]: ((سلامُ أخٍ مَشوقٍ طالت بينه وبينك الأميال والفراسخ، وكثُرَت الأيامُ واللّيالي، ثم لَقِيَك في حال سفر ونَقْلةٍ، ووادّكَ في خلال جولة ورحلة، فلم يقضِ من مجاورتك أرَبَاً، ولابلغ في محاورتك مَطْلَباً، وإنّي لمّا احْتَلَلْتُ بك، وجالت يدي في مكنون كتبكَ، ومضمونِ دواوينكَ .....)).

ومما لا شكّ فيه أن صفة السجع قد ظهرت بارزةً وواضحةً في رسالة ابن غرسيّة، وفي الرسائل التي ردّت عليها، فلا تكاد تخلو فقرة من السجع بغض النظر عن موضوعها، فإن كان الكاتب يتحدث عن التاريخ أو الدين أو الأنساب أو الخيول، تراه شغوفاً باستخدام صنعة السجع.

يقول أبو الطيب القروي[٢]: ((بل لها الشرف الأرفع، والسّناء الأمنع، هذا على اتصال نسبك برُوسان، فإن كنت من ولد كنعان فما أبعدَ دارَكَ، وأشحطَ مزارَكَ، وأطمسَ آثارك، وأما الخيل فسامح العربَ بركوبها ووثوبها، وخلِّ بينهم وبين عيوبها)).

وتظهر سمة الأزدواج في بعض الأسجاع التي استخدمها الكتّاب بحيث تُجعَلُ كلُّ سجعتين على حرف واحدٍ، وهذا أقوى في النغمة الموسيقيّة، كما في قول يحيى بن مسعدة[٣]: ((إيه ليتَ شعري مَن عِلْقُكَ الربيحُ في الزّمان، وهل أحاطَ بسَقعِه هدهد سليمان؟ لعلك تعنى المُوَفَّق ذا

---

[١] المقّري: نفح الطيب جـ٣/٣٤٧.

[٢] نوادر المخطوطات جـ١/٣٤٦.

[٣] المصدر نفسه جـ١/٢٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النجار الملفَّق، حاجبَ الظاهر، ومملوك معافر، عجم دانيةَ، وعركِ سردانية، أين أمُّك ثكلتْك أمُّكَ وهل سوى زِعنِفَةٍ من زعانِفِ الرّيف، وسفاسيفِ السّيف)).

وقد يأتي الكاتب بأكثر من كلمتين مسجوعتين على حرف واحد كما في الرسالة الثانية في الرد على ابن غرسيّة[١] ((إليك فقد بيّن الصبحُ لذي عينين، وطبَّق في الخافقين، فلا تفغرْ أيّها الأثيم الأفّاك، بقديمٍ بعدَها فَاك، ولئن أوجعناك، فيما قدَّمت يَداك. أجل صديقُ المرءِ عقلُهُ وعدوُّه جهلُهُ، ولا يحزُنْكَ دمٌ هَرَاقُهُ أهلُهُ)).

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً قول يحيى بن مسعدة[٢] ((وقد راعتكم من غسّان وخَولان، وصميم قيسٍ وعَيْلان، الرائع النّجيل، أصحابِ الغُرَر والتّحجيل الذين مَثَلُهم في التّوراة ومَثَلُهم في الإنجيل، يا تَبَعة المجوس، وقَرَعَةَ القَرْن والنّاقوس، ألسنا بالقوس، وأنتم بالقرقوس)).

ويبدو من الأمثلة السابقة ما قد أضفاه السّجعُ على النصوص من قيمٍ موسيقيّةٍ عاليةٍ جمّلَتْها وحسّنَتْها في أذن السامع، بجانب جزالة الألفاظ.

التّكرار:

وهو من أبرز صور التناسق الجمالي، إذ به تبرز الموسيقى في الشعر ويؤكد على المعاني التي يعبّر عنها الكاتب، ونعني بالتّكرار تناوب الألفاظ وإعادتها في سياق التعبير بحيث تشكل نغماً موسيقياً[٣].

---

[١] نوادر المخطوطات جـ١/٣٢٦.

[٢] المصدر نفسه جـ١/٢٨٩.

[٣] ماهر هلال، جرس الألفاظ ص٢٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد عرف العرب هذا الأسلوب منذ القدم ويدلّل على ذلك ما حَفِلَ به شعرهم من تكرار للأسماء والمواضع، ولجأ بعض أدباء الأندلس إلى التّكرار للتأكيد على فكرة هم يريدونها، إذ يبدو التّكرار واضحاً في قصيدة الإلبيري في أكثر من موضع، فتراه يكرر صيغة الاستفهام للتأكيد على استغرابه من الحالة التي وصل إليها اليهود فيقول[١]:

أباديسُ أنْتَ امْرؤٌ حـــاذقٌ ... تُصيبُ بِظَنِّكَ نَفْسَ اليقيـــن
فكيف اختفت عَنْكَ أعْيَانُهـــم ... وفي الأرضِ تَضْرِبُ منها القرون
وكيف تُجيبُ فِرَاخَ الزّنـــا ... وهم بغُضوك إلى العالميـــن
وكيف استتمتَ إلى فاسـقٍ ... وقارَنْتَه وَهْوَ ليسَ القريـــن
وكيف انفردتَ بتقريبهـــم ... وهم في البلاد من المبعديـــن

ومن ثمَّ يتقصّد الإلبيري تكرار الضمير هم مع الفعل المضارع لتبيان الحالة التي عليها اليهود. وهويتحدث عنهم بضمير الجمع ((المنفصل والمتصل)) للتأكيد على أنّ حال اليهود كلهم كجماعة قد تبدّل وتغيّر فيقول[٢]:

وقد قسّموها وأعمالَهـــا ... فمنهم بكلّ مكانٍ لعيـــن
وهم يقبضون جباياتِهـــا ... وهم يخضمون وهم يقضمون
وهم يلبَسون رفيعَ الكُســـا ... وأنتم لأوضعِها لابســـون
وهم أمناكم على سرّكـــم ... وكيف يكونُ خؤون أميـــن
وقد ناهضوكُم إلى رَبْكـــم ... فما تَمنَعونَ ولا تنكـــرون
وهم يذبحون بأسواقِهـــا ... وأنتم لأطرافِها آكلـــون

ويكرر ابن جودي استعمال الحرف ((قد)) مع الفعل الماضي للتأكيد على عزم العرب على النّيل من المولّدين، والأخذ بثأر من قُتِل من القادة، فيقول[٣]:

قَد طلَبنا بثأرنا فقَتَلْنـــا ... منكُمْ كُلَّ مارقٍ وعنيـــدِ

---

[١] الإلبيري: ديوانه ص٩٠.
[٢] المصدر نفسه/٩١.
[٣] ابن الأبّار، الحلة جـ١/١٥١، ١٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قد قَتَلْناكُمُ بِيَحيى ومـــــــا أن كـان حُكمُ اللـه بـالمردودِ
قد قَتَلْنـا منكُمُ ألوفـــاً فمـــا يَعْدِلُ قَتْلَ الكريمِ قتلُ العبيـــدِ

وقد يكرر الشاعر اسماً معيّناً يرتبط بذهن السامعين لتنبيه شعور السامعين نحو ذلك الاسم، كما في قول الشاعر[١]:

كنا نطالب لليهودِ بجزيـــــةٍ وأرى اليهودَ بجزية طلبونـــا

فالشاعر يريد التذكير بأمرِ اليهودِ، وأمر الجزية، لذا فقد كرر اللفظتين في نفس البيت.

ويكرر ابنُ عبدربّه لفظتي (السرور، والنصر) للتعبير عن الفرح الذي عمّ المسلمين بعد انتصارهم على ابن حفصون، حيث يقول[٢]:

فَتَمَّ صُنْـعُ اللـه للإســـــلامِ وعَمَّنـا سـرورُ ذاك العـــــامِ
وخبرُ ما فيه من الســـــرورِ موتُ ابنِ حفصون به الخـنزيرِ
فاتّصلَ الفتح بفتحٍ ثـــــــانِ والنّصرُ بالنَّصرِ من الرحمـــن

وقد استخدم الكتّاب التكرار للغاية نفسها وهي التأكيد على معانيها، ونستنتج من ذلك ارتباط التكرار بالمعنى الذي يرمي إليه الكاتب.

كما في قول أبي الطيب[٣]: ((فأخبرني عنك أما كانت للعربِ يدٌ تشكرها، أو مِنَّةٌ تذكرها، أما جبَرتْ نقيصتك، أما رفعتْ خسيستَك، أما استنهضتْكَ من وهدَتِكَ، أما أيقظتْكَ من غفلتك ورقدَتِك، ألم تُرَبِّك فيها وليداً، ألم تتَّخذكَ لها تليداً، ألم تُعْنَ بتخريجكَ، وتدريجك، أما انطقتك بعدَ العُجْمة، أما أسلقَتك بعد اللُّكنة)).

---

[١] السلفي، أخبار وتراجم أندلسية/٣٧، ٣٨.
[٢] ابن عبدربّه، ديوانه/٢٦٨.
[٣] نوادر المخطوطات جـ١/٣٣٩، ٣٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذ يكثر الكاتب من استخدام الاستفهام الاستنكاري لتأكيد استغرابه وإنكاره قيام ((ابن غرسيّة)) على العرب، والطعن بهم، مع خِستّه ودُنوّ منزلته وعُجْمَتِه.

إنّ التكرار قد ظَهَر في الأدب الأندلسي لتأدية الغرض الذي ينشده الكاتب، فيؤكد الفكرة ويزيد النصّ قِيَماً موسيقيّة، وهو تكرار معبّر كما رأينا في الأمثلة السابقة.

المزج بين النثر والشعر:

سعى بعض كتاب النثر الأندلسيّ لتضمين رسائلهم أبياتاً شعرية تلائم موضوعاتهم، وقد يكون تعليل هذا الأمر بأن العقليّة العربيّة هي عقلية شعر، وأنّ الذوقَ العربيّ لا يقوى على مفارقته، فلمّا تطوّرت أغراض النّثر ودخل المجالات التي دخلها الشعر، لم يقوَ أصحابُه على هجر الشعر فأوجدوا أساليبَ متنوعةً لاستجلابه[١].

ومهما يكن من أمر فإن كتّاب النثر الأندلسي قد أبدعوا في الملائمة بين النثر والاستدلال على الفكرة التي يريدونها من الشعر أو حتّى تقويتها، فابن حزم يخاطب أولياء الأمر ويدعوهم إلى التنبّه لأمر اليهود، فيقول[٢]:

((ثمّ هم بَعْدُ مترددُون بما يؤول إليه إهمال هذه الحال من فساد سياستهم، والقدح في رياستهم فللأسباب أسباب، وللمداخل إلى البلاد أبواب، والله أعلم بالصواب، وقد قال علي بن عباس:

لا تحقرَنّ سَبِيّـــــاً كم جَرَّ أمراً سَبَيْـــبُ))

ومن الأمثلة على هذا المزج قولُ ابن غرسيّة في رسالته يمدح قومه[٣]:

---

[١] علي بن محمد، النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس جـ٢/٦٧٦.

[٢] من رسائل ابن حزم في الرد على ابن النغريلة/٤٥.

[٣] نوادر المخطوطات جـ١/٢٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((شُمْخٌ بُذُخٌ، بَرَرَةٌ أقيال، جَرَرَة أذيال، بخٍ بخٍ، أحلّتهم سيوفهم سِطَة الأرضين، فما قنِعوا بذلك ولا رَضِيين، حتى دوّخوا المشارقَ والمغاربَ واستوطنوا من المجد الذروة والغارب[١]:

بِضَرْبٍ يزيلُ الهامَ عن سكناتِـــــه وطعْنٍ كتشهاقِ[٢] العَفا[٣] همَّ بالنَّهْقِ[٤]

فابن غرسيّة يتحدث عن احتلال قومه منزلةً عاليةً في المجد، ولمّا أراد تعليل ذلك أتى بالبيت الشعريّ السّابق لبيانِ غرضه فظهر الانسجام واضحاً بين نثره والشعر.

وقد يختار الشاعر جزءاً من البيت الشعريّ فيضمّنه في نثره، كما في قول يحيى بن مسعدة في رسالته[٥]: ((فلم يَبْقَ إلا الجِلّةُ والبعَر، أو خالفةُ طِرافٍ من أديم أو بيتٍ من الشَّعَر، خَلَوا فتحلّلوا، وعلَوا وتجلّلوا

هنالك إنْ يُستَخبَلُوا[٦] المال يُخبِلوا)).

والبيت قد ورد في لسان العرب كاملاً[٧]:

هنالك إن يُستَخبَلُوا المال يُخبِلـــوا وإن يُسألوا يُعطوا وإنْ يَيْسِروا يغلُوا

ومن الكتّاب من اختار أن يبدأ رسالته بأبيات شعريّة أو يختمها بالشّعر أيضاً، كما في رسالة أبي الطيب التي يبدؤها ببيت لزهير[٨]:

وذي خَطَلٍ في القول يحسبُ أنّهُ مصيبٌ فما يُلْمم بـــه فهو قائلُه[٩]

---

[١] الغارب: غارب كل شيء أعلاه (لسان العرب/غرب).

[٢] التشهاق: اقبح الأصوات (لسان العرب/شهق).

[٣] العفا: ولد الحمار (لسان العرب/عفو).

[٤] البيت لأبي الطمحان حنظلة بن شرقيّ (لسان.العرب/سكن).

[٥] نوادر المخطوطات جـ١/ ٣١٢.

[٦] استخبل الرجل إبلا وعنماً فأخبله: استعار منه ناقة لينتفع بألبانها وأوبارها وأعاره (لسان العرب/خبل).

[٧] ابن منظور. (لسان العرب/خبل).

[٨] نوادر المخطوطات جـ١/٢٣٩.

[٩] زهير بن ابي سلمى، ديوانه/٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويختم رسالته ببيت من الشعر يعبّر عن شدة غضبه على ابن غرسيّة فيقول[١]:

((ولا بُدَّ للماء في مرجـــــل على النار موقَدَةً أن يفـــورَ))

ويبدأ ابن مسعدة رسالته ببيت من الشعر لزهير بن أبي سلمى فيقول[٢]:

((ومن يعصِ أطرافَ الزُّجاجِ فإنَّـــهُ يطيعُ العوالي رُكِّبتْ كُلَّ لهـــذمِ[٣]

ولا شكَّ أن مزج الكاتب نثره بالشعر يَنُمُّ عن قدرة أدبيّةٍ عاليةِ المستوى، وعن ثقافة موسوعيّةٍ جعلت الأبيات تنسجم مع النثر.

إن الأدب الذي حمل معاني العصبيّة الأندلسيّة -بكافة أنواعها- قد عكس الكثير من المزايا الأدبية والفنية لأدب الأندلس، إذ هو ابن حضارتها ومعبّرٌ عن لسان حالها، وهو يدلّ على نموّ أساليب الأدباء بمرورِ الزّمن، حتّى استطاعوا أنْ يبدعوا فنّاً يتّسمُ بسمات البيئة الأندلسيّة وما يسودها من زُخرف.

أسلوب الجدل واستخدام الأدلة:

إنّ من أهم ما يميّز الرسائل الشعوبيّة هو اتجاهها نحو الجدل، والإسهاب في استنطاق عدد من الأدلة لإثبات كل طرف رأيه، إنّ مفهوم الجدل في الردود على ابن غرسيّة يتّضحُ في الرسالة التي أجاب بها أبو جعفر بن الدودين البلنسي ابن غرسيّة عندما استقى ابن الدودين جملاً وأدلة من رسالة ابن غرسيّة ثمّ بدأ يرد عليه كما في الأمثلة:

---

[١] نوادر المخطوطات جـ١/٣٥٩.

[٢] المصدر نفسه جـ١/٢٨٣.

[٣] الزورني شرح المعلقات العشر، للقاضي ابي عبد الله الحسين بن احمد بن الحسين الزوزني دار مكتبة الحياة بيروت (١٤١١هـ- ١٩٩١).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((مَلْسُ الأُدُم، ما حاكوا قَطُّ بُرودا، ولا لاكوا عُرودا)) وهذه عبارة من رسالة ابن غرسيّة، فيردُّ عليه ابن الدودين: ((هنا وأبيك من التَّعريض الرَّقيق في مقالك، وآلك، وذلك أنّك وصفتهم بـامّلاسِ الجلود، وقفّيتَ بنفي لَوك العرود، وإيجابُ ذلك لا يليقُ إلاّ ببالك. فهذا لعمركَ من بديعِ التّحقيق، فافْخَر فهاتانِ صفتانِ سلّمتا لكم. وأمّا لوك العُرود فإنّ ذلك أوضح من السّراج الوهّاج في الليل الدّاج. قد تُحدِّثُ أنّ ولدانكم عَطّلوا في وقتٍ سُوقَ نسائكم فَنُمِيَ ذلك إلى مليككم، فحكم، أكرم به من حكيم، أن يبيح النّسوان من أنفسهنّ ما أباح الولدان، وامتثل ذلك، فاتّسقَت الحالان، ونفقت السُّوقان، وما سُمِع في الأزمان، بأغربَ من هذا الشان، فاشْمَخ بأنفكَ وافخرْ بنصفِك. وأمّا حوككم البرود، فناهيكَ من الغِفارة الإفرنجيّة إلى الديباجة الروميّة، والنِّسبتان بذلك تشهدان))[1].

ومن أمثلة هذا الجَدَل من رسالة ابن الدودين: ((وكذلك وَصَفتَ قومَكَ بأنْ: ليسوا حَفَرَة أكَر ولا حَفَرَة عَكِر)) اللهُ أجلُّ الأكَرّ أنْ يحفروها، والعكر أن يحفروها، لكنّهم حَفَرة جِحْشان، وحَفَرَة كهوفٍ وغيران، اتّخذوها مخبأً من قبائل العُربان، وملجأً من وَقْعِ الصوارمِ والمُرّان، فِعْل الخزّان واليرابيع والجرذان[2].

وقد يلجأ الكاتب إلى الاستدلال بالآيات القرآنيّة لتدعيم رأيه وفكرته كما ردّ ابن منّ الله القروي، إذ أراد أن يثبت معرفة العرب لله في جاهليتهم فيقول:

((وهي على كُلِّ حال تذكرُ الله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿ولئن سألتَهم من خَلَقَهم ليقولنّ الله﴾، وقالوا: ﴿ما نعبدُهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زُلفى﴾ وكثير من يُقِرُّ بالبعث والجزاء، ويعترف بالحَشرِ واللقاء، وكان منهم من رَغِبَ عن عبادة الأوثان وتفرّقوا في الأديان))[3].

---

[1] نوادر المخطوطات جـ١/٣٣٣.

[2] المصدر نفسه، جـ١/ ٣٣٣.

[3] المصدر نفسه، جـ١/٣٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويخاطب ابن منّ الله ابن غرسيّة مخاطبة الجدال كما في قوله: ((وهاتِ أرِنا مفاخِرَك، نُرِكَ مَساخِرك. أنت صاحب الشُّهب الصُّهب، والسَّنة شهباء، والجَهّام صهباء. كذلك أنتم لا خَيْر ولا مَيْر، ولا عمرو ولا عُمير، ليس للسَّخاء بالرُّميّة اسم، ولا للوَفاء في العجميّة رسم. أين أنتَ عن السُّمر، القُمر، البيض غُرراً وصِفَاحاً، السُّود طُرراً وأوضاحاً، الدُّعْج عيوناً ورِماحاً، البُلج وجوهاً وسَماحاً، قِممٌ في العمائم، وهِممٌ في الغمائم))[١].

أمّا الاستدلال التاريخيّ فيكادُ يغلبُ عن نمط هذه الرسائل، ولا سيّما بما أتّهم به العرب كما في حديث ابن غرسيّة عن أبي غبشان وأبي رغال. إذ نجد في الرسالة الثانيّة قول صاحبها: ((أيُّها الزاري علينا بشان أبي غُبْشان، وماذا على رجلٍ تخوّفَ فَصَرَفَ على أربابها السَّدانة، ووفّى فأدّى إلى أهلها الأمانة، دون خُدعة ولا خِلاب))[٢].

إنّ الرسالة بطبيعة الحال قد جاءت رَدّاً على رسالة ابن غرسيّة، ولذا كان الجدال والاستدلال هو النمط الذي سيطر على نهج هذه الرسالة.

كما لجأ ابن حزم للاستدلال ومحاورة التاريخ لإثبات أنّ التقصير في التأليف لم يخصّ أهل الأندلس دون غيرهم من الأقطار. ويدخل في النمط الجدلي هذا شعر النقائض الذي شاع استخدامه أثناء الفتنة التي اشتعلت نارُها بين العرب والمولّدين في القرون الأولى من عمر الدولة.

---

[١] نوادر المخطوطات جـ١/٣٤٠.

[٢] المصدر نفسه، جـ١/٣٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة

وبعد، فإننا نخلص -فيما سلف- ببعض النتائج منها:

١- الأدب الأندلسيّ وليد بيئته، ومصوّر للحياة الأندلسيّة بأدقّ تفاصيلها، بما حملته من حروب وفتن وعصبيّات على مدى قرون عديدة.

٢- عرف المجتمع الأندلسيّ مجموعة عصبيّات (عرقيّة، إقليميّة، قبليّة، دينيّة) كان لها أثر على الجانب الفكري والأدبيّ في الأندلس، فصرنا نرى المحاورات والمكاتبات والأشعار التي عبرت وأوضحت عن مفهوم العصبيّة في الأندلس.

٣- كان للعصبيّة -وبخاصة العرقيّة والقبليّة- أثر في تشتّت كلمة المسلمين، وتفرّق جماعاتهم في الأندلس، بسبب الحروب والفتن التي كانت تجري بسبب هذه العصبيّة. الأمر الذي أدّى إلى انقسام الدولة لطوائف وممالك تتبع كل واحدة منها نظاماً خاصاً، بل قد تستعين بالأعداء للقضاء على جارتها الإسلاميّة، مما يؤكد أن للعصبيّة صلة بسقوط الأندلس وتراجع الرقيّ الحضاريّ والسياسيّ فيها.

٤- صورت لنا العناصر السكانيّة في الأندلس -في بعض الفترات الزمنيّة- أرقى أنواع الانسجام والتعاون البشريّ، الذي صبّ في مصلحة البلاد، وتوحّد كلمتهم ورقيّ حياتها الفكريّة والحضاريّة وبخاصة في عصر الخلافة والحجابة.

٥- عاشت في الأندلس أرقى حالات التسامح الديني، فالمسلمون هناك أعطوا أهل الديانات الأخرى من اليهود والنصارى حريتهم الدينية، ولم يقصد المسلمون إلى التعصب ضدّهم، إلا في الوقت الذي أخذ فيه بعض الحاقدين يطعنون بالإسلام ويشكّكون فيه حيث تصدّى لهم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

علماء الأندلس وفقهاؤها. ولعل مفهوم الحوار الدينيّ يبدو واضحاً في رسالة أبي الوليد الباجيّ إلى راهب فرنسا والتي اتّخذها منبراً للدعوة إلى الدين الإسلاميّ.

٦- ظهرت العصبيّة الإقليميّة عند الأندلسيين عندما قلّل المشارقة وأهل العُدوة من شأن علمهم وأدبهم. فحاولوا الدفاع عن وطنهم وإبراز ما فيه من علم. ويبدو أن العصبيّة للأندلس لم تكن عظيمة الشأن في نفوس أهلها في بداية قيام الدولة، لنزوعهم الدائم نحو المشرق والحنين إليه. أما في العصور اللاّحقة فبدأت هذه العصبيّة بالنموّ بعدما أحسّ أهل الأندلس بألم الغربة في رحلتهم إلى المشرق، وبعدما سعى المشارقة للتّقليل من شأنهم العلميّ، فحرص الأندلسيون على تدوين علمهم، والاعتناء به، بل وإبداع فنون تعبّر عن هويتهم وشخصيّتهم الأندلسيّة كالموشحات.

٧- ظهرت العديد من الخصائص الفنيّة في أدب الأندلس والتي أوضحت عن النموّ الفنيّ لهذا الأدب وازدهار صنعته البديعيّة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصادر والمراجع

المصادر:

- القرآن الكريم.
- ابن الأبّار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي (ت ٦٥٨هـ/١٢٥٩م). الحلة السّيراء، ط١ (٢جـ)، تحقيق: حسين مؤنس، الشركة العربيّة للطباعة، القاهرة، ١٩٦٣م.
- ابن الأثير، ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد الجزري (ت ٦٠٦هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، (٢م)، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٩م.
- ابن الأثير، عز الدّين أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ/١٤٠٤م)، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥م.
- الإلبيري، أبو إسحق إبراهيم بن مسعود، ديوان أبي إسحق الإلبيري الأندلسي، تحقيق: محمد رضوان الداية، ط٢، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨١م.
- ابن بسّام، أبو الحسن علي بن بسّام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ط١، (٤جـ)، (٨م)، تحقيق إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبدالملك، كتاب الصلة، (٢جـ)، الدار المصرية، القاهرة، ١٩٦٦م، ج٢.

– كتاب الصلة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (٢جـ)، دار الكتاب المصري، بيروت، ١٩٨٩م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الجرجاني، أبو الحسن علي بن عبدالعزيز بن الحسن (ت ٣٩٢هـ)، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، ط٣، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية.

- ابن حجر العسقلاني، الحافظ شهاب الدّين أبو الفَضْل أحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، لسان الميزان، (٦جـ)، دار الفكر، بيروت.

- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م).

  - الردّ على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى، تحقيق إحسان عبّاس، القاهرة، مكتبة دار العروبة، ١٩٦٠م.

  - رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عبّاس، ط١، (٤جـ)، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، يروت، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م.

- ابن حمديس، أبو محمد عبدالجبار بن أبي بكر (ت ٥٢٧هـ)، ديوان ابن حمديس، تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.

- عبدالقادر الجرجاني، أبو بكر عبدالرحمن بن محمد (ت ٤٧١هـ)، دلائل الإعجاز، ط٢، تحقيق: رضوان الداية وفايز الداية، مكتبة سعد الدين اللبناني، لبنان، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

- الحميدي، أبو عبدالله محمد بن أبي نصر (ت ٤٨٨هـ)، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، (٢جـ)، ط٣، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبنانب، لبنان، ١٩٨٣م.

- الحميري، أبو عبد محمد بن عبدالله (ت ٩٠٠هـ)، الروض المعطار في خبر الأقطار، ط٢، تحقيق: إحسان عبّاس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

• ابن حيّان، أبو مروان حيّان بن خلف (ت ٤٦٩هـ/١٠٧٦م)، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق: عبدالرحمن علي الحجّي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م.

– المقتبس في أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، القاهرة، ١٩٧١م.

– المقتبس، (٥جـ)، نشره ب. شالميتا كورنيطي؛ م. صبح وغيرها، المعهد الإسباني العربي للثقافة، كلية الآداب، الرباط، مدريد، ١٩٧٩م.

• ابن خاقان، أبو نَصر الفتح بن محمد بن عبدالله الإشبيلي (ت ٥٢٩هـ)، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ط١، (٤جـ)، تحقيق: حسين يوسف خربوش، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٩م.

• ابن خفاجة،، أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح (٥٣٣هـ)، ديوان ابن خفاجة، تحقيق السيّد مصطفى غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٠م.

• ابن خلّكان، أبو العبّاس شمس الدين أحمد (ت ٦٨١هـ)، وفيان الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (٨ جـ)، تحقيق: إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٠م.

• ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومَنْ عاصرَهم من ذوي السلطان الأكبر، (تاريخ ابن خلدون)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٨م.

– مقدمة ابن خلدون، ط٣، (٣جـ)، تحقيق: علي عبدالواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة.

• الخوارزمي، أبو عبدالله محمد بن أحمد (ت ٣٨٧هـ)، مفاتيح العلوم، طـ٢، مكتبة الكليّات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨١م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- أبو داود، الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت ٢٧٥هـ)، (٤جـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار إحياء السنة النبويّة، بيروت.

- ابن درّاج، أحمد بن محمد بن العاصي (ت ٤٢١هـ)، ديوان ابن دراج القسطلي، ط١، تحقيق محمود على مكيّ، منشورات المكتب الإسلامي، مدريد، ١٩٦١م.

- الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، ط١، (٢٤جـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٣م.

- الرّمادي، يوسف بن هارون (ت ٤٠٣هـ)، شعر الرّمادي، ط١، جمعه وقدّم له: ماهر زهير جرّار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

- الزوزني، أبو عبدالله الحسين أحمد بن الحسين، شرح المعلقات السبع، دار القلم، بيروت.

- ابن زيدون، أحمد بن عبدالله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي، (ت ٤٦٣هـ)، ديوان ابن زيدون، ط١، تحقيق: حنّا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

- ابن سعيد، علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ)، المُغْرب في حُلَى أهل المَغْرب، ط٢، جزآن، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ١٩٧٨م.

- السلفي، أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد (ت ٥٧٦هـ)، أخبار وتراجم أندلسيّة مستخرجة من مُعْجم للسّلفي، ط١، تحقيق: إحسان عبّاس، دار الثقافة-بيروت، ١٩٦٣م.

- ابن سناء المُلْك، القاضي السعيد أبو القاسم هبة الله بن جعفر بن سناء الملك (ت ٦٠٨هـ)، دار الطراز في عمل الموشّحات، ط٢، تحقيق جودت الرّكابي، دار الفكر، دمشق، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن شُهيد، أحمد بن أبي مروان بن عبدالملك الأشْجَعي (ت ٤٢٦هـ)، ديوان ابن شُهيد، تحقيق: يعقوب زكي، راجعه محمود علي مكّى، دار الكتاب العربي للطباعة، القاهرة.
- الضَّبيّ، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت ٥٩٩هـ)، بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، ط١، جزآن، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري-القاهرة، دار الكتاب اللبناني-بيروت ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.
- ابن طباطبا، محمد بن أحمد العلوي، عيار الشعر، ط١، تحقيق عباس عبدالستّار، مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب العلمية-بيروت ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- ابن عبدربه، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبدربّه القرطبي (ت ٣٢٨هـ)، ديوان ابن عبدربّه الأندلسي، تحقيق محمد التونجي، مؤسسة ومكتبة الخافقين، دمشق،١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.
- العقد الفريد، (٨جـ)، تحقيق: محمد سعيد العريان، دار الفكر-بيروت.
- ابن عذاري، أحمد بن محمد المراكشي (ت بعد سنة ٧١٢هـ)، البيان المُغْرب في أخبار الأندلس والمغرب، ط٣، (٤جـ)، تحقيق ومراجعة: ج.س كولان و ليفي بروفنسال، والجزء الرابع منه تحقيق ومراجعة إحسان عبّاس، دار الثقافة-بيروت ١٩٨٣م.
- ابن غرسية، رسالة ابن غرسيّة والردّ عليها، نوادر المخطوطات، تحقيق عبدالسلام هارون، (٢م)، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة ١٩٥١-١٩٥٢م.
- ابن الفرضي، أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزديّ القرطبيّ (ت ٤٠٣)، تاريخ علماء الأندلس، ط٢، (٣جـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن قُزمان، محمد بن عيسى بن أبو بكر بن قزمان (ت ٥٥٥هـ)، ديوان ابن قزمان نَصّاً ولغة وعروضاً، دراسة ف.كورنيطي، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، ١٩٨٠م.

- ابن القوطية، محمد بن عمر بن عبدالعزيز (ت ٣٦٧)، تاريخ افتتاح الأندلس، ط١، تحقيق: عبدالله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف للطباعة-بيروت ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

- لسان الدين الخطيب، لسان الدين محمد بن عبدالله السلماني (ت ٧٧٦هـ)، الإحاطة في أخبار غرناطة، ط١، (٤جـ)، تحقيق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة.

- تاريخ إسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام فيمن بويعَ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ط٢، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦م.

- مجهول، المؤلف (عاش في القرن ٤هـ)، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكرِ أمرائها - رحمهم الله- والحروب الواقعة بها بينهم، ط٢، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري-القاهرة، دار الكتاب اللبناني-بيروت، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.

- المرّاكشي، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالملك الأنصاري الأوسي المراكشي (ت ١٣٠٣،....م)، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م.

- المراكشي، أبو محمد عبدالواحد علي (ت ٦٤٧هـ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط١، تحقيق: محمد سعيد العريان ومحمد العربي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٩.

- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط١، (٤جـ)، تحقيق: عبدالأمير مهنّا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- مسلم، الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجّاج (ت ٢٦١هـ)، صحيح مسلم بشرح الإمام محيي الدين النّووي (ت ٦٥١هـ)، المسمّى المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجّاج، ط١، (١٨جـ)، تحقيق: الشيخ خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
- المقّري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ)، نفح الطيب في غصنِ الأندلسِ الرّطيب، (٨جـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري (ت ٥١٨هـ)، مجمع الأمثال، جزآن، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦١م.
- ابن هشام، جمال الدين أبو محمد بن عبدالملك بن هشام الحميري (ت ٢١٣هـ)، السيرة النبوية، (٤جـ)، تحقيق: طه عبدالرؤوف، مكتبة الكليّات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٤م.
- أبو الوليد الباجي، سليمان بن خلف بن سعد التجيبيّ القرطبيّ (ت ٤٧٤هـ)، رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي أبي الوليد الباجي عليها، دراسة وتحقيق: محمد الشرقاوي، دار الصحوة، القاهرة، ١٩٨٦م.
- أبو الوليد الحميري، أبو الوليد إسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب الحميري الإشبيلي (ت ٤٤٠هـ)، البديع في وصف الربيع، تحقيق: عبدالله عبدالرحيم، دار المدني، جدّه، ١٩٨٧م.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموي البغدادي (ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، (٥جـ)، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م.
- يحيى الغزال، يحيى بن حكم البكريّ الجياني الأندلسي، الملقب بالغزال (ت ٢٥٠هـ)، ديوان يحيى بن حكم الغزال، ط١، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار قتيبة، الإمارات، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

• أبو يحيى الزجّالي، أبو يحيى عبيدالله الزجّالي القرطبي (١٢٢٠هـ) أمثال العوام في الأندلس، مستخرجة من كتابه: رَيّ الأوام وقَرْعى السّوام، في نكت الخواطِر والعوام، تحقيق: محمد بن شريفة، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية، ١٩٧١م.

المعاجم اللغويّة:

• الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢١٣هـ)، تاج العروس من جَوَاهر القاموس، وزارة الإرشاد والإنباء، الكويت، ١٩٨٧م.

• ابن فارس، أبو الحسن، أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، (٦جـ)، تحقيق عبدالسّلام هارون، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م.

• الفيروز أبادي، مجد الدين أبو الطّاهر محمد بن يعقوب (٨٢٣هـ)، القاموس المحيط، (٤جـ)، المؤسسة العربيّة، بيروت، ١٩٥٢م.

• ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، طـ١، ١٥مجلّداً، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

• إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، طـ٦، جزآن، ١٩٩٤م.

المراجع:

• إحسان عبّاس، تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، طـ٧، دار الثقافة، لبنان، ١٩٦٨م.

• جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، طـ٢، (١٠جـ)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٦م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦م.
- خير الدين الزركلي، الأعلام، ط٩، (٨جـ)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٠م.
- زكريا إبراهيم، ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري الموسوعي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة.
- سيد غازي، ديوان الموشحات، (٢جـ)، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٩م.
- شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، الأندلس، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٤م.
- الطاهر أحمد مكي، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٣م.
- عبدالرزاق حسين، الأدب العربي في جزر البليار، ط١، دار الجليل، عمان، ١٩٩٣م.
- عبدالعزيز الأهواني، الزجل في الأندلس، معهد الدراسات العربية العالمية، القاهرة، ١٩٥٧.
- عبدالعزيز الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ط١، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٢.
- عبدالعزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ط٢، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦.
- عبدالغني مغربي، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، ترجمة الشريف بن دالي، دار أمواج، بيروت، ١٩٩٣م.
- عبدالله بن سلوم السامرائي، الشعوبية حركة مضادة للإسلام، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠م.
- علي بن محمد، النثر الأدبي في الأندلس في القرن الخامس مضامينه وأشكاله، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- علي لغزيوي، أدب السياسة والحرب في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الرابع الهجري، مكتبة المعارف، الرباط، ١٩٨٧م.
- عمر الدقاق، ملامح الشعر الأندلسي، دار الشرق العربي، بيروت، ١٩٧٣م.
- عمر رضا كحّالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، المكتبة الهاشمية، دمشق، ١٩٤٩م.
- فضل عباس، البلاغة فنونها وأفنانُها، ط١، دار الفرقان، عمّان، ١٩٨٥م.
- ليفي بروفنسال، أدب الأندلس وتاريخها (سلسلة محاضرات عامة (١٩٤٧-١٩٤٨م)) ترجمة محمد بن عبدالهادي شعيرة، المطبعة الأميريّة، القاهرة، ١٩٥١م.
- ماهر هلال، جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنّقْدي عند العرب، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٠م.
- مجموعة مؤلفين، اضواء على التعصّب، ط١، دار أمواج، بيروت، ١٩٩٣م.
- محمد زكريا عنان، الموشحات الأندلسية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة-الكويت)، ١٩٨٠م.
- محمد سعيد الدغلي، الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي والأدب الأندلسي، دار أسامة، دمشق، ١٩٨٤م.
- محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون، العصبيّة والدّولة، معالم نظريّة خلدونيّة في التاريخ الإسلامي، ط٥، مركز دراسات الوحدة العربيّة، ١٩٩٢م.
- محمد عبدالمنعم خفاجي، الحياة الأدبية في الأندلس والعصر العبّاسي الثاني، القاهرة، ١٩٥٠م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- محمد المنجّد، التربية الإسلامية، ط١، مكتبة الإيمان، الرياض، ١٩٩٧م.
- مصطفى الشكعة، صور من الأدب الأندلسي، ط١، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧١م.
- هاني يحيى نَصرْي، عصبيّة لا طائفيّة، ط١، دار القلم، بيروت، ١٩٨٢م.
- يسري سلامة، الأدب الأندلسي، صور فنية واجتماعيّة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٠م.
- يوسف طويل، مدخل إلى الأدب الأندلسي، ط١، دار الفكر اللبناني-بيروت، ١٩٩١م.

الرسائل الجامعيّة:

- جمانة رجب باشا، أثر الأندلسيّة في الأدب الأندلسي، حتى نهاية عصر الموحدين، "رسالة ماجستير" جامعة حلب، حلب، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
- شريف راغب علاونة، قضايا النقد الأدبي والبلاغة بالاندلس في عصر المرابطين والموحّدين (٤٧٩-٦٤٦هـ) (رسالة دكتوراة) الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٦.
- عبداللطيف محمود مجيد، شعر الحرب في الأندلس من الفتح حتّى سقوط الخلافة، (أطروحة ماجستير)، الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.
- عصام عبدالمجيد المطري، الحركة الشعرية في ظل المنصور بن أبي عامر، "رسالة ماجستير" الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٣م.

الدوريات:

- جمعة شيخة، من مظاهر الشعوبيّة في الأندلس، دراسات أندلسية، عدد ٤، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- عبدالواحد ذنّون طه، الدّسُّ الشعوبي بالأندلس، وموقفُ العرب في مجابهته، دراسات أندلسيّة، عدد ٤، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.
- عبدالواحد الفاسي، محاولة للدفاع عن برّ العدوة، مجلد ١٧، ١٣٨٨هـ-١٩٦٩م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ABSTRACT

THE EFFECT OF FANATICISM IN THE ANDALUSIAN LITERATURE TO THE BEGINNING "MOWAHEDEEN"

By

Amer Al-Ja'afari

Supervisor

Prof. Dr. Salah Jarrar

The literary phenomenon is the best transmitter for the picture of the era risen in. It reflects peoples' feeling, emotions, concerns and pains, etc. ... This saying is authenticated upon the Andalusian literature with its all shapes, poetry, "Muwash'hat", and prose.

The Andalusian literature has affected by the atmospheres (environment) which grown in and it has reflected a very bright vision of interaction on the civilized interaction between the inhabitants elements in Al-Andalus, and about the Andalusian s love to their homeland and their struggles and sacrifices to their homeland.

The partisanship -comprehensively- was one of the phenomenon's which literature has transferred it to us, where the researcher can discovers and reveals it. The following partisanships the literature has transferred to us:

1- Tribal Fanaticism; during the state initiative in Andalus; the literature reflected the Andalusiam mental, where people insist to keep the tribe understanding since they were newly came from east, which resulted a divide in the Arabic order and dispersion of their word.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

2- Ethnic Fanaticism, through the example we stated, that non-Arab races worked to defame from the Arabic mastery as well as to exterminate it, which forced some at the Arabic leaders to outbreak on these.

٤٩٤٩١٤

3- Religious fanaticism: here the reader can strongly fell the Islamic merciful and the religious freedom which Islamic provided to other religious, and Muslims never fantasized to Islam unless when some of the obliques tried to exterminate and to fill with doubt to Islam.

4- Doctrinal Fanaticism, in the beginning the Malikian Doctrine dominated in Andalus and it was not allowed for other Islamic doctrines to step on to the island in that time Ibn-Hazm, initiated for his doctrine "Al-Zahiri" which ignited the doctrinal fanaticism.

5- Regional "Geographical" fanaticism, which reflected the Andalusian's loyalty to their land and their efforts to defeat the easterns by producing their own literature and sciences.

The partisanship in Andalus state has lifted a clear trace in the Andalusian literature and perhaps -that partisanship- took part in backwarding of that state where the state was divided into small states each is plotting the others.

This thesis is viewing the partisanship in the Andalusian's literature such as: poetry, prose, proverbs, and "Muwash'hat". The thesis is a study for the most important artistical characteristics of partisanship literature which reflects the growth and development of Andalusian's literature and the state establishment.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit